الدكتورة نبيلة ابراهيم

قصصنا الشعبي

من الرومانسية إلى الواقعية



دار العودة - بيروت
دار الكتاب العربي - طرابلس

الدكتورة نبيلة ابراهيم

قصصنا الشعبيُ

من الرومانسيّة إلى الواقعيّة

دار العـودة - بيروت

دار الكتاب العربي - طرابلس

الدكتورة نبيلة ابراهيم

قصصنا الشعبي

من الرومانسيّة إلى الواقعيّة

دار العـودة - بيروت
دار الكتاب العربي - طرابلس

وفاة المؤلفة في ١٨/١/٢٠١٧م .

المقدمة

هذا العمل الذي اقدمه اليوم الى القارىء العربي ، بعد حصيلة عمل دائب ومعايشة صادقة لتراثنا الشعبي بصفة عامة ، وقصصنا الشعبي بصفة خاصة . على انني لم اكن احاول ان اتعرف على الشعب من خلال أدبه الروائي فحسب ، بل انني عرفت الشعب على الطبيعة ، فأحببته ، وقدرت قدراته الفنية كل التقدير ، وأحسست قلبيا بآمـاله وآماله .

وكم كنت اود ان اعايش الشعب العربي في كل قطر عربي على حدة ، معايشتي للشعب المصري . وكم كنت اود ان استمع من افواه ابنائه الى اشكال تعبيره . ولو انني فعلت لكان عملي هذا اكثر اكتمالا . ولكنني على كل حال اتمنى ان يكون هذا العمل بداية خطوات على الطريق ، بحيث يهتم الباحثون في كل بلد عربي ، لا بتقديم نصوص من تراثهم فحسب ، بل بدراسة هذه النصوص حق دراستها ، وربطها كل الربط بواقع الشعب ، حتى ندرك التغيير الذي يطرأ على بناء الادب الشعبي ، استجابة للتغيير الذي يطرأ على المجتمع .

لقد كانت الرغبة تدفعني منذ زمن لدراسة القصص الشعبي العربي الحي وكانت هذه الرغبة تزداد اشتعالا كلما اطلعت على نصوص من هذا القصص ، وكلما استمعت الى حكايات من أفواه الشعب ، وكلما قمت بواجبي العلمي في الاشراف على رسالة تدرس انتاجا ادبيا شعبيا لشعب من الشعوب العربية ، وبدافع هذه الرغبة قمت ببعض

المحاولات في دراسة القصص الشعبي ، وهي تلك التي دونتها في كتابي « الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق » ولكنني عندما فرغت من هذا الكتاب ، لم اكن أشعر قط بالاقتناع النفسي بانني قد حققت رغبتي·

ثم ظلت الرغبة تدفعني الى مزيد من البحث ، حتى تمكنت بعد جهد جهيد من ان احصل على كتاب«بروب» عن «مورفولوجية الحكايات الخرافية » ولم اكن قد اطلعت على هذا الكتاب ، رغم علمي بقيمته ، لان طبعات هذا الكتابكانت قد نفدت· فلما اصبح الكتاب في حوزتي، اخذت اقرأه في نهم بالغ · ولست انكر انني مدينة لهذا الكتاب في تأليف كتابي هذا · حقا ان كتاب « بروب » لم يقدم سوى التحليل المورفولوجي للحكاية الخرافية ، على نحو ما قدمته للقارىء · وبعد ذلك لم يقدم الكتاب تفسيرا لهذا التحليل ، كما لم يقدم دراسة لعلاقة هذا الشكل الادبي بنفسية الشعب او الشعوب التي انبثق منها هذا التعبير الادبي · ولكنني رأيت ، بعد الفراغ من قراءته ، ان ابدأ من حيث انتهى الكتاب ، في دراسة قصصنا الشعبي العربي · ولهذا فقد حاولت ان اقتفي أثر الوحدات الوظيفية التي ذكرها « بروب » في حكايتنا الشعبية الحية ، التي ما زال الشعب حتى اليوم يرغب في روايتها والاستماع اليها · وعند ذلك كشف لي التحليل المورفولوجي للحكاية الشعبية عن اختلافها الجوهري عن الحكايات الخرافية · ولم يتمثل لي هذا الاختلاف في عدد الوحدات الوظيفية التييستخدمها كل من النمطين فحسب ، بل تمثل في محتواهما وطبيعة شخوصهما · فلما فرغت من ذلك عكفت على تقديم تفسير لالتزام كل نمط من النمطين بشكل بعينه · وقد تمثل هذا التفسير في توضيح علاقة كل نمط بنفسية الشعب الذي كان رومانسيا بالامس ثم اصبح واقعيا بعد ذلك ·

ولقد استعرت اصطلاح الرومانسية ، فيما يختص بالحكايات الخرافية ، من الادب الذاتي ، رغم علمي بأن هذا الاصطلاح يعني اتجاها في التعبير الفني والادبي يعد صدى مباشرا لعلاقة الفنان والاديب بظروف المجتمع التي عاشها في فترة من فترات تطوره · وهذا

ما حاولت في الحقيقة ان ابرزه في الفصل الثاني من الباب الثالث ، اعني علاقة الحكايات الشعبية بالمجتمع الذي يعيش فيه الشعب اليوم · أما بالنسبة للحكاية الخرافية فان ربطها بالمجتمع الشعبي الذي عاشت فيه يعد من الصعوبة بمكان ، ذلك اننا لا نستطيع ان نبين على وجه التحديد متى نشأت الحكاية الخرافية ، وفي اي الظروف الاجتماعية نمت وازدهرت · فاذا أضفنا الى هذا ان الحكاية الخرافية نمط روي في جميع انحاء العالم ، وربما ما زال يروى بقدر او بآخر ، فان هذا يضيف صعوبة اخرى الى ربط هذا النمط من التعبير الشعبي بالمجتمع بل المجتمعات التي نشأ فيها · واقصى ما قيل في هذا الصدد هو ان الحكاية الخرافية ، لحرصها على ابراز الصور المتطرفة للفقر والغنى ، ربما تكون قد نشأت في فترة من تاريخ تطور المجتمعات لم يكن للطبقة البرجوازية فيها اي تأثير · وعلى الرغم من ان هذا يعد مجرد فرض ، فان جو الحكاية الخرافية يدفعنا الى تصور انعزال الطبقة الشعبية عن سائر طبقات المجتمع ، الامر الذي دفعها لان تبث آمالها التي تحلم بها فيما تحيكه من حكايات ·

وعلى كل فان الشيء الواضح هو ان الحكايات الخرافية تعبير رومانسي عن آمال الشعب الذي كان يرتاح الى هذا التعبير لانه يصور له العالم الجميل الذي يصبو اليه · فلما بدأ الشعب يعيش واقع الحياة نتيجة تغير المفهومات الايديولوجية للمجتمع ، الامر الذي جعله يدخل مرحلة صراع مع واقعه من ناحية،ومع سائر الطوائف الاجتماعية من ناحية اخرى ، تغيرت اشكال تعبيره كما تغيرت وظيفتها · وهذا ما حاولنا جهد طاقتنا ان نوضحه ·

ان الادب الشعبي ليس مجرد تعبير يحتفظ به الشعب لنفسه ، بل هو صرخة عالية تدعونا الى ان تستمع اليها ، وان نتفهمها وان نتعاطف معها · فاذا فعلنا ذلك ، امكننا ان ندعي اننا نصنع بقدراتنا

العلمية شيئا ايجابيا يسهم في الكشف عن نفسية الشعب ، وما يختلج بها من آلام وآمال ٠

ولا يسعني بعد ذلك سوى ان اعبر عن املي الصادق في ان يكون هذا العمل الصغير بداية اعمال كبيرة يحققها الباحثون من ابنـــــاء شعوبنا العربية في مجال دراستنا الشعبية التي ما نزال نحبو في طريق شائك وطويل ٠

نبيلة ابراهيم سالم

القاهرة في ١٥/٩/١٩٧٣

الباب الاول

المناهج المعاصرة في تصنيف القصص الشعبي



« الفصل الاول »

نحو المنهج البنـائي

(١) ما قبل المنهج البنائي :

بعد ان شغل الباحثون الفولكلوريون فترة منالزمن بجمع القصص الشعبي بأنواعه المختلفة ، عكفوا على تصنيفـــــه · وقد كانت المادة المطروحة بين أيدي الباحثين من جميع انحاء العالم من التنوع ، وعن التشابه والاختلاف في الوقت نفسه ، الى درجة أنهم اجهدوا أنفسهـــم حقا في ضرورة الوصول الى تصنيف واحد تندرج تحتهكل هذه المـــادة المتشابهة المختلفة من جميع انحاء العالم · وقد تمخض هذا الجهد عن تصنيف « آنتي أرني » الباحث الفنلندي المرموق الذي عاش في نهايـة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين · وهذا التصنيف وسعـــه الباحث الامريكي المعاصر « سميث تومسون » وعرف فيما بعد بتصنيف آرن تومسون ·

وقد نظر هذا التصنيف الى القصص الشعبي من ناحية المحتـوى لا من ناحية الشكل · وبتعبير آخر لم ينظر قط الى القصص الشعبـــي من ناحية بنائه التركيبي · فلقد عكف أصحاب هذا التصنيف عـــلى تفتيت الحكايات الى أجزائها الصغيرة بقصد تحديد الانماط الاساسية التي يندرج تحتها القصص الشعبي الذي يروى في جميع انحاء العالم·

وعند تحديد كل نمط كانوا يضعون نصب اعينهم الروايات المختلفة لهذا النمط · ومعنى هذا ان الحكاية الواحدة تخضع لفن من الالتزام فيتمثل في النموذج ذي البنية التركيبيـــــة المحددة · واما الحرية فمجالها العناصر الصغيرة المتغيرة، اي تلك الوحدات التي تتألف منها الحكاية. وهي التي تخضع الى حد كبير لمستوى القاص الحضاري وأحوالـــــه النفسية ، ومهارته في القص ·

لقد اختلف الباحثون وفق هذا المنهج في التصنيف ، في تسميـة الوحدات التي تتألف منها الحكاية ، فمنهم من بدأ بالموضوعات الصغيرة motives ثم تتطور الى الفكرة thème ثم الى الاحدوثة episode . ومنهم من بدأ بالعنصر élément ثم الحدث incident الذي يتكون من مجموعة من العناصر · ومنهم من بدأ بالاحدوثة عـلى اساس انها مرادف للعنصر ، ثم تطور الى الحدث الكبير · ومنهم من رأى ان الحدث الكبير والحدث الصغير شيء واحد ، على اساس ان كلا منهما يحتوي على مجموعة من العناصر ترتبط بحركة الحكاية (١) ·

وهكذا نرى الى اي حد اختلف الباحثون انفسهم على تحديــد الوحدة الاساسية للحكاية الشعبية · بل انهم لم يتفقوا بشأن تحديــد مصطلح طالما استخدموه وهو كلمة motif الى درجة اننا نجد الباحث الكبير سميث طومسون يحـــــاول ان يهرب من تحديد هذا المصطلح ، بقوله : « ربما كان اصعب سؤال وجـــه الي فيما يختص بتصنيفي هو ·· ما الموتيف ؟ وكل ما استطيع ان اجيب به عن هـــذا السؤال ، هو ان الموتيف هو المادة التي تتألف منها الحكاية · وليـــس

....

1) Propp. (V.) Morphology of the Folktale : pp. 7 - 10, Indiana University, 1971.

المهم بعد ذلك ان نحدد شكل هذه المادة ، اذا كانت هذه المادة تعد جزءا من بناء الحكاية » (٢) ٠

وفضلا عن ذلك فانه على الرغم من تلك الجهود التي بذلتها المدرسة الجغرافية التاريخية في تصنيف الحكايات الى نماذج او انماط واستخلاص ما فيها من وحدات صغيرة او كبيرة ، ومقارنة هذه الوحدات المتغيرة في الروايات المختلفة للحكاية الواحدة بقصد الوصول الى الاصل الاول للحكاية ، على الرغم من ذلك فان هذه المدرسة قد وقفت بالبحث العلمي في القصص الشعبي عند حد الجمود ، في الوقت الذي كانت تتطور فيه مناهج الدراسات الادبية واللغوية الى حد بعيد ٠

وقد كان أول من نقد هذه المدرسة بشدة أصحاب المنهج البنائي المدرسة الجغرافية التاريخية في تصنيف الحكايات الى نماذج او انماط خاصة ٠ ويمكننا ان نلخص وجوه النقص التي وجهت الى هذه المدرسة فيما يلي :

اولا : ليس هناك مجال للشك في ان دراسة الظواهر والاشياء التي تحيط بنا ترتبط بدراسة تكوينها وبنائها ، وبالعمليات والتغيرات التي تتعرض لها ، ثم بالبحث عن أصولها ، كما انه ليس هناك مجال للشك في ان السؤال عن أصل أية ظاهرة لا يمكن ان يتأتى الا بعد ان تكون هذه الظاهرة قد وصفت وصفا دقيقا ٠ وحيث ان القصص الشعبي يعد ظاهرة من ظواهر الحياة الشعبية ، فانه لا يتسنى لنا دراسته في ارتباطه القوي بالحياة الشعبية ، الا اذا درسنا شكله وبناءه وعلاقته بالتغيرات التي يتعرض لها ٠ وهذا ما لم تدركه المدرسة الجغرافية التاريخية ، او مدرسة « الانماط والموتيفات » كما عرفت بذلك ٠ بل ان

....

2) Alan Dundes : The Morphology of North American Indian Folktales, (F.F.C. Nr. 195, Helsenki 1964), p. 54.

باحثيها قد اجهدوا انفسهم في تفتيت الحكاية الى وحدات صغيرة ، ثم الى وحدات اكبر منها ، ونظروا الى كل وحدة على أساس مستقل ٠ هذا مع ان الحكاية الشعبية ، أيا كان نوعها ، كما سنرى بعد ذلك ، تتكون أساسا من حركات او احداث يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا ، وفق ضرورة اجتماعية ونفسية وفنية ، بحيث يصعب تماما عزل الحدث الواحد منها عن سائر الاحداث ٠

ثانيا : على الرغم من ان التصنيف يعد الخطوة الاساسية الاولى للدراسة فانه لا يتم ، او لا ينبغي ان يتم ، الا بعد دراسات واسعة ٠ وهذا ما تفعله سائر العلومالتي نحتذيبها اليوم بهدف ارساء دراستنا الادبية على اسس علمية ٠ فعالم الطبيعة ، على سبيل المثال ، لا يصل الى تصنيف الظاهرة الا بعد تحليل أجزائها وربط هذه الاجزاء بعضها بالبعض الآخر ، ثم مقارنتها بالظواهر الاخرى الشبيهة بها ٠ اما المدرسة الجغرافية التاريخية فقد اغفلت الشكل الكلي نتيجة اهمالها لعلاقة الوحدات بعضها ببعض ٠

ثالثا : عندما صنفت المدرسة الجغرافية التاريخية القصص الشعبي وضعته في شكل نماذج أساسية Types ونماذج فرعية Sub-types ٠ وهذه النماذج تتحدد وفقا للوحدات الصغيرة التي تتألف منها ٠ وحيث ان هذه الوحدات كثيرا ما تتكرر في اكثر من نموذج ، فان الباحث يحار حقا في ادراج حكايته وفقا لاي نموذج ٠

وعلى الرغم من هذه العيوب التي وجهت الى المدرسة الجغرافية التاريخية فليس هناك احد ينكر فضل هذه المدرسة على الدراسات المقارنة التي استعانت كل الاستعانة بتصنيف آرن طومسون ٠ فاذا علمنا ان اكثر مراكز ومعاهد الدراسات الشعبية في البلاد المتحضرة قد اتبعت في تصنيفها للحكايات تصنيف آرن طومسون ، فاننا ندرك مدى ما حققه اصحاب هذه المدرسة من تيسير للباحثين في الحكايات الشعبية ، فاذا شاء باحث ان يدرس نمطا من انماط آرن طومسون فان

المراكز والمعاهد السابق ذكرها سرعان ما تمدد ، بناء على طلبه ، بالروايات المختلفة عندها لهذا النموذج الذي سبق ان ادرجته في أرشيفها ، مستعينة بهذا التصنيف ·

على ان هناك من الباحثين من شاء ان يتبع منهجا آخر في التصنيف يخالف تصنيف آرن طومسون وان لم يسلم في عيوبه · رهذا التصنيف لا يقوم على أساس الموضوع كما هو الحال فيالتصنيف الاول، بل يقوم على أساس النوع ، وربما كانت اكثر التصنيفات النوعية الفة لنا تصنيف الحكايات الى حكايات خرافية ، وحكايات الحياة اليومية ، وحكايات الحيوان · وقد يبدو هذا التصنيف مقنعا لاول وهلة ، ولكن ما ان نأخذ في فحص الحكايات حتى تثار التساؤلات الآتية : الا تحتوي حكايات الحيوان على احداث خرافية وخيالية الى درجة بعيدة ؟ ثم الا تحتوي بعض الحكايات الخرافية على عنصر الحيوان ؟ وهل نضم حكاية الصياد والسمكة السحرية ، على سبيل المثال،وهو النمط المعروف في جميع انحاء العالم ، الى الحكايات الخرافية ام الى حكايات الحيوان ؟

وقد حاول الباحث الالماني المرموق « فوندت » ان يتوسع في التصنيف النوعي للحكايات ، وذلك في بحثه الموسوعي « سيكلوجية الشعوب » (١) · فقد قسم فوندت القصص الشعبي الى الانواع الآتية :

١ ـ الفابولا الميثولوجية Mythologische Fabelmârchen

٢ ـ حكايات السحر الخرافية الصرف Reine Zaubermârchen

٣ ـ الخرافات والفابولات البيولوجية
Biologische Mârchen und Fabeln

1) W. Wundt : Volkerpsychologie, II, Teil I, S. 346, FF, (Leipzig 1911).

٤ ـ فابولات الحيوان Reine Tierfabeln

٥ ـ حكايات أصول القبائل والشعوب Abstammungsmärchen

٦ ـ حكايات هزلية خرافية وفابولات هزلية
Scherbmârchen und Scherzfâbeln

٧ ـ فابولات أخلاقية Moralische Fabeln

حقا ان هذا التصنيف النوعي اكثـــر غنى من التصنيف الاول ، ولكنه كذلك مثير للتساؤلات : فكم يتكرر اصطلاح « فابولا » في هذا التصنيف ؟ ، هذا فضلا عن اننا لا ندرى على وجه التحديد ماذا يعني به « فوندت » · ثم أليس من الممكن ان تكون الحكاية هزلية وتاريخية في الوقت نفسه ؟ ثم كيف يمكننا ان نفصل فصلا قاطعا بين الحكايات الاخلاقية وحكايات الحيوان ؟

ربما كانت هذه النماذج كافية لكي تطلعنا على الصعوبات التـي واجهها الباحثون في القصص الشعبي في سبيل تصنيفه ، وعـــلى العيوب التي وجهت الى محاولاتهم الجدية المضنية في سبيل الوصول الى منهج سليم تستقر عنده الانواع المتعددة للقصص الشعبي ·

وقد يتساءل الباحث غير المجرب ، الذي يدفعه حبه للقصـــص الشعبي اولا وقبل كل شيء الى تبسيط الامور ، فيقول : ما لنا نشـــق على أنفسنا في البحث في الامور المجردة ؟ الا يشغل العلم بذلك نفسـه بكثير من المجردات التي لا تعد ضرورية في جوهرها ؟ ولماذا نحرص كل الحرص على تحديد الطريقة التي نعزل بها عناصر الحكاية الشعبية، ونحاول تصنيفها وفقا لها ؟ فسواء درسنا الحكايات وفقا لجزئياتهـــا او أفكارها ، الا يؤدي ذلك حتما الى تشخيص الحكاية ؟

ومثل هذهالتساؤلات تنبع فيالحقيقة من الخلط في تصور الاتجاه

العلمي المحدود الذي ينبغي ان تخضع له الدراسات الشعبية في عصرنا الحاضر ، مسايرة في ذلك ما اعترى البحث في العلوم والآداب من تغيير في أسسها العلمية . واذا كان البحث في اللغة يعد أقرب الابحاث الى الدراسات الشعبية الادبية ، فاننا نتساءل : هل يمكننا ان نتحدث عن حياة اللغة دون ان نعرف شيئا عن أجزاء الكلام وعن المجموعات المحددة من الالفاظ التي تنتظم وفقا للقوانين التي نتحكم في تغييرها ؟ ان اللغة الحية حقيقة حسية وليست القواعد اللغوية سوى قوامها التجريدي . وهذا القوام التجريدي بدوره يخضع لظواهر عدة في الحياة . وهذا ما اتجه اليه العلماء بحق ، نتيجة وعيهم بان شرح الحقيقة الحسية لا يمكن ان يتم ما لم ندرس أسسها المجردة .

واذا كانت هذه المناهج السابقة التي فاتها ان تنظر الى انواع الحكايات وفقا لبنائها التركيبي الكلي ، تسعى الى عقد مقارنات واسعة بين انماط الحكايات في جميع انحاء العالم بهدف الوصول الى أصل الحكاية ، فهل استطاعت من خلال تصنيفاتها ان تصل بحق الى أصل كل حكاية ؟ ثم هل استطاعت ان تصل الى القوانين التي تحكم تطورها ؟ ان الدراسات المقارنة في الحكايات الشعبية لن تقوم لها قائمة ما لم نعرف الحركات الرئيسية التي تتحكم في بناء الحكاية وعلاقة هذه الحركات بعضها ببعض . وبدون هذا لا يمكننا ان ندرك العلاقة بين الفابولا الاغريقية والفابولا الهندية . واذا لم نستطع ان نقارن حكاية بأخرى ، فكيف يمكننا ان نقارن بين الحكايات الدينية والاساطير ، او بين الحكاية الخرافية وحكايات الحياة اليومية .

حقا ان كثيرا من المشكلات يمكن ان تحل عن طريق التحليل المورفولوجي او البنائي للاجناس الادبية الشعبية . وسوف نستعين بهذا المنهج ، كما سنشرحه وشيكا ، في دراسة موضوع بالغ الاهمية في تراثنا الشعبي العربي الحي .

فلقد ادركنا من خلال العمل الميداني ، ومن خلال مجموعات

القصص الشعبي العربي المعاصر التي جمعت في السنين الاخيـــرة ، ان القصص الشعبي العربي قد تغير عن النمط القديم الذي كان الشعب العربي يرويه ويحب الاستماع اليه · وهذا التغيير لم يعتر القصـــص المروية فحسب ، بل انه اعترى كذلك جماعة القص · ومن ثم فان هدفنا البعيد لا يتمثل في ادراك الفرق الجوهري بين الانماط القديمة والانماط الحديثة فحسب ، بل انه يتمثل اكثر من ذلك في دراسة ما اعترى بناء الحياة الشعبية كذلك من تغيير ، انعكس تلقائيا في التعبير الادبـي · ولكننا قبل ان نخوض في هذا البحث نقدم عرضا سريعا للمنهج البنائي الذي يسود اليوم في تحليل القصص الشعبي محاولين بذلك تطبيقه في دراسة قصصنا الشعبي الحي ·

٢ ـ المنهج البنـــائي :

نتيجة لهذه الفوضى التي شعر بها الدارسون في تصنيف أجناس الادب الشعبي بصفة عامة والحكايات الشعبية بصفة خاصة ، ونتيجـة احساسهم العميق بضرورة تطبيق المنهج الذي يطبق اليوم في الدراسات اللغوية والدراسات الانسانية بصفة عامة ، وهو المنهج البنائي ، بدأت الدراسات الشعبية تدخل في مجالات حديثة من الدراسة العلمية · ففي عام ١٩٤٥ أعلن « ارنست كاسيرر » ، الباحث اللغوي المرموق ، فـــي بحث نشره قبل وفاته بزمن قليل ، ان المذهب البنائي لا يعد في الحقيقة ظاهرة منعزلة . بل هو بالاحرى تعبير عن نزعة عامة في التفكير شغلت الباحثين في كل فروع البحث العلمي، في العلم والفن واللغة والدراسات الانسانية على السواء (١) ·

وقد بدأ الباحثون في الحقيقة ينشغلون بهذه الحركة البنائية منذ

---

1) Ernst A. Cassirer : Structuralism, (CF. Modern Linguistics; Word I, 1945), p. 120.

زمن مبكر نسبيا ٠ وقد بدأت هذه الحركة في روسيا بثورة على المنهج التاريخي اللغوي ٠ ونتيجة لهذه الثورة نشأت مدرسة الدراسات الشكلية التي يمثلها بحق « جاكوبسون » و « بروب » ٠ اما كتاب بروب عن « مورفولوجية الحكايات الشعبية » فقد ظهر عام ١٩٢٩ ٠ ومع ذلك فسنرجيء الحديث عنه تفصيلا لما بعد ، نظرا لان هذا العمل المهم لم يظهر تأثيره في الدراسات الشعبية الا متأخرا ، عندما ترجم الى الانجليزية في الستينات ٠

وعندما انتشر المذهب البنائي في اوروبا وامريكا في منتصف الثلاثينات من هذا القرن،طبق أول ما طبق في مجال الدراسات النقدية٠ وهنا نشأت مدرسة « النقد الحديث » التي نادت بضرورة التركيز على دراسة النص الادبي بدلا من الاديب نفسه ٠ اي ان هذه المدرسة نادت بأن يوضع النص موضع الاختبار والتحليل ، وذلك بدلا من المادة البيليوجرافية والتاريخية ٠ وفي هذا المجال صدر كتاب « كلينيث بروكس » و « روبرت وارين » تحت عنوان « فهم الشعر » عام ١٩٣٨ ، وكذلك كتاب « ماود بودكين » عام ١٩٣٤ (١) ٠ وفي هذا الوقت نفسه اتخذت الدراسات اللغوية والسيكلوجية مسارهما نحو المذهب البنائي٠ ففي الدراسات اللغوية ، حلت فكرة اللغة ذات الوظيفة والبناء محل فكرة اللغة التي تتألف من عناصر بسيطة ٠ اما في الدراسات النفسية فقد عبر « ماكس فيرت ايمر » عن نظرية « الجشتالت » بقوله : « ان هناك الشيء الكلي الذي يتحددسلوكه لا بعناصره المفردة ، بل حيث تتحدد العمليات الجزئية بطبيعة الكل الداخلية » (٢) ٠

ثم تصادف ان نهضت الدراسات الانثروبولوجية في هذا الوقت ،

---

1) Maud Bodkin : Archetypal Patterns in Poetry, (1934).
2) Max Wertheimer : Gestalt Theory, (New York 1938), p. 2.

ونادت بدراسة النماذج الحضارية · ففي العام الذي ظهر فيه كتاب « بودكين » : « النماذج الاصلية في الشعر » ، وهو عام ١٩٣٤ ، ظهر كتاب « روث بينيدكت » : « نماذج حضارية » ، وهو الكتاب الذي نادت فيه بأن الحضارة شيء ابعد من كونه حصيلة الآثار المتفرقة ، فقد نعرف شكل الزواج عند قبيلة من القبائل ، وقد نعرف طقوسها المرتبطة باحتفالاتها ، ومع ذلك فاننا لا نعرف شيئا عن حضارتها بوصفها كلا » (١) ·

على ان هذا التطور لم يحدث للدراسات الشعبية في زمن مبكر كما حدث للدراسات الاخرى · والسبب في هذا يرجع الى ان الدراسات الشعبية في الحقيقة نشأت في ظل الدراسات اللغوية وظلت مرتبطة بمنهجها القديم· فلم يكن المنهج التاريخي اللغوي الذي اسسه «الاخوان حرم » سوى صدى لنشاطهما في مجال الدراسات اللغوية · وبالمثل كانت الدراسات المقارنة للاساطير صدى للدراسات اللغوية المقارنة · وحتى المنهج الجغرافي التاريخي الذي ينظر الى الوحدات الصغيرة على أساس انها وحدات منفصلة من الممكن ان تدرس بمفردها دراسة مقارنة ، كان مرتبطا الى حد كبير بالمنهج الفيلولوجي القديم · فاذا افترضنا ، على سبيل التشبيه ، ان الموتيف يمكن ان يكون مرادفا للكلمة ، وان الجملة التي تتألف من مجموعة من الكلمات ، يمكن ان تكون مرادفا للنموذج ، ادركنا الى اي حد يتشابه المنهجان ·

ولكن بينما نجد ان الدراسات اللغوية قد تحركت من المنهج الفيلولوجي الى المنهج البنائي ، نجد ان الدراسات الفولكلورية قد ظلت مرتبطة عن عمد بمنهجها القديم · فعندما تحدث «سيث طومسون» عن الصعوبات التي تواجه الفولكلوريين في سبيل تطبيق المناهج

....

1) Ruth Benedict : Paterns of Culture, (New York, 1948), p. 43.

اللغوية ، لم يذكر طومسون قط امكانية استخدام المنهج البنائي الـذي كان اللغويون قد شرعوا في استخدامه بنجاح تام آنذاك (١) ٠

ولم يكن كتاب « فيلاديمير بروب » قد عرف في اوربا وامريكا حتى ذلك الوقت ، كما سبق ان ذكرنـا ، ولكن العـالم اللغوي الروسي « جاكوبسون » الذي كانت ابحاثه معروفة في اوروبا وامريكا ، اطلـع على بحث « بروب » باللغة الروسية بطبيعة الحال وتأثر به كل التأثر ٠ ومن ثم فقد حث الفولكلوريين في مقال له باللغة الالمانية نشر في مجلة سويدية عام ١٩٢٩ ، على ضرورة تغيير منهجهم في دراسـة الانماط الادبية الشعبية ٠ وفي هذا المقـال فرق « جاكوبسون » بين اللغة الجمـاعية Langue ، واللغـة الفـردية Parole ، ودعا الفولكلوريين الى ضرورة اصطناع هذا المنهج للوصول الى أسـس التكوين الجمـاعي والفردي في المجتمع الشعبي من خـلال تحليل النصوص ٠ فاذا استطعنا ان نحدد البناء التركيبي للنماذج الادبيـة الشعبية ، فان هذا يساعدنا على الوصول الى القوانين الكونية ألتي تعيش الجماعة الشعبية في اطارها (٢) ٠

وفي عام ١٩٤٥ خطـا أدولف ستاندر بيترسون ، البـاحث الفولكلوري الدانماركي ، خطا خطوة أخرى نحو المنهـج التركيبي ، عندما حاول ان يميز بين ما أسماه العناصر الدينامية dynamic والعناصر المتغيرة Labile في الحكايات الشعبية والاساطيـر ٠ والعناصر الدينامية ، من وجهـة نظره ، هي الملامح غير المتغيرة في

---

1) Sith Thompson : Four Symposia on Folklore, (Bloomington 1953), p. 270.

2) R. Jackobson : Die Folklore als besondere Form des Schaffens (Nijmegen - Utrecht 1929), pp. 900-913.

الحكاية او الاسطورة ، وهي ، الى حد كبير ، تعد مرادفة لوحـــدة التحليل عند « بروب » ، التي سماها بالوظيفة function ، ومن ثم فهي ترتبط بالشكل ، في حين ان العناصر المتغيرة ترتبط بالمحتوى · فاذا روت الحكاية احداثا تبدأ من (ا) الى (ي) ، فان الحكاية حينئذ تتكون من عناصر دينامية يرتبط بعضها ببعض من خلال وظائفها التي يؤكد بعضها بعضا كذلك · ومعنى هذا ان الحكاية تتكون من سلسلة مترابطة من الاحداث ، تربط بينها العلاقة المنطقيـــة السببية · وهذه العناصر الدينامية هي التي يعزى اليها ثبات انماط القصص الشعبي · اما اختلاف الروايات فيرجع الى العناصر المتغيرة · ومعنى هذا ان (ا) يمكن ان تكون (ا ١ او ا ٢ او ا ٣) وكذلك (ب) يمكن أن تكون (ب ١ او ب ٢ او ب ٣) وهكذا (١) ·

وعلى الرغم من اهمية بحث « بيترسون » · فانه لم يفد الباحثين كثيرا لانه نشر باللغة الدنمركية ·

اما الباحث الذيكان لابحاثه صدى كبير فيالمجال الانثروبولوجي والفلكلوري،فهو الباحث الانثروبولوجي المرموق«كلود ليفي شتراوس»· وعلى الرغم من ان جهود « ليفي شتراوس » قد تركزت في المقام الاول حول الدراسات الانثروبولوجية من زاوية المنهج البنائي ، فقد اهتـــم اهتماما كبيرا بالتحليل البنائي للاسطورة ، كما انه يعد الباحث الوحيد الذي درس فولكلور هنود امريكا بصفة عامة من الناحية البنائية ·

وفي عام ١٩٥٥ نشر « ليفي شتراوس » مقالا في مجلة الفولكلور الامريكي تحت عنوان : « البناء التركيبي للاسطورة » ، وهو المقـــال الذي اصبح فيما بعد فصـــــلا في كتابه عن « البنـــــاء التركيبي للانثروبولوجيا » · وعلى الرغم من ان « ليفي شتراوس » نادى بـــأن

....

1) Alan Dandes : Op. cit., P. 41.

الاسطورة ليست مجرد عناصر منفصلة تدخل في تركيب الاسطورة ، بل هي بالاحرى البناء الذي ترتبط فيه هذه العناصر بعضها ببعض ، وهو الامر الذي ألح على ان يكون موضوع اهتمام الدراسات الشعبية ـ على الرغم من ذلك ، ومن الجهود التي بذلها في سبيل اثبات نظريته ، فان منهج « ليفي شتراوس » لم يسلم من عيوب واخطاء من وجهة نظر الباحثين الفولكلوريين ·

واول هذه العيوب التي وجهت اليه ، هو انه خلط بين البناء التركيبي للاسطورة والبناء التركيبي للغة · حقا انه أدرك ان قصة الاسطورة لا تستعصي على النقل من لغة لاخرى ، وهذا يوحي بفهمه لحقيقة ان بناء الاسطورة مستقل عن بناء اللغة·ذلك ان قيمة الاسطورة تظل باقية على الرغم من نقلها من لغتها الاصلية الى لغات اخرى · « فقارىء الاسطورة في جميع انحاء العالم لا يخطىء في أثناء قراءته للاسطورة انه انما يقرأ اسطورة » (١) · وعلى الرغم من تلك الحقيقة التي اكدها « ليفي شتراوس » وهي أن الاسطورة ليست لغة ، فهو يعود ويقرر بعد ذلك ان « الاسطورة لغة ، فحيث ان الاسطورة تحكى فهي تعد جزءا من كلام الانسان » (٢) · حقا انه لم يلتزم بالوحدات اللغوية التي تتألف من الوحدات الصوتية والكلمات والجمل ، بل انه بدأ مباشرة بوحدة الجملة ، ونص على انه ليس من الضروري ان تحتوي الوحدة التي اختارها ، وهي الجملة ، على الوحدات اللغوية الاخرى ، ومع ذلك فان هذا لا ينفي انه قد خلط الى حد ما بين بناء اللغة وبناء الاسطورة ·

ثم عيب على « ليفي شتراوس » كذلك انه فرض النظام الاجتماعي

....

1) Claude Levi-Strauss ; The Structural Study of Myth, (CF. Myth ; A Symposium, Bloomington 1958), p. 52.

2) Ibid.

القبلي عاى بناء الاسطورة ٠ حقـــا ان الربط بين النص الفولكلوري والبيئة هو الهدف الاسمى الذي يسعى اليـــه الباحثون ، ولكن هذا لا ينبغي ان يتم بطريقة تعسفية مسبقة ٠ ولعل هذا هو الذي دعا بعـض الباحثين لان يتهمه بان فروضه ما تزال في حاجة الى الاختبار ، بخاصة فيما يرتبط بالانماط الروائية الاخرى (١) ٠

وهناك باحث فولكلوري آخر مرموق ، اهتم باستخدام المنهـــج التركيبي في تحليل المادة الفولكلورية ، هو « توماس أ٠ زيبيوك » ٠ ولكنه ركز اهتمامه حول تحليـــل الاسلوب اكثر من الشكل ٠ ولا يعد الاسلوب في الحقيقة عنصرا ثابتا في الروايات الشعبية ، بل انه يتغير مع الرواية٠ هذا فيما يختص بالقصص الشعبي والنكتة وتراث الشعوب الشفاهي الذي يرتبط بالمعتقدات ٠ اما فيما يختص بالمثل الشعبي واللغز والتعويذة ، فانها تعد الى حد كبير ذات أشكال ثابتة ٠

وهكذا نرى كيف ان الدارسين الفولكلوريين بدأوا يهتمون بالمنهج البنائي في دراستهم ٠ ولم يكن هذا نتيجة ادراكهم للفائدة العلمية التي عادت على العلوم الاخرى بسبب تطبيق هذا المنهج فحسب ، بل كان ، فضلا عن ذلك ، نتيجة لادراكهم ان المادة الفولكلورية حقا ذات بنـــاء تركيبي محدد ، وانها مقسمة من تلقاء نفسها الى نماذج ٠ وقد حدث هذا بحق قبـــل ان يظهر تأثير كتاب بروب « مورفولوجية الحكايات الشعبية » ٠ ومن ثم فاننا نعد تلك المرحلة مرحلة سابقـة على المرحلة التي نعيشها الآن ، وهي تلك التي يصطنع فيها الباحثون اما منهـــج « بروب » او منهج « ليفي شتراوس » ، كما سنوضح ذلك وشيكا ٠

---

1) Alan Dundes; Op. cit., p. 47.

« الفصل الثاني »

بروب والتحليل المورفولوجي للحكايات الخرافية

ظهر كتاب « بروب » باللغة الروسية عام ١٩٢٩ تحت عنـــوان : « مورفولوجية الحكايات الخرافية الروسية » وكان يعني بالحكايات الخرافية تلك الانماط التي ظهرت في تصنيف « آرن طومسون » من رقم ٣٠٠ الى ٧٤٩ · ولما ترجم الكتاب الى اللغة الانجليزية بعد ذلك بثلاثين عاما على وجه التقريب ، ورأى الباحثون ان تحليله ينطبق عــلى اكبر قدر من القصص الشعبي الذي يروى في جميع انحاء العالم ، فقد اصبح عنوان الكتاب : « مورفولوجية الحكايات الشعبيـــة (١) · وذلك ان اصطلاح Folktale في اللغة الانجليزية اكثر عمومية من اصطلاح الحكاية الخرافية ·

وقد عرف « بروب » التحليل المورفولوجي بانه « وصف للحكايات وفقا لاجزاء محتواها ، وعلاقة هذه الاجزاء بعضها ببعض ، ثم علاقتها بالمجموع » · ولكي يحقق « بروب » هذا الغرض ، اكتشف وحدة أساسية جديدة في الحكايات ، وهي ما سماهـــا « بالوحدة الوظيفيـــة » Functional unit · والوحدة الوظيفيـــة فعل من أفعـال شخوص

....

1) V. Propp : Morphology of the Folktale, (Indiana University, 3rd print 1971).

الحكاية ، بصرف النظر عن اختلاف شكل هذه الشخوص من حكاية لاخرى ٠ وهذه الوحدات الوظيفية لشخوص الحكايات تعد ، من وجهة نظر « بروب » ، المحتوى الاساسي للحكايات ٠ ومن واجب الباحث ، أولا وقبل كل شيء ، ان يستخلصها ، لانها تعد عناصر ثابتة في الحكايات الشعبية ، بصرف النظر عن اختلاف طبيعة الشخوص ، والوسيلة التي تنفذ بها ٠ ومعنى هذا انه مع تغير شخوص الحكايات ، ومع تغير الوسيلة التي تنفذ بها الافعال، تظل الوحدات الوظيفية ثابتة٠

وقد اهتدى « بروب » من خلال دراسته للحكايات الروسية دراسة استقصائية ، الى ان عدد الوحدات الوظيفية التي تتحكم في جميع الحكايات الروسية تبلغ احدى وثلاثين وظيفة ٠ ولا يعني هذا ان هذه الوظائف جميعا ترد في كل حكاية ، ولكن ما يرد منها في كل حكاية لا يخرج عن حدود هذه الوظائف ، كما ان ما يرد منها في حكاية من الحكايات يخضع لنظام ثابت ٠ ولما اطلع « بروب » على مجموعات الحكايات التي كانت قد ظهرت في عصره من جميع انحاء العالم ، انتهى الى ان جميع الحكايات الخرافية في انحاء العالم تخضع لنموذج تركيبي واحد ٠

وقد يخطر لنا هنا السؤال عن الفرق بين الوحدة الوظيفية عند « بروب » ، والعناصر الدينامية عند « ستاندر بيترسون » ٠ والواقع ان هناك فرقا بين تحليل الباحثين بصفة عامة ٠ فبينما نجد ان « بروب » يحدد عدد الوظائف التي ترد في الحكايات الخرافية بصفة عامة ، نجد ان « بيترسون » يترك العدد مفتوحا الى مالا نهاية ٠ ثم ان « بيترسوون» يقرر ان حذف اي عنصر دينامي من الحكاية يهدم الحكاية باسرها٠ وهو في هذا يخالف « بروب » الذي يصرح في اكثر من موضع بانه ليس من المحتم ان ترد وظائفه التي حددها باحدى وثلاثين وظيفة في كل حكاية على حدة ٠ ولقد اثبتت التجربة لدى الباحثين ، ان « بروب » اكثر دقة ووضوحا في تحليله من « بيترسون » ٠

وترتكز فكرة التحليل عند « بروب » على التمييز بين الشكل والمحتوى • فمجموعة الوظائف المجردة لا تتضح الا من خلال الافعال المجردة • ومثال ذلك الوظيفة رقم (٢٢) التي تقعتحت عنوان : « البطل ينقذ من المقتفين لاثره » فهذه الوظيفة في شكلها التجريدي على هذا النحو ، من الممكن ان تتم من خلال أفعال مختلفة على النحو التالي : الحيوان الطيب يحمل البطل ، البطل يرمي اشياء سحرية في طريق المقتفين له بحيث تعوقهم عن اللحاق به ، البطل يحول نفسه الى شكل آخر لا يتعرف عليه المقتفون له ، وهكذا • وبهذا يمكن ان يختلف المحتوى في حين تظل الحكاية منتمية الى نموذج بنائي واحد •

وليست وظائف « بروب » في درجة واحدة من الاهمية • وربما كانت اهم وظيفة من الوظائف التي عددها ، وهي تلك التي لا يمكن ان تستغني عنها اية حكاية ، هي الوظيفة رقم (٨) ، وهي التي تقع تحت عنوان : « الشخصية الشريرة تسبب الاذى لاحد أفراد الاسرة » • فهذه الوظيفة ، من وجهة نظر « بروب » ، هي التي تخلق الحركة الحقيقية في الحكاية • على ان هناك وحدة وظيفية أخرى ، وفقا لتحليله المورفولوجي ، تساوي هذه الوحدة من ناحية الاهمية ، وهي الوظيفة رقم (٨ ا) ،وهي : « احساس احد أفراد الاسرة بنقص في حياته ، او رغبته في الحصول على شيء » • فقد يرغب أحد أفراد الاسرة في الزواج بالاميرة على سبيل المثال ، وقد يرغب في الحصول على الاداة السحرية ، وقد يشعر بالفقر فيسعى في طلب المال ، وهكذا • فبناء على هذه الوظيفة كذلك تنشأ الحركة الاساسية في الحكاية • ومن ثم فان كل حكاية لا بد ان تحتوي اما على الوظيفة رقم (٨) او على الوظيفة رقم (٨ ا) وقد تجمع الحكاية بين الوظيفتين ، عندما تتسبب الشخصية الشريرة في احداث أذى لاحد أفراد الاسرة ، كأن تقتلع الشخصية الشريرة عيني البطل او ان يخطف المارد ابنة الملك ، وهكذا • وعلى الرغم من ان الوظيفتين تقفان على قدم المساواة من ناحية الاهمية بالنسبة للبناء التركيبي للحكاية ، فما يزال هناك فرق بينهما • وهذا

الفرق ينبغي الاشارة اليه بادىء ذي بدء لانـــــه يهم الباحث في ربط الحكاية ببيئتها · ويتمثل هذا الفرق في ان الحاجـــة او النقص ، في الوظيفة الاولى ، تفرض على البطـــل من الخارج ، في حين ان شعور البطل بحاجة او بنقص ، في الوظيفة الثانية، انما ينبع من الداخل، اي من داخل نفسه ·

وتعد الوظائف السبعة الاولى وظائف تمهيدية في الحكاية ، فهي التي تمهد الطريق لفعل الشخصية الشريرة او لحالة الشعور بالنقص · وقلما تجتمع هذه الوظائف السبع في بداية الحكايات ، ذلك لانهـــا تشتمل على وسيلتين تؤديان الى حدوث الشر (وظيفة رقم ٨) · اما الوسيلة الاولى فهي التي تشتمل على الوظيفتين (٣،٢) وهما التحريم، وانتهاك المحرم · فالبطل يحذر من فعل شيء ولكنه لا يتجنب المحظور ، ومن ثم تبدأ الحكاية · اما الوسيلة الثانية فهي التـــي تشتمل على الوظيفتين (٦ ، ٧) وهما الخداع والانخداع · فالشخصية الشريرة تحاول ان تخدع البطل ، والبطل بدوره ينخدع بهـــا · والحكاية قد تكتفي في بدايتها الاستهلالية باحدى المجموعتين دون الاخرى ·

ويرتكز تحليل « بروب » في الحقيقة على ربط كل وحدتين احداهما بالاخرى ، وهو تحليل مثير للتساؤل ، ومن ثم فهو يوصل الباحث الى مزيد من البحث في القصص الشعبي · والواقع ان « بروب » لا يربط بين الوحدات في تعسف ، بل هي بالاحرى تنشأ مترابطة في الحكاية · فهناك الوحدتان رقـــم (١٦ ، ١٧) (النضال والانتصار) · وهناك الوحدتان رقم (٢١ ، ٢٢) (اقتفاء الاثر ، والهروب) · ثـــم هناك الوحدتان (٨ او ١٨ و ١٩) (حدوث الشـــر او الشعور بالنقص ، وزوالهما) · وقد لا تصرح الحكاية باحدى الوحدتين المترابطتين ، ولكن هذا لا يعني انها ليست ماثلة ، بل هي ماثلة ضمنا · فقد لا تصرح الحكاية بموضوع التحريم ، ولكنهـا تحكـي ان البطـل ارتكب شيئـا محرما ، فقد تعود الابنة الى بيتها في وقـــت متأخر ، دون ان تصرح

الحكاية بأن امها حذرتها من ذلك ، فتظهر لهـــا الشخصية الشريرة وتسبب لها الاذى · فاذا برزت في الحكاية الوحدات الملازمة ، فــان الحكاية تتحرك متتابعة على النحو التالي : ٢ و ٣ ، ٤ و ٥ ، ٦ و ٧ ، ثم ١٦ و ١٧ ثم ٢١ و ٢٢ · وربما تشذ عن هذا التتابع الوحدتان رقم ٨ او ٨أ و ١٩ · اي حدوث الشر او الشعور بالنقـــص وزوالهما · والسبب في عدم كون هاتين الوحدتين متجاورتين هـــو ان احداث الحكاية تفصل بينهما بالضرورة ·

ولعلنا نرى بعد هذا العرض الاولي لمنهـــج « بروب » ، الذي سنفصله بعد ذلك ، كيف ان « بروب » قد خطا خطوة واسعة في سبيل الوصول الى هيكل بنائي للحكاية الخرافية يمكن الافادة منه في دراسة الانماط الاخرى من القصص الشعبي · والواقع انه منذ ظهور ترجمة كتاب « بروب » ، وكذلك ظهور اعمال « ليفي شتراوس » تزايد الاهتمام بدراسة الانواع الادبية الشعبية وفقا لمنهج التحليل البنائي · ويمكننا ان نقول انه اصبح يسيطر على هذه الدراسة اتجاهان : الاتجاه الاول ويمثله « بروب » ،ويهدف الى وصف النظام الشكلي للقصص الشعبي وفقا للتتابع الزمني للاحداث · وقـــد سمي هذا الاتجاه : تحليل البناء التـــركيبي Syntagmatic structural analysis · وقـــد استعان الفولكلوريون في تعريف هذا الاتجـــاه بالاصطلاح اللغوي syntax اي التـــركيب · امـــا الاتجاه الثـــاني فيمثله « ليفـي شتراوس » ويسمى « تحليل البناء البرادجماتي » · وقد استعار هذا التعريـــف كذلـــك الاصطلاح اللغـــوي Paradigm ، الـــذي يعني مجموعة الالفاظ التي يجمعها اشتقاق واحد ، كما يعنـــي مجموعة الالفاظ المتجانسة في المعنى وان بدت متعارضة ، مثل الفرح والحزن، القسوة والشفقة ، الى غير ذلك · وهذا هو الاتجاه الـــذي يقوم عليه منهج « ليفي شتراوس » ، وهو استخلاص الوحـــدات المتعارضة من النص بقصد الكشف عن البناء الاجتماعي الذي تعيش الاسطورة في كنفه (١) ·

....

١ ــ بروب : صفحة ١٢ من المقدمة ·

وقد انتقد « ليفي شتروس » منهج « بروب » من حيث انه لا يهدف الا الى تحليل المحتوى الظاهري الواضح ، في حين ان المنهج البارادجماتي يهدف الى تعمق البنية السطحية بهدف استخلاص الوحدات التي تلقي الضوء على البناء الاجتماعي · ومن ثم فقد ميز « ليفي شتراوس » بين التحليل المورفولوجي والتحليل البنائي · على انه يرد على هذا بأن التحليل المورفولوجي لا يعد نهاية في حد ذاته ، بل هو بداية لدراسات ادبية واجتماعية وانثروبولوجية كثيرة · فمن خلال هذا التحليل نستطيع ان نتبين الوحدات التي تسيطر على حكايات شعب من الشعوب ، وعلاقة ذلك بثقافة هذا الشعب · كما ان هذا التحليل يمكننا من الربط الوثيق بين الوحدات الاساسية للحكاية والنظام الاجتماعي الذي تعيش الحكاية في كنفه · فخروج البطل وحيدا ، مدفوعا بالرغبة في المغامرة ، ثم عودته الى اسرته بعد ان يكون قد نجح في اداء مهمته ثم التحريم Taboo الذي يفرض عليه، والضرر الذي يعود عليه من جراء ارتكاب الشيء المحرم ، كل هذا من شأنه ان يكشف عن نظام اجتماعي محدد · واخيرا فان هذا المنهج في التحليل ، يساعدنا في ادراك التطور والتغيير الذي يحدث للانماط القصصية الشعبية نتيجة للتطور الحضاري الذي يعيشه شعب من الشعوب · وهذا العنصر الاخير هو ما سنحاول ان نحققه في هذا البحث ، متخذين تحليل « بروب » اساسا لدراسة قصصنا الشعبي المعاصر ، بعد ان نحاول مقارنته من حيث بناؤه التركيبي بالانماط القديمة ، بقصد الكشف عن شكل بناء الحياة الشعبية التي يعيشها الشعب العربي اليوم ، وعن المشكلات النفسية والاجتماعية التي تشغله في زحمة التطور الحضاري ·

التحليل الكامل لبناء الحكاية الخرافية عند « بروب » :

تبتدىء الحكاية غالبا ببداية استهلالية تمهد لظهور الوظائف التمهيدية · فاما ان تتحدث الحكاية عن اسرة وعن عدد افرادها ، واما

ان تبدأ بالحديث عـن البطل وتذكر اوصافه · وبعد ذلك تبدأ الوظائف التمهيدية الآتية :

١ ـ تغيب احد افراد الاسرة عن البيت : وقد يكون هذا الشخص من الشخوص القديمة المألوفة ، كأن يكون اميرا خرج للصيد ، او ملكا خرج يتفقد احوال الرعية ، او تاجرا خرج للتجارة : وقد يكون المتغيب شابا عاديا · وفي بعض الاحيان تعبر الحكاية عن غياب احـد افراد الاسرة بموت الاب او الام · وقد يكون هذا الغياب متمثلا في عدم قدرة الام على الانجاب ، ومن ثم فهي تدعو ربها ان تنجب ابنا او بنتا وتحدد اوصافهما ·

٢ ـ هناك تحذير يوجه الى البطل يدعوه لكي يتجنب فعل شيء محدد ، فاما ان تنهي الام ابنها عن الخروج منفردا في الليل ، او تنهاه عن فتح حجرة معينة · وقد يكون التحذير مرتبطا ببـداية خـروج احد افراد الاسرة ، اي تغيبه ، وقـد لا يكون مرتبطا به على الاطلاق ، كأن تبتدىء الحكاية مباشرة بتحذير الام ابنها مـن ان يفعل شيئا · وقـد يكون التحذير في صورة معكوسة ، اي يكون امرا مباشرا ، كأن تأمر الام ابنها « عقلة الاصبع » ان يحمل الطعام لابيه في الحقل ، وفي هذه الحالة يحل عدم الاستجابة للامر محل ارتكاب الشيء المحظور فعله ·

٣ ـ ارتكاب المحظور · وهذه الوحدة الوظيفية ترتبط بالوحدة رقم (٢) على الدوام ، اللهم الا اذا كانت الوحـدة رقم (٢) غير مذكورة صراحة · وفي هذه الحالة تظهر شخصية جديـدة في سياق الحكاية هي الشخصية الشريرة · ووظيفة هذه الشخصية هي افساد سلام الاسرة · وتظهر هذه الشخصية في صور مختلفة ، فهي اما ان تكون المارد او العفريت او الساحرة العجوز او زوجة الاب القاسية ·

٤ ـ الشخصية الشريرة تقوم بمحاولة استطلاعية ، كأن يسأل « الخواجه » الصبي من اين حصل على الديك (حكاية رقم ٧) ، او

ان يسأل العفريت او المارد الابنة الى اين هي ذاهبة · وقـــد تكون المحاولة الاستطلاعية معكوسة ، اي موجهة مـن البطل الى الشخصية الشريرة ، فيسأل البطل الغولة عن مكان ابنتها مثلا ، او يسأل العفريت عن المكان الذي تكمن فيه روحه ·

٥ ـ الشخصية الشريرة تتلقى معلومات عن ضيحتها · فزوجة الاب تسأل المرآة عن ابنة زوجها ، ثم تجيبها المرآة بمكان ابنة الزوج · ومعنى هذا ان الوظيفتين ٤ ، ٥ تكونان كذلك عنصرين متزاوجين يردان فى شكل سؤال وجواب ·

٦ ـ الشخصية الشريرة تحـاول ان تخدع ضحيتها ، امـــا لكي تختطفها او تستولي على ممتلكاتها · ففـي الحكاية رقـم (٤) يخدع اليهودي الصبي بما معه من ذهب ، وفي الحكايـــة رقم (٧) اغرى « الخواجه » الصبي بالمال لكي يبيعه الديك · وفي هذه الحالة تبـدو الشخصية الشريرة في صورة متنكرة ، فالساحر يبدو في هيئة شيخ وقور ، وقد تبدو الساحرة في هيئة امرأة جميلة ، وقـــد يحول المارد نفسه الى حيوان ضعيف ، او قد تتنكر الشخصية الشريرة فـــي هيئة شحاذ يطلب شيئا يقتات به ·

٧ ـ البطل الضحية يستسلم لخداع الشخصية الشريرة ، وبهذا يساعدها ، بدون قصد منه ، على تحقيق اغراضها · فالوحدتان (٦)، (٧) على هذا النحو مرتبطتان · ونلاحظ اننـا في حين نجـــد البطل يخالف المحظور في الوحدتين (٢) ، (٣) ، نجده دائما يوافق على اقتراح الشخصية الشريرة في الوظيفتين (٦) ، (٧) ·

٨ ـ الشخصية الشريرة تسبب الاذى لاحد افراد الاسرة : وهذه الوظيفة من الاهمية بمكان ، كما سبق ان ذكرنا ، حيث ينشأ عنها الحركة الحقيقية في الحكاية · ولـم تكن الوظائف السابق ذكرها سوى تمهيد لهذه الوظيفة · وتتنوع افعال الشخوص الشريرة الى درجة كبيرة ·

ولكنها تبدو في النماذج التي اتينا بها على النحو التالي : «الخواجه» يسلب الشاب خاتمه السحري ، ويستطيع بواسطته ان يهدم قصره وينفي زوجته (حكاية رقم ٧) . الناس الاشرار يسلبون الرجل الفقير ادواته السحرية (حكاية رقم ٣) . الام تسلب زوجة ابنها نور عينيها وتلقي بها في الطريق (حكاية رقم ٢) . الاخوة ، او ابناء العم ، يتركون ابن عمهم في الجب ويرغبون في سلب زوجته منه (حكاية رقم ٦) . اليهودي يترك الصبي وحيدا فوق الجبل بعد ان قذف الصبي اليه بقدر كبير من الذهب (حكاية رقم ٤) .

٨ أ) احد افراد الاسرة يشعر بأن هناك شيئا ما ينقصه في حياته ، او انه يرغب في الحصول على شيء . وهذه الوظيفة كما سبق ان ذكرنا تحل محل الوظيفة رقم (٨) ، ومن ثم فانها قد تستغني عن الوظائف السابق ذكرها ، المرتبطة بفعل الشخصية الشريرة ، فقد تبدأ الحكاية برغبة الام العاقر في الانجاب ثم حصولها على تفاح الحمل (حكاية رقم ٢) . وقد تبدأ الحكاية بشعور ملح بالحاجة الى المال (حكاية رقم ٣) . وقد يرغب البطل باصرار في الحصول على الشيء السحري ، كالليمونات الثلاث مثلا (حكاية رقم ١) ، وهكذا . فاذا بدأت الحكاية بالتعبير عن الاحساس بالنقص في حياة الاسرة او البطل ، فان الشخصية الشريرة يتأخر ظهورها الى ما بعد (حكاية رقم ٢) .

(٩ ، ١٠) البطل يعتزم الحصول على ضالته او يسعى للمساومة مع الشخصية الشريرة .

(١١) البطل يترك اسرته ويخرج للمغامرة . وقد سبق ان ذكرنا ان هناك تغيبا قد يحدث في بداية الحكاية ، ولكن هناك فرقا بين التغيب الاول والتغيب الثاني . فالتغيب الاول يكون من اجل هدف واضح ، كأن يتغيب الاب للتجارة او ان يخرج الابن للصيد . اما التغيب الثاني فيكون من اجل مغامرة غير واضحة المعالم .

وهنا نجد ان الوحدات ٨ او ٨ أ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ تصل بالحكاية الى مرحلة التأزم · وبعد ذلك تتطور الاحداث في سبيل الوصول الى حل هذا التأزم · وترتبط الوحدة الاخيرة (١١) بظهور شخصية جديدة في الحكاية هي الشخصية المانحة · وتظهر هذه الشخصية في الحكاية دون سابق تمهيد ، فقد تظهر فجأة في الطريق او في الغابة ، او عند مفترق الطرق ، عندما تأخذ البطل الحيرة فى اتخاذ الطريق الذي يوصله الى هدفه · ومن هذه الشخصية المانحة يتسلم البطل الاداة السحرية التي يتحقق عن طريقها زوال الشر او النقص ·

(١٢) الشخصية المانحة تختبر البطل ، فقد تطلب أمنا الغولة من الابنة ان تأكل القمل من رأسها ، او تطلب البقرة من الابنة الخيرة ان تجمع عظامها بعد ان تذبح ، وان تدفن هذا العظم في التربة ، والا تنسى أن ترويه · وقد تبدأ الشخصية المانحة بتحية البطل ، او قد يحييها هو نفسه · وتجيب الشخصية المانحة عليه اجابة تدل على رضائها عنه ، وهنا نشير الي الصيغة المتوارثة في حكاياتنا ، التي تقولها الغولة للبطل عندما يبدأها بالتحية ويقول لها : « سلام عليكم يا امنا الغولة » ، فترد عليه قائلة : « لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك » ·

(١٣) رد فعل البطل لرضى الشخصية المانحة عنه · فالابنة الطيبة وهي البطلة ، تستجيب لامنا الغولة وتأكل قملها ولا تتقزز منه · والبطل يستجيب لملك العالم السفلي ويقتل المارد الذي يهدد مملكته ، فيكافئه الملك على ذلك ·

(١٤) البطل يحصل على الاداة السحرية التي قد تكون حصانا او بساطا سحريا او خاتما سحريا · وقد يحصل البطل على النقود فيشتري بها كلبا وقطة وفأرا (حكاية رقم ٧) تقوم فيما بعد بدور الشخصية المانحة ·

(١٥) البطل ينتقل الى العالم المجهول حيث تكون حاجته ·

(١٦) مقابلة البطل للشخصية الشريرة ونشوب الصراع بينهما ٠

(١٧) البطل يصاب بجرح نتيجة هذا الصراع ٠

(١٨) البطـل يهـزم الشخصية الشريرة ، فتهـرب منـه او تقتل على يديه ٠

(١٩) زوال خطر الشخصية الشريرة وحصول البطل على حاجته٠

(٢٠) البطل يتخذ طريقه قافلا الى بلده وبيته ٠

(٢١) الشخصية الشريرة الاولى ، او شخصية شريرة اخـــرى ، تقتفي أثر البطل ٠

(٢٢) هروب البطل من المقتفين لاثره ٠

وقد تنتهي بعض الحكايات عند هذا الحد بأن ينجح البطـــل في الهروب من المقتفين لاثره ، ويقفل راجعا حاملا معه غنيمته ٠ وفي بعض الحكايات ، تسبب هذه الشخصية في ايذاء البطل ، وعند ذاك تبدأ في الحكاية حركة جديدة ٠

(٢٣) البطل يصل الى بيته او الى بلد آخر دون ان يتعرف عليـــه احد ، وهو غالبا ما يشتغل في هذا البلد الغريب بحرفة يدوية ، كـأن يعمل عند صانع احذية (حكاية رقم ٦) ٠

(٢٤) البطل المزيف يدعي الحق لنفسه ، وغالبـــا ما يكون هذا البطل المزيف أخا للبطل الحقيقي ٠ وهو يدعي أحقيته في الزواج بالفتاة التي غنمهـا الاخ البطـل ، بعدمـا يؤدي المهمة التي تكلفـه بها الفتاة (حكاية رقم ٦) ٠ وقد يكون البطل المزيف هو ام الزوج التي تدعي انها زوجته (حكاية رقم ٢) ٠

(٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) البطل يكلف بمهمة عسيرة التحقيق ولكنه ينجح في ادائها ، وعند ذاك يكون التسليم ببطولته ٠

(٢٨) البطل المزيف ينكشف امره ٠

(٢٩) البطل الحقيقي يبدو في وضع جديد ، كأن يسكن قصرا جديدا شامخا (حكاية رقم ٤) أو يغير شكله على نحو ما ٠

(٣٠) الشخصية الشريرة تعاقب ٠

(٣١) البطل يتزوج ، او يتزوج ويعتلي العرش معا ٠

هذه هي الوظائف (١) التي تتحرك في نطاقها الحكايات الخرافية بصفة عامة وليس من المحتم ان ترد هذه الوظائف او بعضها متسلسلة على هذا النحو ٠ فقد تظهر القوة المانحة للبطل قبل ظهور القوة الشريرة ٠ ولكن عندما تظهر القوة المانحة فانها تستوفي عناصرها ، اي انها تختبر البطل ، والبطل يستجيب لاختبارها ثم تمنحه بعد ذلك القوة السحرية ٠ وهي الوظائف رقم (١٢ ، ١٣ ، ١٤) ٠ وعلى كل فان الوحدات الوظيفية تظهر في الحكاية ، اما ان تكون متلازمة : التحذير من شيء محظور او ارتكاب المحظور (٢ ، ٣) ، المحاولة الاستطلاعية واستقبال المعلومات (٤ ، ٥) الخداع والانخداع (٦ ، ٧) ، مقاومة الشخصية الشريرة والانتصار عليها (١٧ ، ١٨) اقتفاء الاثر والهروب (٢١ ، ٢٢) ، او ترد في شكل وحدات تنظيم في مجموعات مثل مجموعة (٨ او ٨أ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) ومجموعة (١٢ ، ١٣ ، ١٤) ٠ وفيما عدا هذا تاتي الوحدات مفردة مثل غياب البطل ، (١ ، ١٥) ، وصوله الى بيته او الى بلد غريب (٢٣) معاقبة الشخصية الشريرة

....

(١) انظر « بروب » من صفحة ٢٥ الى صفحة ٦٥ ٠

(٣٠) ، وزواج البطل (٣١) الى أخره ٠

وقد يختلط الامر على القارىء في تشابه بعض الوظائف ٠ ومثال ذلك التشابه بين الوظيفة (١٥) التي فيها يخرج البطل مدفوعا برغبته للبحث عن حاجته (حكاية الليمونات الثلاث) ، ثم الوظيفة رقم (٢٥) التي يكلف فيها البطل بمهمة لا بد ان يحققها اذا شاء ان يتزوج بالاميرة او الفتاة التي يرغب فيها بصفة عامة ، كأن يتحتم عليه ان يبني قصرا (حكاية الصبي والديك) او ان يقتل المارد الذي يتهدد المدينة (حكاية ابناء العم) ٠ ولا يمثل المارد هنا القوة الشريرة التي تتربص بالبطل لتعوقه عن تحقيق مأربه (مثال ذلك المرأة العجوز في حكاية الليمونات الثلاث) او المارد الذي كان يتهدد الفتاة (في حكاية ابناء العم الاشرار)، ولكن قتل المارد هنا يساوي في مفهومه اي مهمة اخرى يكلف بها البطل ٠

عناصر أخرى في تكوين الحكاية :

١) عناصر الوصل :

هذه الوحدات السابق ذكرها تكون العناصر الاساسية للحكاية ، وهي تلك العناصر التي يسير وفقا لها تتابع الحركات او الاحداث ٠ والى جانب هذه الوحدات الاساسية توجد عناصر فرعية ٠ وعلى الرغم من ان هذه العناصر الفرعية لا تحسم تطور الاحداث ، الا ان اهميتها كبيرة في السرد ٠ ومن ذلك عنصر **الاخبار** ٠

فبعد ان تنكرت الام لزوجة ابنها في اثناء غياب ابنها (حكاية الرجل الذي ولد بنتا) او اذاقتها صنوف العذاب ، ثم رمت بها في الطريق ، عادت وتناولت عقارا سحريا أعاد اليها شبابها ٠ ثم ادعت لابنها أنها زوجته وان أمه ماتت في أثناء غيابه ٠ وعاشر الابن أمه معاشرة الازواج ، فحملت منه وتوحمت على فاكهة لم تكن موجودة الا

في القصر المواجه لهما ، وكان هذا هو قصر الزوجة الحقيقية التي منحتها اياه القوة السحرية ٠ فارسل الزوج الخادم ليطلب الفاكهة النادرة من صاحبة هذا القصر ٠ وهنا يحدث عنصر الاخبار ، اي أن الزوجة الحقيقية تسعى بطريق غير مباشر الى اخبار الزوج بما حدث لها في أثناء غيابه ٠ فلقد قالت للخادم دون أن تعطيه الفاكهة ، ساردة في قولها تاريخ حياتها : « أبويا حبل في ، والصقر والطاووس عششوا علي ، وابن السلطان حبني واشتهاني واتجوز أمه علي ٠ يا مقص قص طرف لسانه لاحسن يروح يفتن علي » ٠ وعلى الرغم من ان الزوجة كانت تسعى الى كشف الحقيقة لزوجها ، فانها أمرت المقص ان يقص لسان الخادم ، فلا يتمكن من اعادة كلامها على زوجها ، حتى يحضر زوجها بنفسه ليعرف الحقيقة ٠ وبهذا استعانت الحكاية بعنصر الاخبار لوصل الاحداث بعضها ببعض ، اذ تلا ذلك معاقبة القوة الشريرة المتمثلة في الام وزواج ابن السلطان من زوجته الحقيقية مرة أخرى ٠

وعندما ارجع الغول الابناء الذين كان قد اختطفهم من الام في حكاية « كشكول ذهب » وكان الاب قد اعتقد ان أمهم قد التهمتهم لان الغول كان يمسح فمها بالدم بعد ان يختطف الابن منها ، وجد الابناء ان أباهم يحيي حفل زواجه على ابنة عمه ، بعد ان قرر مفارقة أمهم ٠ فدخلوا الفرح ولكن الخدم طردوهم ٠ وعند ذلك قال الابناء عبارة تخبر بالحقيقة وهي « هو الفرح فرح أبونا والغرب يطردونا ؟ » ٠ فلما سمع الاب هذه العبارة ناداهم واكتشف الحقيقة ، فأبطل الفرح وعاد للزواج من أمهم ٠

وقد يكون الاخبار عن طريق عبارة ، بل قد يكون عن طريق فعل تقوم به الشخصية الضحية ٠ ففي حكاية « الليمونات الثلاث » سحرت العجوز العروس الى حمامة بأن وخزتها بدبوس ثم ادعت للشاب البطل بعد ذلك أنها زوجته ، فأخذها ورحل الى أهله ٠ وبعد ذلك طارت الحمامة حتى وصلت الى قصر زوجها ٠ ولم تفعل شيئا سوى أنها كانت

تسكب الطعام الذي يحمله الخادم الى زوجها · فلما تكرر هذا الفعل اشتكى الخادم للزوج · فتربص الزوج للحمامة حتى طارت نحو الخادم لتسكب الطعام كالعادة ، فأمسك بها الزوج وانتزع الدبوس من رأسها ، وبذلك فك عنها السحر واستعادت طبيعتها الانسانية ·

وبعد بناء القصر في حد ذاته (حكاية الرجل الذي ولد بنتا) عنصر وصل في الحكاية ، اذ ان حديقة هذا القصر بعينه كانت تحتوي على الفاكهة التي طلبتها الام وهي تتوحم · وبهذا يمكننا ان نقول بتعبير آخر ، ان اقتراب قصر الزوجة من قصر الزوج ليس سوى تعبير رمزي عن اقتراب الحقيقة الخفية من الزوج حتى أوشك ان يقابلها وجها لوجه ·

ومن وسائل الوصل في الحكاية الخرافية كذلك **تكرار الفعل ثلاث مرات** ، أو وجود العدد ثلاثة بصفة عامة او بأخرى · فقد كان يتحتم على الشاب ان يحضر الليمونات الثلاث ، وكان أبناء العم ثلاثة · فاذا حكت الحكاية عن ابن واحد او بنت واحدة تعيش مع أمها وأبيها ، فان الابنة او الابن في هذه الحالة يمثل ثالث الاسرة · أما في حكاية « كشكول ذهب » ، فان « الفقي » لم يختطف سوى ابنين للام · ولكننا اذا علمنا ان الفقي قبل ذلك قد قتل أخاها فان فعل « الفقي » على هذا النحو يكون قد تكرر ثلاث مرات ·

وعلى كل فان تكرار الفعل ثلاث مرات يكسب الحكايات الخرافية سرها · فاذا تساءلنا عن سبب هذا فاننا نقول · ان العدد واحد يدل على الشيء الذي لم يتطور بعد ، والعدد اثنين الذي يساوي العدد واحد مزدوجا ، يرمز الى التضاد : النور والظلمة ، والسماء والارض ، والليل والنهار ، ولكنه لا يدل على النهاية والاكتمال · وهو في ذلك يشبه الخط الذي يصل بين نقطتين · فمن الممكن لهذا الخط ان يمتد الى مالا نهاية ، ويظل مع ذلك محصورا بين نقطتين ·

أما العدد ثلاثة فهو يعطي للشكل سحره واكتماله . فالمثلث مثلا شكل هندسي مكتمل عندما يصل بين ثلاث نقط . كما اننا لا نجد السماء والارض فحسب ، بل نجد السماء والارض وعالم ما تحت الارض ، كما نجد البداية والوسط والنهاية ، والماضي والحاضر والمستقبل ، والجسد والعقل والروح والادراك والشعور والارادة . والحكاية الخرافية قياسا على ذلك لا تشعر بكمال التجربة اذا ما جربت مرتين ، بل لا بد من ان تجرب ثلاث مرات ، والمرة الثالثة هي الحاسمة . ألا نقول في تعبيرنا اليومي « التالتة تابته » ؟ (١) .

٢) الدوافع :

ونعني بالدوافع الاسباب التي تدفع شخوص الحكاية للقيام بأفعال محددة . وهذه الدوافع ، فضلا عن انها تكسب الحكايات نوعا من التلون الحي ، فانها كثيرا ما تقرب الحكايات الى واقع الحياة اليومية . فبدافع الجشع ، طمع الاشرار الثلاثة في الادوات السحرية التي كان يمتلكها الحطاب ، ومن ثم فقد سلبوها منه (حكاية البنت التي تزوجت كلبا) ، وبدافع الغيرة طمع ابناء العم في الفتاة التي احبها ابن عمهما ، ولهذا فقد تركاه وحده في الجب ، وأخذا الفتاة ووليا . (حكاية ابناء العم) . وبدافع الرغبة في الحصول على الثروة، استجاب الشاطر محمد للخواجة وباعه الديك ، كما استجاب الصائغ للساحر فرحل معه الى حيث يحضران النبات السحري الذي يتحول الى ذهب حكاية (الصائغ والساحر) .

وقد يكون الدافع الاحساس بنقص في شيء ما . وهنا نجد ان

---

(١) يذكرنا هذا بحديث لرسول الله عليه السلام . فقد سأله رجل : « من احق الناس بصحبتي يا رسول الله ؟ قال : امك. قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال ثم من ؟ قال امك . قال ثم من ؟ قال : ابوك ». فالتكرار المتعمد من قبل رسول الله عليه السلام ، ثلاث مرات على هذا النحو ، انما يشير الى رغبته في الوصول بتأكيد قيمة الام الى اقصاه ،

أفراد الاسرة يعيشون في استقرار حتى يكتشفوا او يكتشف أحدهم نقصا في شيء ما وهنا تبدأ وظيفة الخروج ومعها تبدأ حركة الحكاية ٠ وهذا ما حدث في حكاية ابناء العم ٠ فقد ظل ابناء العم الثلاث يعيشون في رغد من العيش حتى اكتشفوا ان مالهم يتناقص فخرجوا يبحثون عن السارق ٠ وكان خروجهم بداية لحركة الحكاية الرئيسية التي أبعدتهم كل البعد عن موضوع البحث عن السارق ٠ وقد ينشد الدافع نتيجة احساس ملح في الحصول على شيء ما وان يكن خياليا ٠ فعندما دعت العجوز على الابن في حكاية «الليمونات الثلاث» بعشق الليمونات الثلاث ، شعر الشاب على التو برغبة ملحة تدفعه للبحث عن هذه الليمونات ٠ ومن هنا بدأت حركة الحكاية ٠

الشخوص الرئيسية في الحكاية الخرافية :

ان الحكاية الخرافية لا تتحدد بوظائفها والعناصر المساعدة فحسب، بل انها تتحدد ، فضلا عن ذلك ، بشخوصها ٠ وعندما يفرغ القارىء من قراءة النماذج التي سنأتي بها فيما بعد لنطبق عليها التحليل المورفولوجي عند « بروب » ، فانه سيلاحظ ان كل حكاية تحتوي على الشخوص الرئيسية الآتية :

١ ـ **الشخصية الشريرة :** وتتمثل وظيفتها في ايذاء البطل او احد افراد الاسرة، كما تتمثل احيانا في مناوأة البطل ٠ (٥ ، ٦ ، ٨، ١٦)٠

٢ ـ **الشخصية المساعدة :** وهي تساعد البطل في القضاء على الشر ، وفي تحقيق المهمات الكبيرة ، وفي تغيير حالة البطل كأن تسكنه قصرا كما تساعده في الهروب ٠ (١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٩) ٠

٣ ـ **الشخصية المانحة :** ووظيفتها اختبار البطل ومنحه الاداة السحرية (١٢ ، ١٣) ٠

٤ ـ **شخصية الاميرة او الزوجة بصفة عامة** : وافعالهـــا تتوزع بينها وبين ابيها ، اذ قد يأمر الاب البطل ان يهدم الجبل ويشيـد قصرا لابنته قبل ان يتزوجها ، (حكاية الشاطر محمد والديك) او يطلب منه ان يقتل المارد (حكاية ابناء العم) (٥ ،١، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١) ٠

٥ ـ **الشخصية التي تبعد البطل في بداية الحكايـــة** : فامـــا ان تنفيه ، كما فعلت الام عندما امرت الاب بترك ابنته في الخلاء ٠(حكاية الرجل الذي ولد بنتا) ، واما ان ترسله في مهمـــة ، كما ارسلت الام ابنتها مع أبيها تحتطب ، فكان نتيجة هذا الخروج ان تزوجت الكلـــب (حكاية البنت التي تزوجت كلبا) ٠ (وظيفة رقم ٩) ٠

٦ ـ **شخصية البطل** : ومهمته المغامرة والاستجابة للقوة المانحة والقضاء على القوة الشريرة ، والزواج ، او احضار الشيء المرغـوب فيه بصفة عامة ٠ (١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٣١) ٠

٧ ـ **شخصية البطل المزيف** : وهو الذي يدعي أنه البطل الحقيقي للحصول على مغنمة ، كما أدعت الام لابنها انها زوجته (حكاية الرجل الذي ولد بنتا) وكما ادعت العجوز للشاب انها محبوبته (حكايـــــة الليمونات الثلاث) (وظيفة رقم ٢٤) ٠

وعلى الرغم من ان هذه الشخوص تبـدو مميزة على هذا النحو، فانها كثيرا ما تتداخل ، او بتعبير آخر ، كثيرا ما تقوم الشخصيـــة المفردة بوظيفة شخصيتين معا ٠ فالسمكة في حكاية «الصياد والسمكة» تقوم بدور القوة المانحة والمساعدة معا ، فقد منحت السمكة الابن بعد ان انقلبت في شكل رجل ، العلم والمال والزوجة ٠ وفضلا على ذلك فقد ساعدته على القضاء على القوة الشريرة وهي الساحر ٠

والفقي في حكاية « كشكول ذهب » يقوم بدور الشخصية الشريرة والمساعدة معا ٠ وقد يبدو هذا نوعا من المفارقة ، ولكننا هنا ننظر الـــى افعال الشخصية من وجهة نظر البطل ٠ فمما لا شك فيه ان الفقي عذب

الام وعرضها لكثير من المتاعب ، ولكنه عاد في النهاية فارجع اليها اولادها بعد ان كبروا واتموا تعليمهم ، فساعدها بذلك على ان تعود لزوجها · ومعنى هذا انه كان ، من وجهة نظرها الشخصية القاسية والمساعدة في الوقت نفسه ·

وبالمثل نجد ان الام في حكاية « الرجل الذي ولد بنتا » تقوم بدور الشخصية الشريرة وشخصية البطل المزيف معا ·

وقد يبدو في بعض الحكايات غياب بعض هذه الشخصيات الرئيسية عنها ولكننا ، بقدر من التمعن ، ندرك انها موجودة · ففي حكاية الصياد والسمكة ، لا يبدو لاول وهلة ان الشخصية الشريرة تلعب فيها دورا بارزا ولكن الشخصية الشريرة تظهر فيها حقا وهي تتمثل في شخصية الاب · فقد خاف الابن من ايذاء الاب اياه نتيجة مساعدته السمكة على التسرب الى الماء ومن ثم فقد ولى هاربا من الاب، واثر ذلك ظهرت له القوة المانحة والمساعدة وقد عبرت الحكاية عن هذا الخوف الذي ملأ قلب الصبي من ابيه ، بأن جعلته دائم التلفت وراءه في أثناء جريه خوفا من تعقب ابيه اياه ·

هذا التحليل البنائي يختص بنوع مميز من القصص الشعبي، هو ما اصطلح الباحثون على تسميته بالحكايات الخرافية · ويمكننا بناء على هذا التحليل ان نعرف الحكاية الخرافية ، بأنها الحكاية التي تستخدم الشخوص السبعة ، بحيث يقوم كل منها بحركة أساسية في حياة البطل من اجل الوصول الى الفتاة التي يرغب في الزواج منها · (وكثيرا ما تكون هذه الفتاة بنت ملك او سلطان) ، او من اجل الوصول الى شيء يسعى للحصول عليه ·

وقد كان ثبات هذا النوع الى هذا الحد ، دافعا للباحثين لان يتساءلوا عما اذا كان تشابه الحكايات الخرافية في جميع انحاء العالم مرجعه الى انتشارها من مكان واحد · وقد مثل هذا الرأي قديما

« تيودور بنفي » الذي افترض ان الهند هي الموطن الاساسي للحكايات الخرافية ، ومنها انتشرت في جميع انحاء العالم · على ان هناك من الباحثين من عارضه في هذا الرأي ، وافترض ان هذا التشابه يرجع الى اتفاق الشعوب في التعبير عن ظروف حضارية واحدة · ومن الباحثين من اتخذ من الحكايات الخرافية منطلقا لدراسة احوال نفسية جميعة عاشها الجنس الانساني ، وعبر عنها تعبيرا مشابها في كثير او قليل · وهذا الاتجاه هو ما سنحاول ان نطبقه بتفصيل في الجزء الخاص بحكاياتنا الخرافية ·

وعندما تتطور الحياة وتتطور معها انماط القصص الشعبي ، يجد القاص نفسه حرا ومقيدا في الوقت نفسه · فهو مقيد بأنماط وصلت اليه ذات بناء تركيبي واضح ومحدد · ولكن هذا البناء التركيبي من المرونة والشمول ، بحيث يمكن للقاص من ان يتحرك في نطاقه في شيء من الحرية · فهو يختار من الوظائف ما يلائم ظروفه الحضارية وأحواله النفسية : وفي وسعه كذلك ان يغير من ترتيب الوحدات الوظيفية كيفما شاء · اما بالنسبة للشخوص ، فهو حر في ان يختار منها ما يتلاءم كذلك مع ظروفه الحضارية وهو فضلا عن ذلك حر في اكساب شخوصه الطبيعة التي يرغب فيها ، لكي تكون معبرة عن مشكلاته النفسية التي يعايشها في حياته اليومية ·

ولعلنا ندرك الان اهمية المنهج البنائي ، فهو فضلا عن انه يقدم لنا البناء الاساسي للانماط الروائية ، يفتح الطريق امامنا لابحاث كثيرة وبالغة الاهمية في دراسة احوال الشعوب · فعن طريقه يمكن عقد مقارنات بين الانماط الروائية المتنوعة التي يتفق لكل نمط منها بناء واحد · وعن طريقه كذلك يمكن ان يدرس القصص الشعبي في تطوره ، مع محاولة البحث عن الاسباب التي دفعته الى هذا التطور ، والتي حدت بالقاص لان يختار بعض الوظائف او الشخوص ويهمل بعضها الآخر ، ثم الاسباب التي دفعته لان يكسب شخوصه طبيعة محددة على نحو ما :

واذا استطاع الباحث ان يجد اجابة شافية عن هذه المسائل ، لا من خلال دراسته للنصوص فحسب ، بل من خـــلال معايشتـه للشعب الذي يدرس نتاجه الادبي ، فانه يكون بذلك قد خطا بالدراسات الشعبية قدما ، ويكون قد أرسى دعائمها بوصفها علما من العلوم ٠

الباب الثاني

قصصنا الشعبي في
ضوء التحليل المورفولوجي

« الفصل الاول »

حكاياتنا (١) الخرافية في ضوء التحليل المورفولوجي

« كان يا مكان ، في سالف الازمان ، عندما كان ما يزال من الممكن ان تتحقق الرغبات » بهذه العبارة استهل الاخوان « جرم » بعض حكاياتهما ، وبها يشيران الى جو الحكاية الخرافية الرومانسي الذي عبرت الشعوب من خلاله في بعض الازمان عن آمالها وطموحها ٠ فعن طريق هذه الحكايات ، خلق الانسان الشعبي لنفسه عالما سحريا جميلا بعيدا كل البعد عن عالمنا الواقعي ، استطاع فيه ان يلغي كل ما يحس به في عالمنا من قيود زمانية ومكانية ، وكل ما يشعر به من ظلم ونقص في حياته ٠ فالبطل وهو تلك الشخصية الخيالية التي كانت بمثابة مشجب علق عليها الشعب كل طموحه وآماله ، كان يصل ــ حتما ــ الى مأربه ، فيتزوج من الاميرة وان كان قد نشأ في بيئة فقيرة ، او يحصل على الشيء السحري ، وان كان هذا الشيء لا وجود له الا في العالم العلوي او في العالم السفلي٠ وهو لم يكن يصل الى ذلك بمشقة وجهد حقيقيين، بل كان يصل اليه بمعونة الادوات السحرية او الشخوص الخيرة ٠ حقا ان الشخوص المهولة او الشريرة كانت تعترض طريقه ، ولكنه

---

(١) الحكايات المصرية التي أقدمها في هذا الكتاب ، سواء كانت خرافية أم شعبية مستمدة من مصادر ثلاثة :

١ ــ مجموعة حكايات قمت بجمعها من محافظة القليوبية ٠

٢ ــ مجموعة حكايات قمت بجمعها في رحلة ميدانية قام بها قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ٠

٣ ــ مجموعة حكايات في مركز الفنون الشعبية بالقاهرة قام بجمعها أحمد عبد الرحيم من مصر القديمة ٠

سرعان ما كان يجد في انتظاره من يخلصه من تلك الشخوص . فاذا هو حصل على الشيء البعيد المنال ، عاد مرة اخرى الى عالمه الواقعي وقد حقق الشيء المعجز .

هذا هو القصص الرومانسي الذي عاش وازدهر بيننا فترة من الزمن . حقا اننا لا ندعي انه قد انقرض تماما ، فما تزال آثار الروايات القديمة عالقة بأذهان بعض الرواة وبعض الاطفال ، ولكن هذه الروايات اصبحت تعيش بين صفحات الكتب اكثر مما تعيش على افواه الناس . فقلما نجد اليوم مجتمع القص الذي كان يجتمع في الليالي قديما ليحكي فيه الراوي او الراوية للصغار والكبار معا ، حكايات عن الجن والشياطين ، وعن البطل الذي تمكن من الانتصار عليها ، متنقلا في خفة ورشاقة بين العوالم الغريبة ، العلوية والسفلية ، بل لقد تغيرت حياة الناس كثيرا بعد ان غزت وسائل الحضارة حياتهم ، واصبحوا اكثر واقعية واكثر التصاقا بمشكلات حياتهم اليومية .

ولكن لما كانت شعوبنا العربية تميل بطبيعتها الى القص ، بل هي مغرمة بذلك ، فان القصص الشعبي ، او بالاحرى الرواة المغرمين بالقص لم يقفوا جامدين ازاء هذا التطور ، بل انهم اخذوا يروون نماذج اخرى يحب الشعب ان يستمع اليها في عصرنا الحاضر ، لانها اصبحت تلبي احتياجاته النفسية المعاصرة . ولهذا فقد انتقل القصص الشعبي من مرحلة رومانسية الى مرحلة واقعية . وهذا ما سنحاول ان نتبينه في دراستنا هذه (١) . ولكننا قبل ان نتحدث عن هذا الانتقال ،

---

(١) مجموعات الحكايات العربية التي استعنا بها في هذه الدراسة لا تمثل حقا تراث الشعوب العربية الوفير من القصص الشعبي . هذا فضلا عن اننا لا نثق كل الثقة في الصورة المدونة لها ، حيث ان الكتاب قد صاغوها بأسلوبهم الشخصي ، وتصرفوا فيها بعض التصرف . ومع ذلك فليس في وسعنا سوى ان نستعين بها .

نبدأ أولا بدراسة اللون الرومانسي فنحلل بناءه ، ونحـــاول ان نتبين سبب ارتباطه بهذا البناء . وهنا نكتفي بعرض سبعة نماذج نتخذهـــا مادة لما سنعرض له من موضوعات .

نموذج رقم ١ : الليمونات الثلاث (١) :

كان لاب وام ولد واحد ، وكان هذا الولد عازفا عـــن الزواج . وكان كل يوم يخرج للتنزه ، غير عابىء بالحاح الاب والام عليه في ان يبحث له عن زوجة . وذات يوم خرج ليتنزه كعادته ، فقابل عجوزا في الطريق ، فأخذ يضايقها ، فدعت عليـــه العجـــوز بعشق الليمونات الثلاث . فلما سألها عن هذه الليمونات واين يجدها لم تخبره بذلك ، بل امرته ان يسير في طريق بعينه حتى يصادف شخصا كهـلا ، فهذا الشيخ الكهل هو الذي سيخبره عن مكانها . ومنذ ان دعـــت العجوز على الشاب بعشق الليمونات الثلاث ، لم يقر له قرار ، بـــل ظل دائم التفكير فيها . وذات يوم ودع امه واباه وخرج قاصدا الشيـخ الكهل الذي يعرف سر الليمونات الثلاث .

وهناك في طريق موحش قابل هذا الشيـــخ . وسأله الشيخ عن سبب خروجه الى ذلـك الطريق الموحش ، فأجابه بأنه عازم على احضار الليمونات الثلاث . وتعجب الشيخ من مطلبه ، ونصحه بأن يعود الـى بيته ، حيث ان طريق الليمونات الثلاث مليء بالاخطار . ولكن الشاب ابدى له اصراره على خوض غمار هذه الاهوال ، ورجاه ان يدله على مكانها . عند ذاك أخذ الشيخ يشرح له معالم الطريق ، فأخبره بأنـــه

---

(١) كرم البستاني : حكايات لبنانية ، ص ٤١ . وهذه الحكاية تروى في مصر على نحو ما اوردناه . وهي تروى بصورة او بأخـــرى في بلاد عربية اخرى . انظر :
Samia Al-Azharia Iahn : Arabische Volksmârchen, (Berlin 1970) S. 132.

سيظل سائرا في هذا الطريق ليل نهار حتى يقابل غابة مظلمة ، وفي هذه الغابة تكثر الوحوش الكاسرة ، مثل الذئاب والاسود · وهذه الذئاب والاسود تستلقي حول شجرة كبيرة مهولة ، هي التي تتدلى منها الليمونات الثلاث · عند ذاك يتحتم عليه ان يلهي هذه الحيوانات بالطعام حتى تنصرف عنه فيتمكن من قطف الليمونات الثلاث · قال له ذلك ، ثم قدم له حصانا عجيبا لا يمكن للوحوش ان تدركه · كما أخبره بأنه عندما يشق كل ليمونة ستخرج له منها فتاة رائعة الجمال ، وستطلب منه في الحال ان يسقيها ، فان لم يفعل ذلك اختفت ·

وسار الشاب في طريقه حتى وصل الى الغابة ، ممتطيا صهوة الحصان العجيب ثم أوغل فيها حتى وصل الى الشجرة الكبيرة ، حيث وجد الليمونات الثلاث تتدلى منها في اغراء · فلما رأى الحيوانات تستلقي حول الشجرة ، اسرع ورمى اليها بالطعام ، فانشغلت به وانصرفت عنه · عند ذاك قطف الليمونات الثلاث وولى مسرعا على حصانه · وفي اثناء الطريق جلس ليستريح ، واخذ يشق الليمونة الاولى ناسيا في ذلك نصيحة الشيخ · فلما ظهرت له الفتاة الجميلة وطلبت الارتواء ، ولم يكن لديه ماء ، اختفت الفتاة في الحال · عند ذاك تذكر نصيحة الشيخ وأعد الماء ثم شق الليمونة الثانية · فلما ظهرت له الفتاة الثانية وطلبت الماء ، قدمه اليها ، فأخذت تشرب حتى فرغ الماء ، ثم طلبت المزيد منه·ولكنه لم يكن معه من الماء أكثر من ذلك· ولهذا فقد اختفت الفتاة الثانية كذلك · عند ذاك قرر الشاب ألا يشق الليمونة الثالثة قبل وصوله الى نبع · فلما صادف نبعا ، شق الليمونة الاخيرة ، فظهرت له فتاة لا تقل روعة عن سابقتيها · فلما طلبت الماء أخذ يرويها حتى اكتفت · وبعد ذلك حملها الشاب على فرسه حتى اصبح قاب قوسين او ادنى من بيته · ولما كانت الفتاة عارية ، فقد طلب منها ان تستقر فوق نخلة حتى يذهب الى بيته ويحضر لها الملابس · فاستقرت الفتاة فوق الشجرة وأخذت تترقب حضوره · وبعد فترة من الزمن مرت عجوز بجانب الشجرة ولم تكن قد ابصرت الفتاة · فلما

نظرت العجوز الى صفحة ماء النبع رأت صورة رائعة الجمال تنعكس عليها ٠ فتصورت انها صورتها ٠ ولهذا فقد عادت سعيدة الى بيتها ٠ ولكنها ما كادت تنظر في المرآة حتى رأت صورتها القبيحة ٠ فعادت الى النبع مرة اخرى لتتأكد من الصورة التي رأتها على صفحة المياه ٠ فلما رأتها عادت ثانية الى بيتها ، ولكنها كذلك رأت صورتها القبيحـــة في المرآة ٠ وفي المرة الثالثة وصلت العجوز الى النبع ولكنها رفعت رأسها الى أعلى الشجرة ، فرأت الفتاة الجميلة تجلس فوقها ، فأخذت تتحدث اليها ، وعلمت منها انها تجلس في انتظار حبيبها ٠ وفي الحال غرزت العجوز في رأسها دبوسا فتحولت الفتاة الى طائر ٠ أما هي فقد جلست فوق الشجرة بانتظار الفتى ٠ ولما وصل الشـــاب ذعر لمنظر العجوز ، وسألها عن حبيبته ٠ ولكنها أخبرته بأنها هي بعينها حبيبته ، وقـــد كانت مسحورة ، والآن عادت الى شكلها الطبيعي ٠ ولما كان الشاب قد أخبر أهله بأنه قد عاد بعروس ، فاعدوا العدة لاستقبالها ، فقد عز عليه أن يعود اليهم خاوي الوفاض ، ولهذا فقد عاد بالعجوز على امل انها يمكن ان تسترجع صورتها الجميلة ٠

اما الفتاة المسحورة في شكل طائر ، فقد ظلت تطير حتى وصلت الى بيت حبيبها ٠ وهناك دخلت المطبخ حيث كان الطاهي يعد الطعـــام لسيده ٠ وما كاد الطاهي يحمل الطعام حتى طارت فوق رأسه وقلبت الطعام ٠ ثم كررت هذا الفعل مع الطاهي ثلاث مرات ٠ عند ذاك اضطر الطاهي الى ان يخبر سيده بما حدث له ٠ فجـــاء الفتى وظل متربصا بالطائر ، حتى استطاع اخيرا ان يمسك به ٠ ثم رأى الدبوس في رأسه فانتزعه ، وفي الحال عادت الفتاة الى شكلها الطبيعي ، وحكت للاميـــر ما حدث لها عندما تركها فوق الشجرة ٠ ورجـــع الشاب الى بيته حيث أمسك بالعجوز وقتلها ، وتزوج فتاته الجميلة ٠

التحليل المورفولوجي :

البداية الاستهلالية :

أسرة تتكون من أب وأم وابن ، والابن عازف عن الزواج ·

الوحدات الوظيفية :

(٨ أ) احساس الابن فجأة بحاجته الشديدة الى الليمونــــات الثلاث ·

٩ ، ١٠ ، ١١ : البطل يقرر الحصول على ضالته ، ويترك أسرته ويخرج للمغادرة ·

١٢ ، ١٣ ، ١٤ : الشخصية المانحة ، وهي الشيخ الكهل ، تظهر للبطل وتختبره فتجد رده ايجابيا ، فتمنحه الوسيلة السحرية ·

١٥ : البطل ينتقل الى العالم الاخر ، حيث توجد حاجته ·

١٩ : البطل يحصل على حاجته ·

٢٦ : البطل ينجح في اداء مهمته في المرة الثالثة بعد ان اخفق فيها مرتين ·

٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، : الشخصية الشريرة ، وهي العجوز ، تقوم بمحاولة استطلاعية وتستقبل معلومات من ضحيتها وهي الفتاة وتحاول ان تخدعها · وتستسلم الفتاة لخداعها ، فيصيبها الاذى ·

٢٤ : الشخصية المــزيفة ، وهي بعينها الشخصية الشــريرة اي المرأة العجوز ، تدعي لنفسها الحق في الزواج من الشاب ·

٢٣ : البطل يعود الى بيته ٠

٢٩ : ظهور البطل الحقيقي ٠

٣٠ : الشخصية الشريرة تعاقب ٠

٣١ : البطل يتزوج بالفتاة ٠

وهكذا نرى ان الحكاية بدأت بالخروج وانتهت بالزواج ٠ كما اننا نلاحظ ان الوحدات الوظيفية التي استغلتها الحكاية جميعا لا تخرج عن الوحدات الوظيفية التي حددها « بروب » ، ولكنها مع ذلك لم تلتـــزم بترتيبها ، فقد ظهرت الشخصية المانحة قبل ظهور الشخصية الشريرة ٠ ومن ثم فقد ظهرت الوحدات الوظيفية ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ في وســـــط الحكاية وليس في بدايتها ٠ على ان هذا بعينه ما نص عليه « بروب » ، وهو امكانية تغير ترتيب الوحدات في الحكاية ، وامكانية الاستغناء عن بعضها ٠

ولا تعد شخصية العجوز التي ظهرت في مطلع الحكاية ، ودعت على الفتى بعشق الليمونات الثلاث ، لا تعد ضمن شخوصها الرئيسية ، بل يعد ظهور هذه الشخصية من الدوافع التي تنشأ بناء عليها الحركة٠ فما دامت الحكاية قد بدأت بعزوف الابن عن الزواج ، فلا بد ان ينشأ بعد ذلك دافع قوي يدفعه الى الخروج والبحث عن الزوجة ٠ وقد تمثل هذا الدافع في دعاء العجوز على الابن بان يتملكـــــه عشق الليمونات الثلاث ، وفي تحقق هذا الدعاء ٠ وبناء على هذه الرغبة الملحـــــة في الحصول على شيء ، خرج الابن وقام بالمغامرة ، ولكنه لم يكن يعلم ، عندما بدأ المغامرة ، انه خارج للبحث عن فتاة ، ولم يتبين له هذا الامر الا في منتصف الطريق عندما قابل الشيخ الذي اوضح له حقيقة الامر٠ ومعنى هذا ان الحكاية الخرافية قد تبدأ في الخروج للبحث عـن الشيء المجهول ثم تنتهي بالزواج ٠ وهذا معناه ان الزواج يكاد يكون عنصرا

ملزما في مثل هذا النمط من الحكايات ·

أما عن مغزى الحكاية وسبب اختيارها لهذه الوحدات الوظيفية وترتيبها على هذا النحو ، فهذا ما سنوضحه بعد ذلك عندما نفرغ من تقديم النماذج ·

نموذج رقم (٢) : الرجل الذي ولد بنتا (١) :

كان هناك رجل يعيش مع زوجته دون ان يرزقهما الله بابناء · وفي يوم من الايام سمعت الزوجة رجلا ينادي على تفاح يجلب الحمل ، فصاحت به وطلبت منه ان يبيعها تفاحتين ، وضعتهما في مكان ما من البيت وانصرفت الى عملها · وبعد وقت جاء زوجها من العمل وكـــان جائعا · فلما ابصر التفاحتين ، أكل احداهما في نهم · وعندما علمت الزوجة بعد ذلك بما حدث ، صرخت في وجه زوجها وأخبرته بأنه قـــد اكل تفاح الحمل ، ولا مفر من ان تظهر عليه امارات الحمل بعد ذلك · ولهذا نصحته ، خوفا من الفضيحة ، بأن يرحل بعيدا عن البيت ويأخذ معه ثوبا من الحرير وآخر من « الخيش » ، فاذا ولد ابنا ، لفه في ثوب الحرير واحضره ، واذا ولد بنتا فعليـــــه ان يلفها في ثوب الخيش ويتركها ·

....

(١) هناك روايتان اخريان لهذه الحكاية وصلتا الينا ، احداهمـــا حكاية « لمس اميرة بيروت » وتقع في مجموعة « حكايات لبنانية » ، ثم حكاية « المقطعة اليدين » التي تقع ضمن مجموعة « الحكايات الشعبيـــة الفلسطينية » في ملحق البحث الذي تقدم به « عمـــــر عبد الرحمن » للحصول على درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة·(مكتبة الجامعة ـ مخطوط) ·

فأخذ الـرجل القماش ، ورحـل الى مكان قفـر مجهول ، واستقر هناك حتى ولد الطفل من بطن رجله ، وكان بنتا ، فلفها في ثوب الخيش وتركها وشأنها ، وعاد الى بيته . وبينما كان صقر يحلق في الفضاء ، ابصر الطفلة الصغيرة تبكي ، فحملها وطار بها ووضعها في رفق فوق شجرة عالية وظل يرعاها حتى كبرت .

وذات يوم خرج ابن السلطان ليتنزه ممتطيا صهوة جواده ، حتى وصل الى نبع بجوار الشجرة التي تجلس فوقها الفتاة ، فتقدم من النبع كى يسقي جواده. ولكنه فوجيء بأن الجواد وقف ساكنا مطأطأ الرأس. فلما نظر ابن السلطان في الماء ، ابصر صورة فتاة تنعكس على صفحة فلما رفع رأسه الى اعلى،ابصر فتاة رائعة الجمال تجلس فوق الشجرة، فطلب منها ان تنزل ، ولكنها رفضت .

عند ذاك عاد ابن السلطان الى بيته وقد اصابه السقم نتيجـة لوقوعه في حب الفتاة . وقد ظل فترة عازفا عن الطعام وعن الكلام حتى حار اهله في امره . واخيرا اخبرهم بعشقه للفتاة التي تجلس فـوق الشجرة ، وتمنى لو احضروها اليه . عند ذاك عرضت عليه امـرأة عجوز مساعدتها ، وطلبت منه ان يحضر لها شاة وسكين أثلم ، وعليه ان يصطحبها ممتطيا جواده حتى يصل الى تلك الشجرة ، ثم يختفـي هو بين الاشجار وينتظر ما تفعله . سار الشـاب والعجوز معا حتى وصلا الى الشجرة . وهنـاك جلست العجوز تحت الشجرة واخذت تصطنع انها تذبح الشاة من وسطها . وكانت البنت تنظر اليها باهتمام من فوق . وعند ذاك صاحت بالعجوز قائلة « من رقبته ياما العجوزة ، من رقبته » . فاخذت المرأة العجوز تحاول مرة اخرى ذبح الشاة مـن أرجلها . ومرة اخرى صاحت بها الفتاة قائلة:« من رقبته ياما العجوزة، من رقبته » . فحاولت العجوز مرة ثالثة ان تذبحها من رأسها واخيرا طلبت المرأة العجوز من الفتاة ان تحضر وتعينها على ذبح الشـاة ، حيث ان نظرها ضعيف لا يمكنها من اصابة الهدف . عند ذاك صاحت

الفتاة على الشجرة قائلة : « ياشجرة اقصري اقصري ، لما تبقي طول خنصري » · فهبطت الشجرة بالفتاة · وفي تلك اللحظة ظهر الشاب من مكان كان قد اختبأ فيه واختطف الفتاة ، ووضعها على الحصان وسار بها حتى وصل الى امه · وهناك تزوجها وقر باله ·

وبعد وقت شاء ابن السلطان ان يخرج للحج ، فترك زوجته في رعاية امه ، بعد ان اوصى امه بهـا خيرا ، ووعدته الام ان تـرعاها الى ان يعود ولكن ما كاد الابن يبرح البيت حتى اخذت الام تكيل العذاب لزوجة ابنها الوانا ، وفضلا عن ذلك فانها حرمتها من الطعام · فلمـا طلبت الزوجة منها بعض الاكــل ، رفضت ان تقدم اليها شيئا الا اذا اعطتها عينا من عينيها · فلما جاعت الزوجة مرة اخرى وطلبـت الطعام ، عادت الام فطلبت عينها الثانية ثم طلبت بعد ذلك ساقيهـا ويديها ، وفي النهاية ألقت بها في الطريق · وبينما كانت الزوجـة تبحث في القمامة عن كسرة خبز ، وقعت يدها على خاتم ، فلما مسحته ظهر لها شبح اخبرها بأنه خادم هذا الخاتم السحري ، وان عليها ان تطلب وعليه ان يجيب · فطلبت منه ان يرجع اليها عينيها ويديهـا ورجليها وفي لحظة عاد للفتاة شكلها الطبيعي · ثم طلبت منه بعد ذلك ان يسكنها قصرا مواجها لقصر ابن السلطان ولكن يفوقه بهاء ، وان تكون حديقة هذا القصر ملأى باشجار الفاكهــة التي تثمر على مدار السنة · وفي لحظة وجدت الزوجة نفسها تسكن هذا القصر ·

وبعد وقت عاد الزوج من الحج · وكانت الام قد تناولت عقـارا سحريا أرجع اليها شبابها · ثم ادعت لابنها انها زوجته · فلما سألها عن امه ، اخبرته بأنها توفيت في اثناء غيابه ، وانها قامت بدفنهـا · فصدقها الابن وعاشر امه معاشرة الازواج ، وبعد فترة حملـت الام وتوحمت على عنقود من العنب في غير اوانه · ولم يكن الاوان آنذاك اوان العنب ، فكان لا بد من الحصول عليه من القصر المواجه لقصره · عند ذلك ارسل ابن السلطان الخادم يطلب من صاحبـة هذا القصر عنقودا من العنب · فذهب الخادم وقال لصاحبة القصر : « يا ست يا

ستنا ، ياللي قصرك جنب قصرنا ، ادينـــــا قطف عنب للوحيمة اللي عندنا » . عند ذاك ردت عليه صاحبة القصر قائلة : « أبويا حبل في ، والصقر والطاووس عششوا علي ، وابن السلطان حبني واشتهاني ، واتجوز امه علي ، يا مقص قص طرف لسانه لاحسن يروح يفتن علي» . وفي الحال هوى مقص على لسان الخادم فقطعه . وعاد الخادم خاوي الوفاض الى سيده . فلما سأله سيده عن عنقود العنب ، تلعثـــم في الكلام ، ولم يفهم سيده شيئا مما قاله . عند ذاك ارسل ابن السلطان خادما ثانيا وثالثا ، فحدث لهما ما حدث للخادم الاول . فذهب ابـــن السلطان بنفسه الى صاحبة القصر ، وفوجيء بطبيعة الحال عندمـــا وجد نفسه امام زوجته الحقيقية . وقصت الزوجة عليه قصتها مع امه ، فعاد بها ابن السلطان الى القصر ، وقتل امه ، وتزوج بزوجتـــــه الحقيقية مرة اخرى .

التحليل المورفولوجي :

البداية الاستهلالية :

الاسرة تتكون من الزوجة والزوج اللذين لم يرزقهما الله بابناء .

البداية التمهيدية : وتحتوي على الوحدات الوظيفية التالية :

١ ــ تغيب احد افراد الاسرة وهو الزوج .

٢ ــ هناك تحذير ضمني موجه من الزوجة الى الزوج ، وهو ألا يأكل من تفاح الحمل .

٣ ــ مخالفة الزوج للمحظور بعد ان اكل تفاحة ، وكان نتيجـــة هذا ان ظهرت عليه امارات الحمل .

١٢ ـ اختيار العجوز للبطلة ، ورد فعل البطلة على ذلك ، مما مهد لظهور الشخصية المساعدة وهي الامير ٠

٨ ـ الشخصية الشريرة ، وهي ام الزوج ، تسبب الاذى للبطلة وتبعدها عن البيت ٠

١٣ ، ١٤ ـ البطلة تتاح لها فرصة استخدام الاداة السحرية ، ومن ثم تظهر لها الشخصية المانحة ٠

١٩ ـ تغير مظهر حياة البطلة عندما سكنت قصرا جديدا ٠

٢٤ ـ البطل المزيف ، وهو الام، يدعي لنفسه حق البطل الحقيقي٠

٣٠ ـ معاقبة الشخصية الشريرة ٠

٣١ ـ الاحتفال بزواج البطلة مرة اخرى ٠

وقد نتساءل بعد ذلك عن بطل هذه الحكاية ، فهل هو ابن السلطان ام الفتاة ؟ اذا كان تحديد شخصية البطل في الحكاية الخرافية يتوقف على مدى تركيز وظائف الحكاية حول هذه الشخصية ، فان الفتاة في هذه الحكاية اولى ان تكون بطلتها من ابن السلطان ٠ فهي التي تعرضت لايذاء الشخصية الشريرة ، وهي التي ظهرت لها الشخصية المانحة المتمثلة في خادم الخاتم السحري ، وهي التي امتلكت القدرة على استخدام الوسيلة السحرية ، ثم هي التي ساعدت على الكشف عن الشخصية الشريرة ، ثم توصلت في النهاية الى وضع الامور في نصابها ٠ فاذا علمنا بعد ذلك ان الظلم وقع منذ البداية على تلك الفتاة ، وانه وفقا لمنطق الحكاية الخرافية ، ينبغي ان يرفع عنها الظلم وتعوض عنه بان تصبح زوجة للامير او ابن السلطان ، استطعنا ان نؤكد ان بطل هذه الحكاية هو الفتاة وليس ابن السلطان ٠ ؟

وهناك في الحكاية ، فضلا عن وحدات وظائفها الاساسية،

عنصران اساسيان يدخلان في تكوينها وظيفتهما الفصل · اما العنصر الاول فهو تكرار الحدث ثلاث مرات ، كما حدث مع العجوز وهي تذبح الشاة ، وكما حدث مع الخدم الذين ارسلوا الى صاحبة القصر · واما العنصر الثاني فيتمثل في عملية الابلاغ ، اي ابلاغ الزوج بما حدث لزوجته حتى يفتح عينيه على الحقيقة ·

اما الفعل الذي فعلته العجوز ، وهو خداع الفتاة حتى يحصل عليها ابن السلطان ، فهو ينتمي الى الافعال الناجمة عن الدوافع · فبدافع رغبة ابن السلطان العارمة في الحصول على الفتاة ، تقدمت العجوز لمساعدته ومن ثم فان شخصية العجوز ، بناء على هذا الدافع ، لا يمكن ان تنتمي الى الشخوص الرئيسية ·

نموذج رقم (٣) : البنت التي تزوجت كلبا (١) :

كان هناك حطاب فقير يعيش مع زوجته وابنته · ولم يكن الرجل يكسب كل يوم سوى بضعة قروش يشتري بها ما يسد رمقهم · فلما قرب العيد طلبت منه زوجته ان يخرج ليكسب مزيدا من النقود فيشتري لابنته رداء العيد ، كما طلبت من الابنة ان تخرج مع أبيها لتعاونه في عمله ، فخرج الاب وابنته واخذا يجمعان الحطب من الجبل · وبينما كانت البنت تحزم حزمة الحطب على مقربة من ابيها ، برز لهما رجل وبصحبته كلب · وسأل الرجل الاب على الفور : هل تقبل ان تزوج

....

(١) هذه الحكاية شبيهة بحكاية لبنانية بعنوان « ثريا بنت الغول والكلبة السوداء » (حكايات لبنانية ص ١٤٠) ، كما انها شبيهة بالنموذج رقم (٤) والنموذج رقم (٢٩) من الحكايات العراقية (انظر مجلة التراث الشعبي ـ العدد العاشر ١٩٧٢) ـ في مقال : (النموذج والجزئية في حكايات الجان العراقية لبثينة الناصري) · ثم انظر ، « حكايات عربية شعبية لسلمى الازهرية ص ٥٢٥ » ·

ابنتك مني أم من الكلب ؟ فأجاب الرجل : وكيف يمكنني ان أزوج ابنتي من كلب ؟ فرد عليه الرجل قائلا : ان هذا الكلب ليس كلبا عاديا ، انه ملك العالم السفلي ، وهو مسحور على هيئة كلب ، اما انا فلست سوى خادمه ٠ عند ذاك وافق الاب على ان يزوج ابنته من الكلب ، وسلمهـا للخادم ٠ وقبل ان يتهيأ الخادم للذهاب بالبنت ، سلم الاب عصا وقال له : ان شئت ان ترى ابنتك فعليك ان تدق الارض بهذه العصا ، فتنفتح لك فتحة في الارض فتدخل فيها ٠ واخذ الاب العصا وعاد وحيدا الى بيتـــه ٠

وسألت الام عن ابنتها فاخبرها بأنه زوجها منملكالعالم السفلي٠ ولما صرخت الام في وجهه ، طمأنها بانه يمكنها ان ترى ابنتها في اي وقت تشاء وما عليها سوى ان تدق الارض بالعصا ، فتنفتح لها فتحـة تدخل فيها ، وهناك يقودها الطريق الى قصر ملك العالم السفلي ٠

وبعـد وقت ، ضاقت الحـال بالـزوج والـزوجة ، فقــررا ان يـرحلا الــى ابنتهما ليستطلعا اخبارها ، ويطلبا منها بعض النقود ، فدقا الارض بالعصا ، وهبطا في الفتحة ، وسرعان ما هداهما الطريق الى القصر الذي تسكنه الابنة ٠ وهناك طلبا من الابنـــــة بعض المال ، فسألت الابنة زوجها ، ملك العالم السفلي ، ان يمنحها الرحى السحرية التي كلما اديرت يمينا او شمالا تدفقت منها الجنيهات الذهبية ٠ واخذ الرجل وزوجته الرحى السحرية وخرجا من العالم السفلي ، وظـــــلا سائرين بها حتى وصلا الى بيتهما ٠ ولم تمض سوى بضع دقائق حتى طرق الدائنون الباب يطلبون من الرجل سداد دينه ٠ واستقبلهم الرجل بترحاب بالغ ، واخبرهم بانه اصبح في وسعه الآن ان يسدد دينه ، بل ان يمنحهم المال ، ثم اطلعهم على الرحى السحرية ٠ وما كاد الدائنون يبصرون الرحى ، حتى نظر بعضهم الى بعض نظرة فهموا منها ضرورة الاحتيال على الرجل وسرقة الرحى ٠ عند ذاك طلبوا من الرجل ان يعد لهم طعاما ، فترك رحاته وهرول ليعد لهم الطعام ٠ وعند ذاك اخـــــذ الدائنون الرحى وهربوا ٠ وعبثا حاول الرجل ان يسترد رحاتـه بعد

ذلك · عند ذاك قرر ان يرحل الى ابنته مرة اخرى ليشكو اليها امره · وقد اعطته الابنة في هذه المرة حمارا كلما قال له « حا » اسقط الدنانير من مؤخرته · فاخذ الرجل الحمار وخرج الى عالم الارض · وذات يوم خرج الرجل الى السوق ممتطيا حماره · ولما وجد السوق مزدحما ، ترك حماره عند احد اصحابه ، ونصحه الا يقول له « حا » والا هرب منه · ولكن الصديق شاء ان يختبر صدق هذه النصيحة · فلما قال للحمار « حا » اسقط الحمار الدنانير من مؤخرته · وفي الحال جاء بحمار آخر ، واخذ الحمار السحري واخفاه · فلما عاد الرجل سلم الصديق اليه الحمار المزيف ، فأخذه الرجل ومضى · ثم اكتشف الرجل بعد ذلك ان صديقه قد سلبه الحمار السحري وأعطاه حمارا عاديا فلما عاد اليه يطلب حماره ، سخر منه الصديق وطرده · فعاد الرجل الى ابنته وشكا اليها حاله · وفي هذه المرة اعطته العصا السحرية · فاذا هو أمر هذه العصا ان تضرب فانها لا تكف عن الضرب ، الا اذا امرها بالتوقف · وقالت له انه يمكنه ان يسترد ادواته السحرية عن طريق هذه العصا ورحل على الفور الى الدائنين ، حيث أمر العصا ان تضربهم · فانهالت العصا عليهم ضربا حتى اعاد الدائنون اليه الرحى، ثم ذهب الى الصديق الخائن واسترد حماره بالطريقة نفسها · وبذلك اصبح الرجل غنيا واصبح يمتلك على الدوام الرحى والحمار والعصا·

التحليل المورفولوجي :

البداية الاستهلالية :

الاسرة الفقيرة تتكون من اب وام وابنة ، وقد أكدت الحكاية حالة الفقر المدقع التي تعيش فيها الاسرة ، لكي تخدم بذلك اسلوب التضاد الذي يعد من الزم لوازم الحكاية الخرافية · ذلك ان هذه الاسرة في النهاية نالت الثروة الطائلة ·

الوحدات الوظيفية :

١ ـ تغيب بعض افراد الاسرة وهو الاب والابنة ٠

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ـ البطل يقف امام اختبار القـوة المانحـة وهي الخادم والكلب فتمنحه الاداة السحرية ، وهي العصا التي أستطـاع عن طريقها الدخول الى العالم السفلي ٠

٩ ـ البطل يشعر بحاجته الى المال فيرحل لاحضاره مـن العالم السفـلي ٠

١٩ ـ البطل يحصل على المال ٠

١٦ ـ صراع البطل مع القوى الشريرة ، وهـذا الصراع يتكرر ثلاث مرات ٠

٢٠ ـ البطل يعود الى بيته ٠

٣٠ ـ الشخوص الشريرة تعاقب ٠

ومن الواضح ان الاب في هذه الحكاية هو بطلها ٠ اما الابنة فلم تكن سوى شخصية باهتة ، دفع بها الى العالم السفلي لتعيش مع زوج غير انسي ٠ وفضلا عن ذلك فهي لم تبد اية رغبة في الخروج من العالم السفلي او في ان يتحول زوجها الى صورة معلومة ٠ ومن ثم فقد ظلت ساكنة في هذا العالم الغريب مع الزوج الغريب ، وكأنها لم تدخـل في نسيج الحكاية الا لتحقيق رغبة الاب في الحصول على المـال ٠ فاذا قارنا هذه الشخصية بشخصية الابنة في الحكاية اللبنانية (ثريا بنت الغول والكلبة السوداء ص ١٤٠ من حكايات لبنانية) ، فاننا نجـد ان سلوك الابنة في الحكاية اللبنانية يدفعنا الى الاحساس بأنها قد انتقلت، رغما عنها ، الى العالم الغريب لتتزوج بالغول المسحور في شكل كلب ،

وانها ظلت تبحث عن وسيلة للتخلص بها من هذا الغول ، واستطاعت في النهاية ان تقتله بمساعدة ابن عمها · وعلى كل فربما كانت كل حالة تشير الى تفسير نفسي مختلف · وهذا ما سنحاول ان نتبينه بعد ذلك ·

نموذج رقم (٤) : الصياد والسمكة (١) :

خرج صياد ذات يوم ليصطاد مصطحبا معه ابنه ، فساعده الحظ على اصطياد سمكة مهولة الى درجة انهاجهد نفسه هو وابنه فياخراجها من الماء · فلما اطمأن الاب الى انه اخرجها الى الشاطيء ، ترك ابنه ليحرسها ريثما يشتري شيئا · وفوجيء الابن بان السمكة تفتح له فمها وتسأله ان يقدم لها بعض الماء لتشرب · فأخذ الابن يزحزحها تدريجيا حتى تقترب من الماء لتشرب · ولكنه ما كاد يفعل هذا حتى تسربت السمكة الى الماء واختفت ·

وذعر الابن وتصور ان اباه سيضربه ضربا مبرحا عندما يعلم انه قد افقده السمكة بغبائه · ولم يجد الابن مفرا من ان يهرب قبل ان يحضر ابوه · واخذ الابن يجري ويسرع في الجري بخاصة انه ابصر شخصا يجري وراءه وتصور انه ابوه ولكن هذا الشخص استطاع اللحاق به واوقفه ، فوقف الابن بعد ان تأكد انه ليس اباه · وعند ذاك سأله هذا الشخص عن اسمه وعن السبب الذي يدفعه الى الجري ·

....

(١) تتفق هذه الحكاية تماما مع النموذج رقم ٣٢ ص ٣٨ من مجلة التراث الشعبي العراقية العدد العاشر ١٩٧٢ وهناك رواية اخرى لها تحت عنوان الست بدور في مجموعة حكايات لبنانية ص ١٥٤ ، ثم رواية فلسطينية تحت عنوان « الشاطر محمد والحصان المسحور » (مجموعة حكايات فلسطينية) ·

فأجابه ان اسمه محمد وانه يجري خوفا مـن ابيه لانه تركه في رعاية سمكة ، فانفلتت منه السمكة وتسربت الى البحر ٠ عند ذاك اجابه هذا الشخص الغريب بأن اسمه علي ، وانه هرب كذلك من ابيه لانـه سكب ما لديه من الزيت على الارض ٠ ولهذا اتفق علي ومحمد على ان يسيرا معا علهما يجدان عملا يكسبا منه قوتهما ٠ ولما علم علي ان محمدا كان تلميذا في المدرسة ، اصر على ان يرسله الى المدرسة وان يعمل هـو ويتولى الانفاق عليه ، وقد وافق محمد بعد لأي على ذلك ٠

وذات يوم كان محمد يسير بمفرده ، فقابل يهوديا يحمل معه قدرا كبيرا من الذهب وقد استوقف اليهودي محمدا وأخذ يتحدث اليه ، حتى جرهما الحديث الى ذكر المكان الذي يحصـل اليهودي على الذهب منه ٠٠ واشار الى جبل عال ينتشر الذهب على قمته ٠ ثم اخبر محمدا بأنه في وسعه ان يدع نسرا يحمله على جناحيه ويرتفع به الى قمة ذلك الجبل ، حيث يلقي اليه بما يجده هناك من ذهب ، ثم يدع النسر بعد ذلك يحمله هابطا به ، وبعد ذلك يقتسم معه الذهب ٠ وخدع محمد بحيلة اليهودي ٠ وفي لحظة كان النسر يحمله الى اعلى الجبل ٠ وبعد ان قذف الى اليهودي قدرا كبيرا من الذهب ، تركه اليهودي وحيدا فوق الجبل ، ومضى ٠

واخذ علي يبحث عن محمد ولكنه لم يجده ٠ وقد لقي في طريقه اليهودي الذي خدعه على نحو ما خدع محمدا من قبل والتقى علـي ومحمد فوق قمة الجبل ، ثم أخذا يزحزحان حجرا كبيرا ، حتى سقط على رأس اليهودي وقتله ٠ ثم هبطا على جناحي النسر واستوليا على الذهب الذي كان مع اليهودي ٠

فلما صارت لهما هذه الثورة الطائلة ، اقترح علي على محمـد ان يتزوج من بنت ملك المدينة ٠ ووافق الملك على شرط ان يبنـي محمد لابنته قصرا لم يبن احد مثله من قبل ٠ وحقق محمد رغبة الملك وتزوج

ابنته واستأذنه علي في الغياب مدة شهر يرحل فيه الى بلده ثم يعود اليـــه ·

وبعد شهر عاد علي الى محمد واطمأن الى انه يعيش في سعادة بالغة · وذات يوم طلب علي من محمد ان يرافقه الى النهر ليستحم · فأخذ محمد يغريه بان يستحم في القصر ، ولكن عليا اصر عـــلى ان يستحم في النهر فاصطحبه محمد الى شاطئه · وهناك خلع علي ملابسه وغطس في الماء وهو يصرخ بمحمد : انك لن تراني بعد اليوم ، فأنـــا السمكة التي كنت قد انقذتها من العطش · لقد صنعت معي جميـــلا فرددته لك ثلاثا : علمتك واغنيتك وزوجتك بابنة الملك · ثم اختفى علي فى الماء ·

التحليل المورفولوجي :

١ : تغيب الاب والابن عن البيت ·

٢ : تحذير الاب لابنه · وقد جاء هذا التحذير في شكل أمر موجه من الاب الى ابنه برعاية السمكة في اثناء غيابه ·

٣ : الابن يخالف المحظور فتنفلت منه السمكة ·

١٢ ، ١٣ : الشخصية المانحة ، وهي بعينها الشخصية المساعدة تظهر للبطل وتختبره ، والبطل يستجيب لها ·

١٤ : البطل لا يمنح الاداة السحرية ، لان القوة المانحة والمساعدة ظلت مرتبطة به لتحقق له مآربه ·

٤ : الشخصية الشريـــرة ، وهـــي اليهودي ، تقـــوم بمحاولة استطلاعية ·

٦ ، ٧ : الشخصية الشريرة تخدع ضحيتها والضحية تنخدع ·

٨ : الشخصية الشريرة تسبب الاذى للبطل ٠

١٨ : البطل يهزم الشخصية الشريرة بمساعدة القوة المانحة ٠

٣١ : البطل يتزوج بالاميرة ٠

نموذج رقم (٥) : كشكول ذهب (١) :

كانت هناك ام لها ولد وابنة ٠ وقد سمت الولد محمدا ، امـــا البنت فقد سمتها « كشكول ذهب » فلما كبرا، ذهب كلاهما الى المدرسة٠ وذات يوم تأخر الابن كثيرا ، واخذت الام تنتظر عودته ولكنه لم يعد ٠ عند ذاك صاحت بابنتها وأمرتها بأن تذهب لترى اخاها وتعرف سبب تأخره ٠ فذهبت الابنة الى المدرسة ، وفتحت الحجرة التي يدرس فيها اخوها عادة ، ولكنها فوجئت بأن « الفقي » (اي المعلم) يأكل أخاها ٠ فأغلقت باب الحجرة وولت هاربة ولم تعد الى امها ٠ وظلت تسير في طريقها وتنتقل من مكان الى مكان حتى اظلم الكون فجلست عند دكان تباع فيه الصبغة ٠ فلما جاء صاحب الدكان لكي يغلقه ، ابصر الفتاة جالسة امامه ٠ فسألها عن سبب جلوسها في تلك الساعة ، فأجابتـــه بأنها قد ضلت الطريق وطلبت منه ان يؤويها في الدكان حتى الصباح ٠ عند ذاك سألها الرجل ان تذهب معه الى بيته لتبيت مع ابنائه ، ولكنها اصرت على ان تبيت في الدكان ٠ فأمتثل الرجل لطلبها ، وأغلق عليها الدكان وذهب الى بيته ٠

وفي أثناء الليل رأت الفتاة من يشق الحائط ويحدثها قائـــلا :

(١) لم نجد لهذه الحكاية المصرية رواية اخرى في مجموعات الحكايات العربية التي نمتلكها ، وربما كان لها روايات اخرى في غيرهـــا من المجموعات ٠ انظر « التراث الشعبي في محافظة البحيرة » ـ جامعة القاهرة ٠

« كشكول ذهب ايش رأيت من عجب ؟ » فأجابت : « رأيت يا سيـــدي الفقي بيعلم الناس كل الادب » وكان هذا الشخص هو الفقي بعينه ، الذي كان يأكل اخاها • فلما اجابته على هذا النحو ، سكب الاصبـاغ التي في المحل بحيث اختلط بعضها بيعض تماما • فلما جاء الرجل في الصباح ليفتح دكانه ، ووجد الاصباغ مسكوبة على هذا النحو ، ضرب الفتاة وطردها •

خرجت الفتاة هائمة على وجهها مرة أخرى حتى أظلم الكـون ، فجلست بجانب دكان قماش • وطلبت من صاحب الدكان ان يجعلهـا تبيت في الدكان فعرض عليها ان تذهب معه الى بيته ولكنها رفضت ، فأذعن لطلبها • وفي اثناء الليل ، شق « الفقي » الحائط كما فعل قبل ذلك وسألها : « كشكول ذهب ايش رأيت فيما عجب ؟ » فأجابت : « رأيت يا سيدي الفقي بيعلم الناس كل الادب » • عند ذاك بعثر الفقي القماش الذي في المحل وأغلق الحائط واختفى • وفي الصباح جاء صاحب الدكان وذعر لما رأى ، وسألها عن سبب ذلك ، ولكنها لم تجب ، فضربها وطردها •

ظلت البنت سائرة حتى اظلم الكون ، فجلست بجانب قصر كبير• وبعد وقت وصل امير هذا القصر وعرف حالها فادخلها القصر ، وأمر الخدم بأن يأن يدخلوها الحمام ويلبسوها افخم الثياب لانه راقـــه جمالها • ثم تزوجها بعد ذلك •

وولدت له « كشكول ذهب » ابنا رائع الجمال • ولكن الفقي جاءها بالليل ، بعد شهور من ولادة الطفل ، وشق الحائط واخذ منها ابنها ثم مسح فمها بالدم ، وسألها بعد ذلك سؤاله المألوف « كشكول ذهب ايش رأيت فيما عجب ؟ » فأجابت : « رأيت ياسيدي يا سيدي الفقي بيعلـم الناس كل الادب » • عند ذاك اخذ الطفل واختفى • ودخل الزوج على زوجته في الصباح فلم يجد الطفل ، ووجد فم الام ملوثا بالدم • فتصور على الفور ان زوجته هذه ليست عادية ، بل ربما كانت غولة • ثم شاع

فى القصر بعد ذلك ان زوجة الامير اكلت ابنها · ومع ذلك فقد صبر عليها الامير ومنحها فرصة اخرى · ثم ولدت كشكول ذهب ابنا آخر · وحدث معه ما حدث مع الطفل الاول · عند ذاك اغلق الامير عليها الحجرة ونبذها ·

اخذت ام الامير تلح على ابنها في ان يتزوج ابنة عمه ، ولكنه رفض وقرر ان يسافر للحج · ولما استعد للرحيل اخذ كل من في البيت يعبر عن رغبته في ان يحضر له معه شيئا من بلاد الحجاز· وفي النهاية دخل على زوجته الغولة وسألها عما اذا كانت ترغب في شيء ، فأجابته بانها تود ان يحضر لها علبة الصبر · « فان احضر علبة الصبر مركبه سارت ، وان لم يحضرها ، مركبه وقفت في البحر واحتارت » · فذهب الامير الى الحجاز واحضر جميع الاشياء ما عدا علبة الصبر · فوقف المركب في عرض البحر وأبى ان يتحرك · عند ذاك تذكر الامير علبة الصبر فعاد واحضرها ، فسار المركب على خير ما يرام · وهناك في قصره سلم زوجته الغولة علبة الصبر ، ثم قرر بعد فترة ان يتزوج بابنة عمه · فكانت « كشكول ذهب » فتحت علبة الصبر سمعت لها صوت قرقعة ، فتقول لها : « اصبري يا علبة الصبر كما صبرت » · وهكذا ظلت على هذا الحال الى ان حان اليوم الذي كان الامير فيه سيزف على ابنة عمه · وفي هذا اليوم بعينه ، وجدت « الفقي » يشق الحائط ويحضر اليها ابناءها بعد ان اصبحوا كبارا ويقول لها : « هؤلاء هم ابناؤك ، لقد ربيتهم لك واعدتهم اليك ، لانك صبرت حق الصبر » ·

وسمع الابناء أباهم يحتفل بزواجه بابنة عمه ، فدخلوا الى الفرح، ولكن الخدم طردوهم فصرخوا بصوت مرتفع : « هو الفرح فرح ابونا والغرب يطردونا ؟ » وسمعهم الامير فنادى عليهم ، وعرف منهم انهم ابناؤه · وعند ذاك أبطل الامير الفرح وعاد الى زوجته واولاده ·

التحليل المورفولوجي :

١ : تغيب احد افراد الاسرة وهو الابن ثم البنت من بعده ٠

٨ : الشخصية الشريرة تسبب الاذى لاحد افراد الاسرة وهو الابن ٠

١١ : البطلة تترك اسرتها وتخرج للمغامرة ٠

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ : البطلة كلفت بمهمة ، وهي الا تبوح بسرها وهي تنجح في ذلك ، ويعترف بها ٠

٢٩ : البطلة تبدو في مظهر جديد ، اذ ان الابناء عادوا اليها وبذلك عاد اليها الفرح والسرور ٠

٣١ : البطلة تعود الى عش الزوجية مرة اخرى ٠

ونلاحظ في هذه الحكاية ان الشخصية الشريرة لم تعاقب ، وهذا ما يجعلنا نفترض انها ليست الشخصية الشريرة ، على الرغم من مظهرها الشرير ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ٠ والواقع ان هذه الشخصية الشريرة غريبة وتحتاج الى تفسير يوضح سلوكها المتناقض٠ ذلك اننا في حين نجدها تقتل الاخ نجدها مرة اخرى ترعى الابناء وتردهم الى أمهم بعد ان كبروا ٠ وكل هذا سنحاول دراسته فيما بعد ٠

نموذج رقم (٦) : ابناء العم الثلاثة :

كان ابناء العم الثلاثة يعيشون معا في وئام ، وكانوا يقتصدون ما تبقى من مصروفهم ويضعونه في جرار ٠ وذات يوم اكتشفوا ان الجرار المتلئة بالنقود تتناقص،فاخذوا يرقبون اللص من بعيد،ولكنهملم يهتدوا اليه عند ذلك قرروا ان يخرجوا الى المدينة ويجلسوا بين اهلها،

لعلهم يسمعون شيئا عن اللص ٠

وبينما كانوا يسيرون في الطريق اذ ابصروا بئرا ، فتصوروا ان اللص ربما يخبىء مسروقاته في هذه البئر ، ولهذا فقد قرروا فيما بينهم ، ان ينزل صغيرهم ، واسمه حسن ، الى البئر ، ليكتشف ما بداخله ٠ فربطه ابنا العم في حبل ودلياه في البئر ، على ان يعودوا الى جذبه مرة اخرى ٠ وما كاد الشاب يصل الى قاع البئر ، حتى رأى امرأة رائعة الجمال ، معلقة من شعرها ٠ فسألها عما اذا كانت من الانس أم من الجن ، فأخبرته انها من الانس ، وان العفريت قد خطفها وعلقها على هذا النحو في قاع البئر ، ريثما يعود اليها ٠ ففك الشاب وثاقها ، ثم اخذ يتدبر معها طريقة صعودهما الى العالم الارضي ، لان ابني عمه سيطمعان فيها بمجرد ان يقع بصرهما عليها ٠ ولكنها اتفقت معه على ان تسبقه في الصعود الى العالم الارضي ، وسوف ترى ما يمكن ان يفعله ابنا العم معها ٠ قالت له ذلك ثم سلمته سوارا تمتلكه لعله ينفعه في وقت الحاجة ٠ عند ذاك اعطى حسن اشارة الى ابني العم لكي يشدا الحبل ، فلما فعلا ، اذا بهما يبصران الفتاة الجميلة تصعد اليهما ٠ وشغل ابنا العم بالفتاة واخذاها ورحلا الى بيتهما ، تاركين ابن عمهما حسن في البئر ٠

أما حسن فقد اخذ ينظر حوله في قاع البئر لعله يجد وسيلة تعينه على الخروج الى سطح الارض ٠ رأى امامه طريقا فسار فيه ٠ وقاده الطريق الى قصر شامخ ٠ وهناك سمع صراخا وعويلا ٠ فلما تساءل عن سبب هذا الصراخ قيل له ، ان هناك ماردا يهدد المدينة كل عام ، ما لم تمنحه المدينة ابنة بكرا ٠ وفي هذا العام وقع اختيار المارد على ابنة الملك ، فلما سمع حسن ذلك ، عزم على تخليص المدينة من هذا المارد ٠ فاختبأ له في مكان خفي ريثما يحضر لاستلام ابنة الملك ، ثم طلع عليه وقتله بسيفه ، وجز رؤوسه السبعة ٠ وعندما سمع الملك بهذا النبأ ، استدعى الفتى وهنأه على بطولته ، وعرض عليه ان يتزوج من ابنته

لانه كان قد وعد ان يزوجها بمن ينقذها من المارد · ولكن الفتى اعتذر له بأنه لا يمكنه ان يتزوج ابنته ، حيث ان فتاتـــــه تنتظره في العالم الارضي · ولذلك فقد توسل اليه ان يعينه على الصعود الى العالم الارضى فوافق ملك العالم السفلي على ذلك ، ولكنه طلب منه ان يبقى اياما يشهد فيها احتفال المدينة بقتل المارد وبطولته ، وبعد ذلك يساعده على الوصول الى عالمه ·

وذات مساء بينما كان حسن يتجول في حديقة القصر مـع ابنة الملك ابصر شجرة غريبة تحمل صنفين من الثمار ، في كل جانب منها صنف · فلما سأل حسن ابنة الملك عن هذه الشجرة ، قالت له ان الثمار التي على الجانب الايمن من الشجرة ، تحول الانسان ، اذا ما أكلها ، الى حيوان · فاذا عاد وتناول من الثمار التي على الجانب الايسر ، فانه يعود الى شكله الطبيعي · ثم طلبت ابنة الملك من حسن ان يجرب معها هذه التجربة حتى يتأكد من صدقها ، فلما أكلت الفتاة من الثمار الاولى تحولت الى شاة · فأخذ يسخر منها حسن بعد الوقت ، ثم ناولها الثمار الثانية · فلما أكلت منها عادت الى حالتها الطبيعية · عند ذاك دس حسن في جيبه بعضا من ثمار كل نوع · وبعد يوم كانت المدينـــة في وداعه وهو يصعد الى العالم العلوي · وهناك في العالم العلوي وجد نفسه في بلد غير بلده · فأخذ يسير على غير هدى حتى وصل الى دكان صائغ ،وطلب منه ان يعمل عنده ، فقبل الصائغ ·

وعندما اختلف ابنا العم حول الزواج بالفتاة ، قدمت لهمـــا سوارا وقالت لهما ، ان من يستطيع منهما ان يصنع مثل هذا السوار تماما ، فانه سيفوز بها · فرحل احدهما بالسوار الى الصياغ لعــل احدهم ينجح في ان يصنع له مثــــل ذلك السوار ، ولكنهم اعتذروا جميعا ، فسار في طريقه حتـى وصل الى الصائغ الذي يعمـل عنـده حسن · وتردد هذا الصائغ هنيهة ثم طلب منه مهلة · وكان حسن يرقب ابن عمه من بعيد ، فلما رحل تقدم للصائغ وأخبره بانه في وسعه ان يصنع له سوارا مطابقا لهذا السوار تماما في خلال يومين ، على شرط

ان يتركه وحده في حجرة مغلقة · فوافق الصائغ على ذلك · واخذ حسن يصطنع العمل في هذه الحجرة ، ويحدث طرقا بأدواته ، ليوهم الصائغ انه يقوم بصنع السوار · وفي النهاية خرج من الحجرة وسلم اليه السوار الذي كانت الفتاة قد اعطته اياه قبل صعودها من البئر · فلما جاء ابن العم الآخر ليتسلم السوار الثاني ، وكان قد ساوره الشك في ذلك ، لم يصدق نظر حين وجد السوارين متطابقين · ولهذا فقد اخذهما وجرى الى الفتاة ليطلعها على نجاحه في مهمته · فلما ابصرت الفتاة السوار الثاني علمت انه سوارها الذي كانت قد اهدته الى فتاها ولهذا فقد طلبت من ابن العم ان يذهب ويحضر اليها من قام بصنع هذا السوار · واسرع ابن العم مرة اخرى ليحضر صانع السوار · وقابله حسن متخفيا وذهب معه الى الفتاة · وقابلته الفتاة وتعرفت عليه كما تعرف هو عليها · عند ذلك طلبت من ابني العم ان تخلو بصانع السوار بعض الوقت ، لتعرف منه سر صنعة السوار · ولما خلت بفتاها ، اخذا يتدبران وسيلة للتخلص من ابني العم · فاخبرها حسن بانه يعرف لذلك وسيلة ناجحة ، وان عليها ان تهدأ · ثم خرج من عندها ، وكان ابناء العم ما زالا يتشاجران حول الزواج بها ، وأخبرهما حسن بأنه سيرمي بعض الثمار بعيدا ، ومن يستطع منهما ان يسرع ويأكل الثمار قبل الآخر ، فان الفتاة ستكون من نصيبه · ثم رمى الثمار بعيدا ، فهرول ابناء العم واخذ كل منهما ثمرة وأكلها · وكانت تلك الثمار هي الثمار الذي قطفها من حديقة ملك العالم السفلي · وفي الحال تحولا ابنا العم الى جديين ، فتركهما حسن على هذا النحو وأخذ فتاته ورحل·

التحليل المورفولوجي :

البداية الاستهلالية : الاسرة تتكون من ابناء العم الثلاثة ، الذين كانوا يعيشون في وئام وفي حالة من اليسر · ثم يلي ذلك الوحدات الوظيفية الآتية :

١ : خروج ابناء العم بحثا عن السارق ·

٤ : ظهور الشخوص الشريرة في حياة البطل وهي تتمثل هنا في ابني العم ·

٨ : الشخوص الشريرة تؤذي البطل عندما تركته وحيدا في البئر، وحين طمعت في الزواج منفتاته ·

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ : البطل يكلف بمهمة ، وهي قتل المارد ، وتخليص ابنة الملك منه ، وينجح في ذلك ، ويعترف به بوصفه بطلا ·

١٢ : ظهور الشخصية المساعدة والشخصية المانحة في حياة البطل ، متمثلتين في الملك وابنته ·

١٤ : حصول البطل على الادوات السحرية ، وهي تلك الثمار السحرية ·

٢٣ : البطل يصل الى مكان آخر دون ان يتعرف عليه احد ويعمل بحرفة يدوية ·

١٦ : مقابلة البطل للشخصية الشريرة في دكان الصائغ ·

٢٤ : البطل المزيف ، وهو ابن العم ، يطالب بحق البطل ، اي بالزواج بفتاته ·

٢٩ : البطل يبدو في صورة جديدة ، وهي تلك الصورة المتنكرة ، التي ظهر بها لابناء عمه ولفتاته ·

٣٠ : معاقبة الشخوص الشريرة بالمسخ ·

٣١ : زواج البطل من الفتاة ·

هذه الحكاية تعد اكثر الحكايات استيفاء للشخوص الرئيسية ،

اذ ترد فيها الشخوص التالية كل على حدة: شخصية البطل، الشخصية الشريرة ، شخصية الزوجة ، الشخصية المانحة ، الشخصية المساعدة، واخيرا شخصية البطل المزيف ٠

نموذج رقم (٧) : الشاطر محمد والديك والخواجة (١) :

كانت هناك اسرة تتكون من اب وام وابن يدعى الشاطر محمد ٠ ثم مات الاب تاركا ابنه وامه وحدهما ٠ وكان في البيت حجرة مغلقة حذرت الام ابنها من فتحها ، لان زوجها كان قد اودع لها فيها سرا ٠ ولكن الشاطر محمد تجاوز المحظور وفتح الحجرة ، فوجد فيها ديكا ، فأخذه وخرج ٠ وفي الطريق قابله « خواجة » (٢) ٠ ولما ابصر الخواجة الديك معه ادرك في الحال ان الديك ليس طبيعيا ٠ فأخذ يتحدث مع الشاطر محمد ليعرف منه من اين اتى بذلك الديك ٠ وفي النهاية طلب منه ان يبيعه اياه بتسعمائة جنيه ٠ وتعجب الشاطر محمد من هذا السعر الذي عرضه عليه الخواجة ٠ ولكن الخواجة ظن ان الشاطر محمد قد استقل الثمن فرفع السعر الى ألف جنيه ٠ عند ذاك باعه الشاطر محمد الديك ٠ ولكنه عاد وسار وراء الخواجة ليرى ما هو فاعل بالديك ٠ فوجد الخواجة قد دخل مطعما وأعطى الديك لصاحب المطعم ، وامره ان يشوي له الديك على شرط الا يرمي اي جزء منه ٠ ثم اخبر صاحب المطعم كذلك ، انه سيرسل خادمه ليأخذ منه الديك ٠ فلما رحل الخواجة ، انتظر الشاطر محمد بعض الوقت ، ثم ذهب الى

---

(١) هذه الحكاية مطابقة للنموذج رقم ٣٧ في مجلة التراث الشعبي ، العدد العاشر بغداد ١٩٧٢ ٠

(٢) الخواجة واليهودي يردان دائما في حكاياتنا ، وهما يمثلان الميل الى الاتجاه الواقعي في تشخيص الشخصية الشريرة :

صاحب المطعم وأخبره انه خادم الخواجة وانه يطلب الديك المشوي فأعطاه صاحب المطعم الديك ، وأخذ منه اجر شوائه · ولما شطر محمد الديك وجد بداخله خاتما · فلما مسحه ظهر له خادم هذا الخاتم ليحقق له اي مأرب · فطلب الشاطر محمد المال الوفير · واشترى ببعض هذا المال كلبا وقطة وفأرا · ثم ذهب بعد ذلك ليخطب ابنة الملك· ووافق الملك على ذلك على شرط ان يتمكن الشاطر محمد مرة اخرى بالخاتم السحري في هدم الجبل وبناء القصر · فزوجه الملك ابنتـــه وسلم الشاطر محمد الخاتم لابنة الملك وطلب منها ان تحفظه عندها ·

ولما علم الخواجة بعد ذلك بخديعة الشاطر محمد ، وانه تمكن من الزواج من ابنة الملك ، انتهز فرصة غياب محمد ، وراح يعرض على ابنة الملك خواتم رائعة من الماس والذهب · واختارت ابنة الملك خاتما من بين هذه الخواتم ، ولكن الخواجة رفض ان يبيعه اياه الا اذا سلمته الذي اودعه عندها الشاطر محمد · ولما كان هذا الخاتم السحري يبدو عاديا تماما ، فقد قدمته للخواجة وتسلمت الخاتم الآخر · ومـا كاد يخرج الخواجة من عندها ، حتى مسح الخاتم ، فظهر له خادمه · فطلب منه ان ينقل قصر ابنة الملك الى عرض البحر ، وان يعلق ابنة الملك من شعرها في بهو هذا القصر · فنفذ له الجني مطلبه · ولما وجد الملك ان القصر وابنته قد اختفيا معا ، تهدد الشاطر محمد بالقتل ان لم يرجع له ابنته·عند ذاك أبدت الحيوانات الطيبة استعدادها لاسترداد الخاتم السحري · فهرولت مسرعة حتى وصلت الى الخواجة الـذي كان جالسا في القصر الذي نقل الى عرض البحر · وهناك وجـــدت الحيوانات الخواجـــة يطل من النافذة وينظر الى الخاتم في سعادة بالغة · فأسرع الفأر واختطف منه الخاتم ، وجرى مسرعا ووراءه القط والكلب واخذ الكلب يلح على الفأر ان يعطيه الخاتم حتى يحتفظ به لسيده ، فلما سلمه الفأر اياه سقط الخاتم في البحر ، وابتلعته سمكة· وصادف ان اصطاد صياد هذه السمكة واسرع بها الى زوجته لكـــي تطهوها له ، فجرت الحيوانات في اثره وقبعت بجوار الزوجة وهـــي

تشق بطن السمكة · وما ان ابصر القط الخاتم ، حتى هجم على السمكة وانتزع الخاتم منها ، وجرى والحيوانات في اثره ، وسلمه الى الشاطر محمد · عند ذاك مسح الشاطر محمد الخاتم · ولما ظهر له الجنــي ، طلب منه ان ينقل القصر مرة اخرى الى جوار قصر الملك ، وان يعلق الخواجة على بوابته من رقبته ·

ثم تزوج الشاطر محمد ابنة الملك · واما الخواجة فقد امر الملك بقتله عند بداية القصر ·

التحليل المورفولوجي :

البداية الاستهلالية : الاسرة تتكون من الاب والام والابن ·

الوحدات الوظيفية :

١ : غياب احد افراد الاسرة وهو الاب الذي توفى ·

٢ : البطل يحذر من فتح الحجرة ·

٣ : فتح البطل الحجرة المحرمة ، وبذلك ارتكب المحظور · وكان نتيجة ذلك ان سلبته الشخصية الشريرة الديك ·

٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ : الشخصية الشريرة تقوم بمحاولة استطلاعية ، ثم تغري البطل بالمال ، وبذلك تحصل على ممتلكاته ·

٨ : الشخصية الشريرة تؤذي البطل باستيلائها على الديك ·

ثم تتكرر هذه الوحدات (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) مرة اخرى بطريقة عكسية عندما خدع الشاطر حسن الخواجة ·

١٤ : البطل يحصل على الوسيلة السحرية وهي الخاتم ·

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ : البطل يكلف بتبعة وهي ازالة الجبل وبنـــاء قصر شامخ مكانه في غمضة عين · البطل ينجح في ذلك ويعترف به ·

٢١ : الشخصية الشريرة تقتفي اثر البطل ، ويتكرر موضوع الخداع ·

٢٢ : نجاة البطل من الشخصية الشريرة بمساعدة الشخوص المساعدة مرة اخرى ·

٢٩ : البطل يبدو في مظهر جديد عندما يستعيد قصره ويعيد زوجته ·

٣٠ : معاقبة الشخصية الشريرة بالقتل ·

٣١ : البطل يتزوج ويعتلي العرش ·

*

وربما كانت هذه النماذج كافية لكي تؤكد لنا ان الحكاية الخرافية نمط قصصي له بناء تركيبي محدد · وقد اضطررنا الى ان نأتي بهذه النماذج السبعة على سبيلتأكيد هذه النظرية · ولكن هل نستطيع ان نضع حكاياتنا الخرافية في بناء تركيبي محدد ومتكامل ، على الرغم من ان الوحدات الوظيفية قد تبدو متفرقة فيها في غير نظام او ترتيب ؟ اننا نجيب عن هذا بالايجاب · وليس على القاريء سوى ان يعيد قراءة هذه الحكايات ويتابع منهج بنائها التركيبي ، فاذا فعل ذلك فانه سيجد بناءها ينتظم على الشكل التالي : الخروج ـ مقابلة البطل للشخصية المانحة ـ اداء المهمة في نجاح ـ مقابلة الشخوص الشريرة ـ الانتصار عليها ـ والزواج ·

ولا يستثنى من ذلك الا الحكاية رقم (٣) ، وهي حكاية البنت التي تزوجت كلبا ، اذ ان نهايتها تتمثل في حصول البطل ، وهو الاب ، على المال · ولكننا عندما نعلم ان ابنته كانت قد تزوجت من قبل ، فاننا نضمها بذلك الى سائر الحكايات التي يكون الزواج فيها عنصرا اساسيا ·

ومعنى هذا ان حكاياتنا في العموم تفترض ظهور القوة المانحة قبل ظهور القوة الشريرة ، فهل يمكننا ان نجد لذلك تفسيرا ؟ ربما · فلنتريث اذن الى ان نصل الى الباب الخاص بالتفسير في هذا الكتاب·

« الفصل الثاني »

حكاياتنا الشعبية في ضوء التحليل المورفولوجي

قبل ان نعرض للتغيير الذي حدث للنمط الخرافي ، وقبل ان نتساءل عما اذا كانت الانماط الجديدة تعد تطورا عن النمط الخرافي ، ام انها تعد في ذاتها خلقا جديدا ، نقدم النماذج التالية ، محاولين ان ندرس بناءها التركيبي حتى يدرك القارىء بنفسه ، باذىء ذي بدء ، الفرق بين الانماط الجديدة والانماط القديمة ٠

نموذج رقم (١) : « احنا دفنينه سوا » :

كان رجلان يعيشان في حالة من الفقر المدقع ، ولم يجدا وسيلة لدرء الفقر عنهما ٠ فهداهما تفكيرهما الى ان يذبحا حمارا ويدفناه ويشيدا عليه قبة ٠ ثم اشاعا بين الناس بعد ذلك ان هذا ضريح ولي من اولياء الله الصالحين ، ثم نصبا نفسيهما حارسين على ضريح هذا الولي ٠ ولما علم الناس ذلك ، تهافتوا على زيارة الضريح واخذوا يقدمون اليه النذور التي كان يجمعها الرجلان اولا بأول٠ وبهذه الوسيلة عاشا في حالة من الرضى فلما تجمع لديهما بعد ذلك قدر كبير من النذور شاءا ان يقتسماها ، ولكنهما اختلفا بعد ذلك على تقسيمها ، واخذ كل منهما يدعي للآخر انه يستحق النصيب الاكبر منها ٠ وفجأة رفع احدهما صوته واقسم بالشيخ ، انه على حق فيما يدعيه ٠ وتعجب الآخر من هذا القسم ، وقال له على الفور : « يا اخي ده احنا دفنينه سوا ! » ٠

التحليل البنائي للحكاية :

تتكون الحكاية من وحدتين اساسيتين · والوحدة الوظيفية الاولى هي التعبير عما يشعر به الرجلان من نقص في حياتهما ، واما الوحدة الثانية فهي تخلصها من هذا النقص · والنقص الذي تهدد حياة الرجلين هو الفقر ، ولكن الفرق كبير بين البطل الفقير في الحكاية الخرافية والبطل الفقير في الحكاية الشعبية ، او ـ كما يسميها البعض ـ حكاية الحياة اليومية · فبينما تتطور الوحدات الوظيفية في الحكاية الخرافية من لحظة الشعور بالحاجة ، عن طريق ظهـــور الشخوص الخيرة والشخوص الشريرة بحيث ينتصر البطل في نهاية الامر على الشخوص الشريرة بمعاونة الشخوص الخيرة ، نجد ان بطل الحكاية الشعبية واقعي ، فهو لا يقف ضعيف الحيلة في انتظار الشخوص الخيرة التي تقدم اليه العون ، بل هو يعمل عقله مستفيدا من تجارب الناس وسلوكهم في الحياة · وقد استغل الرجلان في هذه الحكاية نقطة ضعف فـــي الشعب العربي وهي ايمانه الاعمى بالاولياء ايا كان هؤلاء الاولياء · وقد كان من الممكن ان تنتهي الحكاية عند حد جمع النذور والاموال ، اي بتخليص البطلين من الفقر ، ولكن الحكاية لا تكون بذلك قد وصلت الى المغزى الذي تهدفه · فقد جعلت احد الرجلين ، في غفلة مما حدث ، يقسم بهذا الشيخ المزيف الذي صنعه بيده · وهذا يؤكد ان الرجلين ، وان وضعا ايديهما على عيب من عيوب المجتمع ، فانهما في النهاية ، او بالاحرى احدهما يمثل جانبا من بناء هذا الشعب الذي يحرص على تقديس الاولياء · هذا شيء ، والشيء الآخر يتمثل في عبارة الطرف الآخر التي قالها ردا على قسم الطرف الاول بالولي المزيف ، وهـــي : « احنا دفنينه سوا » · فهذه العبارة تشير الى ان الانسان في هذه البيئة ، قد يتغافل عن الحقيقة التي اسهم في صنعها ذات يوم ، وذلك اذا وجد ان مصلحته تدفعه الى اغفال هذه الحقيقة ·

ومن هنا ندرك ان هذه الحكاية لا تتكون من وحدتين وظيفيتين

فحسب وهما ابراز النقص او وجه من وجوه الاحتياج في حياة الفرد (١٨) والقضاء على ذلك (١٩) ، بل هي تضيف الى ذلك وحدة وظيفية اخرى هي الكشف عن عنصر من عناصر تكوين المجتمع، سلبيا كان ام ايجابيا . وهذه الوحدة الوظيفية الاخيرة لا تتوافر في الحكاية الخرافية على الاطلاق .

نموذج (٢) : الفقير والملاك :

احس رجل بالفقر وقد اوشك ان يقضي على حياته ، فخرج هائما على وجهه . ولما احس بالضيق لانه لم يعد يملك سوى ملابســه التي يرتديها رفع طاقيته عن رأسه ورمى بها بعيدا . ولكنه لشدة تعجبه ، وجد ان الطاقية تعود من تلقاء نفسها لتستقر على رأسه . فلما عاد ورماها مرة اخرى ، استقرت على رأسه مرة ثانية . وفي المرة الثالثة رمى بها بعيدا قدر المستطاع ، واذا بشخص مجهول يظهر امامه ويسأله عن السبب الذي يدفعه الى ان يرمي طاقية على هذا النحو . عند ذاك اجابه الرجل بان حالة الفقر قد وصلت به الى اقصاها ، وانه يود لو يتخلص مما تبقى له في هذه الحياة وهو ملابسه التي يرتديها . عند ذاك هدأ الرجل من روعه واخبره انه في وسعه ان يساعده في عمله فيكسب من ذلك بعض المال ، فهو يقوم بشفاء عاهات الناس ، ومن ذلك يكسب مالا وفيرا . فوافق الرجل الفقير على ذلك ، وسار بصحبة هذا الرجل المجهول . وكان اول من قابلهما رجلا اعمى ، فشفاه الرجــل المجهول وتسلم منه اجره . ثم شفي بعد ذلك رجلا كسيحا ، ورجلا مصابا بالبرص . ورجلا معتوها ، وهكذا ، وبذلك اصبح لديهما قدر كبير من المال . عند ذاك استوقف الرجل الفقير الرجل المجهول وقال له : « يكفينا اليوم هذا القدر من المال فتعال نقتسمه فوافقه الرجل على ذلك ، وجلسا معا ليقتسما المال . فكان الرجل المجهول يضع كل قدر اكتسبه من المال على حدة مع العاهة التي من اجلها تسلم هذا المال . وبهذا قسم المال الى اكوام ، كل كوم يضم العاهة وأجر شفائها . ثم

طلب من الرجل ان يختار نصيبه منها · عند ذاك هجم الرجل على النصيب الاكبر من المال ، وشرع في حمله ، تاركا العاهة الملازمة له · ولكن الرجل المجهول استوقفه وقال له : انك لا تستطيع ان تأخذ هذا القدر من المال ، الا اذا اخذت العاهة الملازمة له · فاختر لك احد امرين، اما ان تأخذ المال مع العاهة ، او ان لا تأخذ شيئا · » عند ذاك وقف الرجل ساكنا ، مجيلا الفكر في كلام الرجل ، واختار في النهاية الا يأخذ شيئا · وفي تلك اللحظة اختفى الرجل المجهول · اما الرجل الفقير فقد سار في طريقه لكي يبحث لنفسه عن عمل ·

التحليل المورفولوجي :

تبتدىء هذه الحكاية بالوظيفة رقم (١٨) وهي احساس البطل بنقص في حياته · ويلي ذلك خروج البطل (١١) ، ثم مقابلة الشخصية المساعدة التي اختبرته ثم عرضت عليه المساعدة (١٢ ، ١٣ ، ١٤) · ثم تتطور الحكاية بعد ذلك لمحاولة الوصول الى حل لمعالجة النقص في حياة البطل (١٩) ·

وقد يبدو في هذه الحكاية ان البطل لم يصل الى حل مشكلته من خلال نفسه ،كما فعل بطلا الحكاية الاولى ، بل ان الحل قد عرض عليه من الخارج · وهذا صحيح اذا نظرنا الى ظاهر الحكاية فحسب · ولكننا عندما نتعمقها ، نجد ان هذه الشخصية المجهولة ليست سوى الوجه الآخر للبطل الذي بدأ ، بعد تمرده ، يتدبر واقع الحياة التي يعيشها فادرك عند ذاك ان كسب العيش لا بد ان يصحبه الاحساس بالالم ·

وعلى كل فالفرق واضح بين الشخصية المانحة في الحكاية الخرافية والشخصية المانحة في الحكاية الشعبية ، ولو كانت هذه الحكاية من النمط الخرافي ، لمنحت هذه الشخصية بعينها البطل الوسيلة السحرية

التي يحصل بها على حاجته · ولكن الشخصية المانحة في هذه الحكاية، منحت البطل الحكمة التي يستطيع ان يستكشف بها الحياة المستغلقة على فهمه ، ولهذا فقد اختفت هذه الشخصية في اللحظة التي افاق فيها البطل ، وعلم ان افق الحياة ارحب بكثير من تصوره المحدود ·

نموذج رقم (٣) : السلطان الجبار :

كان هناك سلطان جبار يحكم بلدا من البلاد · ثم سولت لهذا السلطان نفسه ان يقتل كل رجل مسن في بلده حتى تخلو بلاده من هؤلاء المسنين الحكماء ، ولا يبقى بها سوى الشباب · ومن ثم فقد اصدر امرا بأن يقتل كل شاب اباه · وبناء على هذا الامر ، قتل كل شاب اباه ، عدا شابا واحدا لم يرض بقتل أبيه · ومن ثم فقد اخفاه حتى لا يراه احد·ولما اطمأن الملك الى خلو بلده من الشيوخ الحكماء جمع شباب بلده وارسلهم الى الجبل حيث كان يشغلهم هناك بحرث الارض الصلبة دون ان يقوموا بزراعتها ، وأخذ السلطان يكرر هذا الفعل كل يوم · وذات يوم سأل الاب ابنه عما يفعله مع غيره من الشباب ، فاجاب الابن بانهم لا يفعلون شيئا سوى شق الارض الصلبة · وعندما سمع الاب ذلك قال لابنه : « اذا جاء السلطان ليشرف عليكم ، عليك ان تصطنع انك تقذف في فمك طعاما دون ان يكون في يدك شيء · فاذا سألك السلطان عما تفعله ، فقل له ان ما نزرعه نأكل منه · ثم انتظر بعد ذلك رد السلطان · وفعل الشاب تماما كما اوصاه ابوه · فلما سأله الملك عما يفعله اجاب : « ان ما نزرعه نأكل منه » · عند ذاك اجابه السلطان قائلا : « ان هذا القول ليس قولك · بل هو قول رجل عجوز حكيم » · ثم امره على الفور ان يذهب ويحضر اباه · ولم يستطع الابن ان يعارض السلطان ، وذهب الى ابيه واصطحبه معه الى السلطان · وعندما مثل الاب امام السلطان سأله السلطان : « اين كنت وقت صدور القانون ؟ » فأجاب الرجل : « لقد كنت مسافر في مهمة ورجعت الى البلد بعد صدور القانون » · ثم سأله الملك :« وماذا كانت

هذه المهمة ؟ » فأجاب الرجل : « لقد كنت اشهد حفل زواج بنت البومة من الغراب ٠٠ لقد اختلفوا على المهر وطلبوا وساطتي في هذا الخلاف، فتوسطت وانتهى الامر بالزواج ٠ » فسأله الملك : « وعلام كان الخلاف؟» فرد الرجل قائلا : « لقد اشترطت البومة على الغراب ان يكون مهر ابنتها خمسين بلدا خرابا ٠ » فلما سمع الملك ذلك بادره متسائلا ٠ « وهل استطعتم ان تجدوا خمسين بلدا خربا ليقدمها الغراب مهرا لابنة البومة ؟ » فاجابه الرجل : نعم يا عظمة السلطان ، فان كل ارض يحكمها رجل ضعيف العقل لا بد ان تكون خربة ٠»

وافاق السلطان بعد ان سمع حكمة الرجل الكهل ، وراح يحكم البلاد بالعدل والحكمة ٠

التحليل المورفولوجي :

هذه الحكاية تتألف من وحدتين وظيفيتين فحسب ، هما : تهديد القوة الشريرة للبطل ٠ والبطل هنا يتمثل في شيوخ البلد وفي شبابها (٨) ثم انتصار البطل على القوة الشريرة (١٩) ٠ ومعنى هذا ان الحكاية الشعبية ، وان لم تستخدم وحدات وظيفية متنوعة ـ كما هو الحال في الحكاية الخرافية ـ نستطيع من خلال الوحدات الوظيفية القليلة التي تستخدمها ، ان تصل الى درجة كبيرة من التكامل الفني ومن تحقيق المغزى الانساني البعيد ٠ وسوف نتحدث عن هذا بشيء من الاسهاب عندما نعرض للقيم الفنية في الحكاية الشعبية ٠

كما اننا نلاحظ في هذه الحكاية مرة اخرى ان البطل لم يستعن بأية قوة سحرية في سبيل تحقيق غرضه ، بل استخدم عقله وحكمته فحسب٠وبهذا العقل وتلك الحكمة استطاع ان يضع الامور في نصابها٠

نموذج رقم (٤) : الاخوان :

ورث اخوان عن ابيهما قدرا من المال ، فاقتسماه بينهما مناصفة٠

ثم استطاع احدهما بحسن تدبيره ان يرعى ماله وان ينميه ، في حين ان الاخر اسرف في الانفاق حتى فقد ماله عن آخره · ولما اصبح الاخ الاخير فقيرا ، ولم يعدلديه مال ينفق منه ، سولت له نفسه ان يسطو على بيت اخيه ويسرقه في اثناء الليل · فلما جن الليل ، دخل مخزن غلال اخيه وهم بسرقة جوال من الدقيق · ولكنه فوجىء بشخص يرمقه ويهدده ان لم يترك الجوال · فلما سأله الاخ عمن يكون ، اجاب بأنه حظ اخيه ، وهو يقوم بحراسته وحراسة امواله ، عند ذاك سأله الاخ : « ولكن اين اجد حظي » ؟ فأجاب : « انه هناك ، ساكن في الجبل الشرقي ، فاذهب اليه واطلب منه ان يرعاك كما ارعى اخاك » · عند ذاك شكره الاخ ، واتخذ طريقه الى حظه · ولكن الطريق كان طويلا ، وكان لا بد له من ان يجتاز فيه الغابات ويصعد الجبال · وبينما كان سائرا في غابة ، ابصر اسدا قادما من بعيد ، فأسرع وتسلق شجرة ريثما يجد الاسد ما يفترسه ، وعندئذ لا يطمع في افتراسه · وبعد قليل اصطاد الاسد غزالة واسرع في التهامها · ولكنه ما كاد يفرغ من التهامها حتى نظر الى الاخ كأنما يترقب نزوله · عند ذاك شرح له الاخ مهمته ورجاه ان يتركه ليسعى الى حظه حتى يوقظه لانه غافل عنه · فاستجاب الاسد لتوسله ولكنه رجاه ان يسأل له حظه عن السبب الذي من اجله لا يشبع الاسد قط ، مهما التهم من فرائس · فوعده الشاب بان يلبي مطلبه ، وهبط من اعلى الشجرة ، ومضى في طريقه ·

ثم تقابل الاخ مع فلاح واخذ يتحدث معه ، واستضافه الفلاح واكرمه · ثم طلب منه ان يمكث معه ويعينه في فلاحة الارض ويأخذ اجره · ولكن الشاب اعتذر بانه ذاهب لايقاظ حظه · عند ذاك توسل اليه الفلاح ان يسأل حظه عن السبب في انه يبذل جهدا كبيرا في فلاحة الارض ومع ذلك فهي لا تثمر · فوعده الشاب ان يحقق مطلبه ، ثم ودعه ورحل ·

وصادف في طريقه قصرا فدخله،وطلب من اصحابه ان يستضيفوه

تلك الليلة · فاستضافه الملك واكرمه كل الاكرام ، وطلب منه في النهاية ان يبقى معه لمؤانسته · ولكنه اعتذر بأنه ذاهب في مهمة كبيرة وهي ايقاظ حظه ، عند ذاك طلب منه الملك ان يسأل حظه عن السبب في عدم رضاء الرعية عنه على الرغم مما يبذله من جهد في سبيل ارضائها · فوعده الشاب ان يفعل ذلك ثم اتخذ بعد ذلك طريقه الى الجبل الشرقي، وكان قد اصبح منه قاب قوسين او ادنى ·

وهناك في الجبل وجد حظه يغط في نوم عميق ، فأخذ يركله برجله حتى أيقظه · ثم اخذ يعتب عليه انه نام عنه ولم يعد يرعاه رعاية حظ اخيه اياه · ثم رجاه بعد ذلك ان يظل يقظا · فوعده حظه بأن يفعل ذلك فسعد الشاب بذلك وتأهب للعودة · ولكنه قبل ان يفعل ذلك تذكر الوعود التي وعد بها الشخوص التي قابلها · عند ذاك عرض على حظه اسئلة هذه الشخوص الحائرة لكي يجيب عنها · فقال له حظه : « قل للملك الا يخدع شعبه لانه في الحقيقة امرأة متنكرة في شكل رجل · والشعب يعلم ذلك وان لم يصارحه به خوفا من جبروته · وقل للفلاح ان يستخرج اولا الكنز الذي في ارضه ، وعند ذاك ستثمر ارضه · وقل للاسد ان يفترس رجلا فاسدا ، وبعد ذلك سيشعر بالشبع بعد الاكل ·

بهذه الكلمات ، وبوعد حظه اياه ان يظل يقظا ، عاد الشاب الى بلده · وفي طريقه ابلغ الملكة المتنكرة رد حظه عن سؤالها فوعدته الملكة ان تفعل ذلك وطلبت منه ان يبقى معها وان يتزوجها ويعينها على حكم شعبها · ولكنه اعتذر ، لان حظه كان قد استيقظ · ثم ابلغ الفلاح برد حظه عن تساؤله ، فطلب منه الفلاح ان يساعده في استخراج الكنز ثم يقتسمه معه · ولكنه اعتذر له كذلك بأن حظه كان قد استيقظ · وفي النهاية ابلغ الاسد سؤاله وقال له : « لا بد ان تلتهم رجلا فاسدا حتى تشعر بعد ذلك بالشبع بعد الاكل » · عند ذاك اجابه الاسد : « وهل يمكنني ان اجد من هو افسد منك » ؟ وهجم عليه وافترسه ·

التحليل المورفولوجي :

هذه الحكاية تتألف من ثلاث وحدات وظيفية رئيسية ٠٠ الوظيفة الاولى تتمثل في وجود الشر (٨) ، او لنقل انها تمثل النقص في الجانب الاخلاقي في حياة الشعب (٨ أ)٠ والوظيفة الثانية تتمثل في القضاء على القوة الشريرة او القضاء على النقص في العالم الاخلاقي٠ واما الوظيفة الثالثة فتتمثل في ظهور القوى المانحة التي عرضت على البطل الخير في اثناء عودته ، ولكنه رفض منحتها على امل ان حظه وقد استيقظ ـ سوف يساعده في تحقيق هدفه ٠ والواقع ان هذه الشخوص المانحة لم تظهر في الحكاية بقصد تقديم مساعدتها للبطل ، ولكنها لابراز وجوه اخرى من النقص في عالمنا الاخلاقي٠ ولكنها ما دامت عرضت مساعدتها على البطل ، فاننا نعدها الى حد ما قوى مانحة او مساعدة ٠

اما شخصية الحظ المجسدة ، فلا نستطيع ان نقول ان لها نظيرا بهذه الصورة في الحكايات الخرافية ذلك ان وظيفة هذه الشخصية ، ومثلها شخصية الملاك وشخصية الرجل الحكيم الكهل، اللتان صادفناهما في الحكايتين السابقتين ، هي وضع الامور في نصابها ، او الحسم فيما يعتري حياة الناس من مشكلات ٠ وقد كان البطل في الحكايات الخرافية يقوم بنفسه بهذه الوظيفة عندما يمسك بالشخصية الشريرة ويهوي عليها بسيفه ٠ اما في الحكايات الشعبية فالبطل اصبح في الغالب عاجزا عن ان يقضي على الشر بنفسه او على النقص الذي يحسه في حياته ، ومن ثم كان لا بد من ظهور شخصية مجهولة مجسدة ، بصورة او بأخرى ، لنصر البطل ، خيرا كان ام شريرا ، بالحقيقة ٠

وسنعود الى شرح وظيفة هذه الشخصية في الحكاية الشعبية فيما بعد ٠

نموذج رقم (٥) : من جاور السعيد يسعد :

رأى رجل في منامه من يقول له : « من جاور السعيد يسعد » ٠ فأخذ يجري (وهو ما زال يحلم) حتى وصل الى قصر ملك ٠ وهناك عند سور هذا القصر رأى رجلا يجلس وأمامه عدة صنابير تتدفق من كل منها اشياء غريبة ، فوقف وسأله عن هذه الصنابير ، فأجابه الرجل بانها صنابير الارزاق ٠ فلما سأله عن صنبوره اشار الى صنبور منها ٠ فطلب منه الرجل ان يفتحه له ٠ فلما فتحه تساقط الماء من الصنبور على هيئة قطرات ٠ عند ذاك احضر الرجل سلكا واخذ يسلك الصنبور ٠ولكنه فوجيء بان السلك ينقطع داخل الصنبور ويسده٠ في تلك اللحظة استيقظ الرجل من نومه مذعورا وخرج يهرول من بيته وهو يصرخ : « شفت بعيني ما حدش قال لي » ٠٠ واخذ يجري وهو يصرخ بعبارته هذه ، حتى وصل الى قصر ملك ٠ وكانت زوجة الملك تطل في هذه اللحظة من النافذة ، فظنت ان الرجل رآها وهي تخلع ملابسها ، فاستدعته ٠ فلما سأله الملك عن مغزى عبارته ، حكى له رؤياه ٠ عند ذاك هدأ الملك من روعه ، وفتح له خزينته وطلب منه ان يحمل منها الذهب والنقود كيفما شاء ٠ فأخذ الشاب يملأ صندوقا بالذهب والمال ، ثم شكر الملك واستعد للخروج٠ وبينما كان يهبط السلم وهو لا يكاد يصدق ما حدث ، انزلقت قدمه فوقع من اعلى الدرج ، وسقط ميتا وبجانبه الصندوق الممتلىء بالثروة ٠ عند ذاك اجتمع رجال القصر من حوله ليساعدوه على القيام ٠ ولكنهم وجدوه ميتا وقد كتب على جبهته : « نحن خلقناه ، ونحن رزقناه ، ونحن امتناه » ٠

التحليل المورفولوجي :

١ ـ البطل يشعر بتهديد القوة الغيبية له متمثلة في تلك الرؤيا (٨) ٠ البطل يخرج من بيته طالبا العون (١١) ٠ مقابلة البطل للقوة المانحة متمثلة في الملك ٠ ولكن على الرغم من محاولة القوة المانحة

القضاء على الشر فان الشر قد تحقق في النهاية · ومعنى هذا ان الحكاية الشعبية تختلف باديء ذي بدء عن الحكاية الخرافية ، في انها قد لا تنتهي بالقضاء على الشر بل تنتهي بتأكيد عنصر الشر في حياة الانسان ، اي بتأكيد مأساة الانسان · اما القوة الخفية التي تتمثل وظيفتها في الحكاية الشعبية في تبصير الانسان بالحقيقة ، فهي تلك القوة التي تركت عبارة : « نحن خلقناه ، ونحن رزقناه ، ونحن امتناه » محفورة على جبين الرجل · وهي تساوي في وظيفتها شخصية الحظ المجسدة ، وشخصية الملاك ، ولكنها لم تجسد على نحو ما جسدت الشخصيتان الاخريان ، لانها تمثل قوة الله عز وجل ·

نموذج رقم (٦) : الجمجمة (١) :

كان رجل يسير يوما ، فأبصر جمجمة قد حفرت على جبهتها كلمات فلما رفع الجمجمة وجد مكتوبا عليها : « قتلت اربعين شخصا في حياتي وسأقتل اربعين شخصا بعد مماتي » · فذعر الرجل عندما قرأ هذه الكلمات · فحمل الجمجمة الى بيته وصاح بابنته وطلب منها ان تحرق الجمجمة ثم تسحقها سحقا جيدا ثم تعطي اباها هذا المسحوق ·

اخذت الابنة الجمجمة ، وفعلت كما امرها ابوها · وبينما كانت تسحقها ، شاءت ان تختبر المسحوق لترى ما اذا كان قد اصبح ناعما كالدقيق ، فوضعت قدرا ضئيلا منه على طرف لسانها لتتذوقه · فلما

---

(١) هناك روايتان لهذه الحكاية ، احداهما مصرية والاخرى سودانية وقد عرضنا الرواية السودانية لانها في نظرنا اكثر استكمالا من الرواية المصرية · انظر : الدكتور مراد كامل : قصص سودانية ص ٣٥ · القاهرة ١٩٦٣ ·

اطمأنت الى نعومته ، قدمت المسحوق لابيها فذراه في الهواء في كل مكان ، وبذلك اطمأن الى ابطال مفعول تلك الجمجمة ·

وبعد وقت ظهرت على الابنة امارات الحمل ، وذعر الاب ، وعرض ابنته على الاطباء الذين قطعوا بأن البنت بكر · عند ذلك استسلم الرجل لمصير الابنة وانتظر حتى ولدت طفلها وكان ولدا ·

واحتضن الجد حفيده واحبه كل الحب ، بخاصة وانه رأى عليه امارات الرجولة · وقد كان الجد يعد من حكماء بلده ، ومن ثم فقد كان الملك يستشيره في بعض اموره · وقد اتاح ذلك فرصة للحفيد لان يتردد على القصر ·

وذات يوم دخل الحفيد حديقة القصر في المساء ، فأبصر نورا يسطع من حجرة تطل على حديقة القصر · فدفعه الفضول لان ينظر من نافذة هذه الحجرة ، واذ به يرى زوجة الملك تضع رأسها في حجر رجل ، وقد اخذ يداعبها وتداعبه · عند ذاك تسلل الصبي من حديقة القصر وكتم هذا السر في نفسه ·

وفي يوم من الايام استدعى الملك حكماء بلده ليفسروا له رؤيا ازعجته وهددهم جميعا بالقتل ان لم يقدموا اليه تفسيرا لهذه الرؤيا · لقد رأى ان غرابا حط في حديقة قصره ، وهناك وجد بطيخة مشقوقة الى نصفين فاخذ ينهشها ·

ولم يستطع احد من حكماء البلد ان يجد تفسيرا لهذه الرؤيا · وشعر جميعهم ان مصيرهم القتل · ولما كان الجد من بين هؤلاء الحكماء فقد جلس مهموما في بيته يجيل الفكر في هذه الرؤيا الغريبة · عند ذاك اقترب منه الحفيد وسأله عن سبب همه ، فحكى له رؤيا الملك واخبره بان الملك يتهدده بالقتل ان لم يصل الى تفسير لهذه الرؤيا فى خلال ثلاثة ايام · عند ذاك اخبر الحفيد الجد بأنه في وسعه ان يفسر

هذه الرؤيا ، ولكنه لن يفعل ذلك الا امام الملك ٠ عند ذاك اسرع الجد الى الملك وأخبره بأن حفيده سوف يفسر له هذه الرؤيا٠ وسخر الملك من ذلك ولكنه شاء ان يجرب ٠

وعندما وصل الحفيد الى القصر طلب من الملك ان يخلو بـــه وبزوجته ووصيفتها المختصة برعاياة شؤونها ٠ فاستدعى الملك زوجته ووصيفتها ، واجتمعوا بالابن في حجرة مغلقة ٠ عند ذاك أخرج الابن من جيبه ورقة ، واخذ يبحث في جيوبه عن مقص ٠ ثم اوهم الملك بانه كان في جيبه مقص ولكنه لا يجده ، وطلب منه ان يفتشهم جميعا بحثا عن المقص وكاد الملك يثور في وجههه ، ولكن الابن اصر على ان يبحث عن المقص اولا ، لان هذا سيعينه على تفسير الرؤيـــا ٠ فوافق الملك راضخا ٠ وبحث الصبي عن المقص في ملابس الملك ثم فتش عنه مـــع الملكة ، واخيرا طلب من الوصيفة ان تخلع ملابسها ٠ وهنا ذعرت الملكة واخذت تنهره وطلبت من الملك ان يطرده ٠ ولكن الملك تريث وطلب من الوصيفة ان تخلع ملابسها ٠ ولما فعلت الوصيفة ذلك تبين للملك انها رجل وليست امرأة ٠

عند ذاك قال الصبي للملك : « هذا هو الغراب الذي كان ينهش البطيخة في حديقة قصرك » ٠ وجمع الملك في الحال حراس القصـــر الذين كانوا يعلمون بالامر ويخفونه عنه ، وكان عددهم بالاضافة الى الحارس المتنكر في شكل وصيفة تسعة وثلاثين حارسا ٠ فأمر بقتلهـــم جميعا بالاضافة الى الملكة ، وبذلك بلغ عدد القتلى أربعين قتيلا ٠ وبهذا تحققت نبوءة الجمجمة ٠

التحليل المورفولوجي :

ظهور القوة الشريرة في حياة البطل (٨) ومحاولة البطل القضاء عليها (١٩) ، ولكنه لم يتمكن من ذلك حيث ان البنت قد حملت مـــن

مسحوق هذه الجمجمة بمجرد ان تذوقته ، وبذلك انجبت ابنا يعد من سلالة صاحب هـذه الجمجمة · اي ان الوظائف الاسـاسية فـي هذه الحكاية تتمثل في اكتشاف الشر ومحاولة القضاء عليه · ولكنه تبين فيما بعد ان الشر لا يتمثل في الواقع في هذه الجمجمة وانما يتمثل في خطر آخر · وهنا زحزحت الحكاية موضوع الشر الى مجال اخر هو مجال قصر الملك · واصبح على الملك وهو البطل الجديد ان يكتشف الشـر الذي يتهدد مملكته · وفي هذه اللحظة يتبيـن ان الجمجمة في الحقيقة ليست هي موضوع الشر ، بل انها تمثل القوة الغيبية التي تعين على اكتشاف الحقيقة · ولقد ساعدت على ذلك وقضي على الشر(١٩)·

ولعلنا نرى مرة اخرى كيف تستغل الحكاية الشعبية الوحدات الوظيفية القليلة في تكوين بناء فني قصصي متكامل ·

نموذج رقم (٧) : السعد والبركة (١):

اختلف السعد والبركة ذات يوم ، كل منهما يدعي انه انفع للانسان من الآخر · فادعى السعد انه اكثر نفعا من البركة ، لانه هو الذي يمنح الانسان الخير والمال · وردت البركة عليه قائلة بانه لن تكون لافعـال السعد قيمة ما لم تتمثل البركة فيما يمنحه السعد للانسان من عطاء · ولما لم يصلا الى اتفاق فقد قررا ان يقوم كل منهما باسداء ما لديـه للانسان ، حتى تكون التجربة العملية هي الحاسمة في هذا النزاع ·

....

(١) انظر رواية اخـرى لهذه الحكاية في مجلة « التراث الشعبي » العراقية (العدد العاشر ١٩٧٢) ص ٩٠ ·
وانظر كذلك حكاية السعد والعقل في مجموعة « قصص سودانية» ص ٢٨ ·

وذهب السعد الى فلاح فقير ومنحه مائة جنيه ، فسعد بها الفلاح، واسرع واخفاها في جرة وسكب فوقها دقيقا ، ثم اخذ الجرة وذهب بها الى زوجته لكي تحفظها عندها ، ولم يخبرها بما فيها · ثـم ترك زوجته وانصرف الى عمله · وبعد وقت طرقت باب الزوجة امرأة تطالب بعض الدقيق وفي الحال قدمت الزوجة الجرة للمرأة ، واخبرتها ان تأخذمنها ما يكفيها فلما عاد الزوج ووجد ان ماله قد فقد ، صرخ في وجه زوجته وعنفها على اهمالها النصيحة · ولما لم يجد جدوى من وراء هذا الغضب ذهب الى حقله ليستأنف عمله · وهناك جاءه السعد وقدم اليه مائة جنيه مرة اخرى · وعند ذاك وضعها الفلاح بحرص في منديله ووضع المنديل بجانبه · وفي لحظة حطت حدأة واختطفت المنديـــل وطارت بعيدا ، والفلاح ينظر اليها في حسرة وألم · ولكن السعـــد لم يتركه ، فقد جاءه مرة ثالثة ومنحه مائة جنيه اخرى · وفي هذه المرة وضعها الفلاح في صدره في حرص · ولكنه بينما كان يملأ وعاء من النهر ، سقطت المائة جنيه والتقتطتها في الحال سمكة كبيرة وابتلعتها· عند ذاك ادرك الرجل انه ليس له نصيب في هذه النقود ما دامت تضيع منه بهذه السهولة · اما السعد فلم يحاول ان يجرب التجربة مرة اخرى ·

وجاءت البركة الى السعد ساخرة منه وقالت له : « ألم أقل لك انه بدون البركة لا يمكن ان تكون لافعالك قيمة ؟ » · وعند ذاك تقدمت البركة من الفلاح واعطته بضعة قروش ، فذهب الفلاح واشترى بهـــا سمكة فلما شق السمكة عثر على المائة جنيه التي كانت هذه السمكة بعينها قد ابتلعتها ، ففرح كل الفرح · ثم خرج ليحضر حطبا يشوي به السمكة وتسلق شجرة ليقطع بعض فروعها · وهناك وجد منديله بعينه · فلما فتحه وجد المائة جنيه الثانية ، فأخذها وهبط من أعلى الشجرة وقد تضاعفت سعادته · وبعد وقت جاءت المرأة التي كانت قد اخذت جرة الدقيق · وكانت المائة جنيه ما تزال في قاع الجرة · وبهذا استرد الرجل كل نقوده بفضل البركة ·

التحليل المورفولوجي :

لا يتمثل الصراع في هذه الحكاية بين قوة شريرة وقوة خيرة ، بل هو بالاحرى صراع بين قوتين خيرتين ، اختلفتا في ايهما اقدر على تحقيق الخير للانسان · وقد تبين في النهاية انهما معا لا غنى للانسان عنهما ان قدر له ان يعيش حياة رغدة ·

والواقع ان وظيفتي الحكاية الرئيسيتين تتمثلان في الشعور بالنقص (٨ أ) وفي القضاء على النقص (١٩) ، اذ ان الفلاح اغتنى بعد فقر ·

والى هنا نكتفي بهذه النماذج التي تطلع القاريء على الفرق الجوهري بين الوحدات الوظيفية في الحكاية الخرافية والوحدات الوظيفية في الحكاية الشعبية · حقا ان الحكاية الشعبية قد استعانت بالوحدتين الرئيسيتين للحكاية الخرافية وهما الاحساس بشر او بنقص والقضاء عليهما · ولكنها كما رأينا، قد استغنت عن الكثير من وظائفها، كما انها خلقت شخصية لا تعرفها الحكاية الخرافية ، وهي الشخصية التي كثيرا ما تبدو في شكل مجهول ، والتي يوكل اليها مهمة الكشف عن الحقيقة ·

على ان هذه النماذج التي قدمناها تمثل في الحقيقة مرحلة تجريدية متطورة للقصص الشعبي · وقد يبدو للقاريء لاول وهلة انها لا تمت الى النمط الخرافي بصلة · على ان التحليل المورفولوجي قد اطلعنا على انها ما تزال قريبة منه · فنحن اذا جردنا الحكاية الخرافية من كل شخوصها ووظائفها وجدنا انها تهدف الى تصوير الشر ثم القضاء عليه وهذا هو الهدف بعينه الذي تهدف اليه الحكايات الشعبية، سواء انتهت الحكاية بالقضاء على الشر ام لا · ولكنه هناك ، على اي حال محاولة فيها للقضاء على هذا الشر ·

غير ان هناك انماطا اخرى من حكايات الحياة اليومية تحتفظ الى حد كبير بالوحدات الرئيسية للحكايات الخرافية · ومع ذلك فنحن لا ندرجها ضمن الحكايات الخرافية ، لسبب سنشير اليه فيما بعد ، والى جانب هذا ، فان الحكاية الخرافية نفسها قد تروى بشيء من التحوير لتحويلها ، بقصد او بغير قصد ، الى النمط الواقعي ·

اما النوع الذي كان ، وما زال ، محتفظا بالوحدات الاساسية للحكاية الخرافية ، والذي لا يندرج مع ذلك تحت صنفها ، فهو الذي يتمثل في حكايات المعتقدات ، وبصفة خاصة حكايات الاولياء · وها هو ذا مثال يشير الى ذلك ·

اعتاد رجل ان يزور السيد البدوي مرة في كل عام ، وان يودع في صندوق النذور مائة جنيه ، وقد وفى الرجل نذره على هذا النحو طيلة عشر سنوات · فلما حل ميعاد الوفاء بالنذر بعد ذلك ، لم يجد لديه ما يدفعه وفاء بالنذر ، لان تجارته في ذلك العام كانت قد خسرت · فجلس الرجل حائرا يبحث عن وسيلة يوفي بها النذر ·

وكانت زوجة هذا الرجل تعشق قصابا يسكن بجوارهما ، وكانت تود لو تخلصت من زوجها حتى تتزوج بهذا القصاب · فلما وجدت زوجها حريصا على الوفاء بالنذر ، اتفقت مع القصاب على ان يقرضه المبلغ المطلوب ويشترط عليه ان يرده في خلال اسبوع ، والا طلق زوجته ووافقها القصاب على اقتراحها ، ثم انها ذهبت الى زوجها واقترحت عليه ان يذهب الى جاره القصاب ويطلب منه المبلغ الذي يحتاج اليه ، فهو رجل طيب ، ولا بد انه سيقرضه ذلك المبلغ · وسعد الرجل بهذا الاقتراح ، وذهب الى القصاب يطلب منه المائة جنيه · وفوجيء بأن القصاب يشترط عليه ان يرد هذا المبلغ في خلال اسبوع والا فعليه ان يطلق زوجته · ولكنه امام رغبته الملحة في الوفاء بالنذر ، وافقه على شرطه ، واخذ المبلغ وانصرف ، ولم يذكر لزوجته شيئا مما حدث ، وفي اليوم التالي رحل الرجل الى السيد البدوي حيث قضى الوقت مصليا

بالقرب من ضريحه • وفي الليل استلقى بجوار الضريح وراح في نوم عميق • ثم رأى في نومه ان ثلاثة من اولياء الله يقفون بجواره ويقول احدهم للآخر : ان هذا الرجل صادق وطيب ، وقد وفى بنذره عشر سنوات متتالية فضلا عن هذه المرة • ولهذا ينبغي ان نرد اليه الالف جنيه ، وكذلك المائة جنيه التي دفعها بالامس • فلما استيقظ الرجل ، احس بان جيبه ممتلىء • فلما وضع يده فيه اخرج الالف جنيه ثم اخرج المائة جنيه ، وكانت قد وضعت منفصلة عن الالف جنيه • فتوضأ الرجل وصلى ، وحمد الله ، ورحل •

وفي اثناء الطريق ، وبينما كان الرجل يعبر مجرى مائيا ، سمع صوتا يقول له : « ان زوجتك خائنة لانها على علاقة مريبة بالقصاب ، فاذا وصلت بيتك فطلقها • ولتعلم ان المائة جنيه التي اقرضك اياها القصاب مزيفة ، فردها اليه بعينها » • ثم اختفى الصوت واستأنف الرجل سيره •

وعندما وصل الرجل الى بيته ، ذهب مباشرة الى القصاب ، ورد اليه نقوده بعينها ، وتعجب القصاب من ان الرجل استطاع ان يرد دينه قبل الميعاد المحدد • ثم كان تعجبه اكثر من ذلك عندما وقع بصره على المائة جنيه ، فوجدها هي بعينها الورقة المزيفة التي كان قد اقرضها الرجل •

وبعد ذلك عاد الرجل الى بيته وصارح زوجته بالحقيقة وطلقها • فلما ذهبت الزوجة الى القصاب لكي يتزوجها ، رفض القصاب وتركها لحالها •

فمن الواضح ان هذه الحكايـــة قد استخدمت معظم الوحدات الوظيفية التي تستخدمها الحكاية الخرافية • فقد بدأت بتهديد القـوة الشريرة للبطل (٨) ، ثم اتبعت ذلك بخروجه مغامرا (١١) ، ثم بظهور القوة المانحة التي قدمت له الوسيلة السحرية التي يقهر بها عدوه ،

وهي النقود (١٣) ، ثم بظهور القوة المساعدة التي بصرته بالحقيقة وهدته الى الطريق السليم (١٢) ، ثم برجوعه الى البيت (٢٠) ، ثم بتخلصه من القوة الشريرة (١٩) · وتعود بعد ذلك لنتساءل : لماذا اذن لا تعد هذه الحكاية من النمط الخرافي ، ولماذا لا ندرجها ضمن حكايات الحياة اليومية · ونحن نرد على ذلك بان هذه الحكاية تمثل معتقدا شعبيا حيا ، وهو الاعتقاد في الاولياء · وقد يرد على هذا بان الاعتقاد في الاولياء شيء والحكايات الشعبية التي تحكى عن هذا الاعتقاد شيء آخر· فمن المؤكد ان التجربة التي حدثت في هذه الحكاية، لا يمكن ان تحدث في الحياة الواقعية · وهذا صحيح ، ولكن ما يحكيه الناس من معجزات الاولياء الذين يؤمنون بهم ايمانا اعمى ، لا تقل غرابة عن هذه التجربة ·

لقد حكى لي احد الرجال ، وهو على قدر من الثقافة ، انه كان يسير ليلا وحده بسيارته في الطريق الزراعي من الاسكندرية الى القاهرة · وفجأة تعطلت سيارته في الطريق ، ووقف حائرا ، اذ لم يجد في هذا الوقت المتأخر من الليل من يساعده على اصلاحها · وكان هذا الرجل مغرما بزيارة السيد البدوي ، فاخذ يقرأ له الفاتحة حتى يعينه في مأزقه وفي الحال ظهرت له سيارة ، وتوقفت عنده ، وخرج منها سائقها ، واخذ يعينه على اصلاح سيارته · وبعد ان تم اصلاح السيارة ، شكر الرجل للرجل الغريب فضله ، واستعد الاثنان للرحيل· ثم حكى الرجل بعد ذلك فقال ، ان هذه السيارة ظلت على مرأى منه دائما ، اذ انها لم تكن بحالة جيدة ، ولكنها اختفت فجأة من امامه ولم يعد لها اي اثر ، على الرغم من انها كانت قريبة منه منذ لحظات · حكى الرجل هذه الحكاية مؤكدا ان هذه الشخصية التي برزت له لم تكن سوى رسول من العالم المجهول ، ظهر له بسبب بركة الاولياء في اللحظة التي كان يحتاج فيها حقا الى المساعدة ·

وحكى لي شخص آخر ، وهو عمدة قرية « فرسيس » من ضواحي

« بنها » ، ان ابنته كانت مريضة للغاية ، فنذر ، ان هي شفيت ، ان يشتري لولي من اولياء الله يقع ضريحه في بلده ، كسوة خضراء ٠ وشفيت الابنة ، فاشترى الرجل الكسوة واحضرها الى بيته ٠ ولكن زوجته عنفته على شراء مثل هذه الكسوة الغالية الثمن ، وقررت ان تحتفظ بها ، وطلبت منه ان يشتري كسوة اخرى ارخص منها ٠ وامتثل الرجل لطلب زوجته وذهب واشترى كسوة رخيصة الثمن ٠ وفي الليل رأى في منامه ان جملا اقترب من نافذة حجرته ، ودفع برأسه زجاج النافذة حتى فتحها ٠ ثم اخذ يدير رأسه في الحجرة كأنما يبحث عن شيء ٠ فلما ابصر الكسوة الغالية قبض عليها بأسنانه وولى ٠ فلما استيقظ الرجل ، فسر هذه الرؤيا بأن الشيخ قد تجسد في الرؤيا في شكل جمل ، وانه جاءه ليأخذ كسوته بنفسه ما دام الرجل قد رفض ان يعطيه اياها ٠

هذه الحكايات اتينا بها لنؤكد عقيدة الشعب في الاولياء ، وما يروونه من حكايات غريبة حول هذه العقيدة ٠ وقياسا على ذلك فان حكاية السيد البدوي تندرج تحت حكايات الحياة اليومية ٠ فاذا اضفنا الى ذلك ان الحكاية حاولت ان تستخدم اسلوبا اقرب ما يكون الى الواقع ، بأن جعلت الشخوص المانحة تظهر للرجل في الرؤيا ، ولا يراها حقا ، واذا اضفنا الى ذلك كذلك ، ان الحكاية تحكي عن مشكلة من مشكلات الحياة اليومية ، وهي مشكلة اخلاقية ، فان ذلك يضيف مزيدا من التأكيد لكونها تندرج تحت صنف حكايات الحياة اليومية ، وليس تحت صنف الحكايات الخرافية ٠

فاذا تساءلنا بعد كل هذا ، لماذا حرصت هذه الحكاية على استخدام الوحدات الوظيفية الاساسية المتعددةالتي تستخدمها الحكايات الخرافية بل على ابراز معظم شخوصها ، فاننا نرد على ذلك بأن طبيعة الحكاية تحتمل ذلك ، في حين ان الحكايات التي قبلها لا تحتمل اكثر من تلك الوظائف المحدودة التي استعانت بها ٠

وننتقل بعد ذلك الى تقديم نموذج خرافي تعمد الراوي ان يحدث في نهايته تغييرا ، لكي يضفي على الحكاية لونا واقعيا ، وقد يبدو هذا التغيير طفيفا لاول وهلة ، ولكنه كبير المغزى في الوقت نفسه · اما النموذج الخرافي الاصلي لهذه الحكاية ، فيحكى على النحو التالي :

وجد خياط فقير في دكانه ذات يوم عصا وقطعة من الحجر وضفدعة فأخذ هذه الاشياء الى بيته لعلها تجلب له الحظ · وعندما كان يعود الى بيته بعد ذلك ، كان يجد كل شيء نظيفا ، كما كان يجد الطعام معدا له ، فتأكد الرجل من ان الضفدعة لا بد ان تكون انسانا مسحورا · عند ذاك صاح بها قائلا : « اظهر وبان وعليك الامان » · وفي الحال تحولت الضفدعة الى امرأة رائعة الجمال ، فعاش الرجل معها في سعادة وهناءة ·

وذات يوم ابصر الملك زوجة الخياط وطمع فيها · فلما صارح وزيره بذلك الامر ، وابدى له رغبته في الزواج منها ، اقترح عليه الوزير ان يستدعي الخياط وان يكلفه القيام بمهام عسيرة التحقيق ، فان هو لم يتمكن من تحقيقها ، وهو لا محالة عاجز عن تحقيقها ، اخذ منه امرأته ·

فاستدعى الملك الخياط في قصره واعطاه قطعة صغيرة من القماش وطلب منه ان يصنع منها اربعين بدلة لرجال قصره في ليلة واحدة ، والا اخذ منه امرأته · واخذ الخياط قطعة القماش وعاد الى بيته حزينا لا يدري ماذا يفعل · عند ذاك جاءت زوجته لمساعدته فطلبت من العصا والحجر ان يحضرا في لحظة آلة الخياطة السحرية · وفي الحال ظهرت لهما آلة الخياطة التي انجزت له العمل في بضع ساعات · فلما اخذ الثياب وذهب الى الملك في اليوم التالي ، تعجب الملك ، ولكنه طلب منه ان يصنع له فطيرة في خلال ساعة تكفي اسرته وجميع رجال القصر · واستطاع الخياط كذلك بمعونة الادوات السحرية ان يحقق هذه المعجزة كذلك · واخيرا طلب منه الملك ان يحضر له طفلا رضيعا يحكي له حكاية

كلها كذب • فاحضرت الادوات السحرية الطفل الرضيع المعجزة للخياط، فأخذه الخياط وذهب به الى الملك الذي كان قد جمع كـل رجال القصر ليستمعوا الى الطفل الرضيع الذي يتكلم • وما كاد الطفل الرضيع يجلس امام الملك ، حتى حياه قائلا : « سلام عليكم يا جلالة الملك » • فرد الملك التحية وامره ان يحكي له الحكاية الكاذبة • فقال : « كنت ذات يوم اسير في عرض البحر في مركب ومعي اربعون جوالا ممتلئة بالسمسم • ثم هاج البحر وانقلب المركب بما فيه من أجولة • فاخذت اشرب من ماء البحر حتى جف البحر، واستطعت بذلك ان انقذ الاجولة، عدا جوالا واحدا كان قد تبعثر منه السمسم • فأخذت ابحث عن هذه الحبة حتى وجدتها ، فأغلقت الجوال وعدت وتقيأت الماء فامتلأ البحر ، فأبحرت في سلام » •

ولما سمع الملك وحاشيته هذه الحكاية صفقوا للطفل ، وعفا الملك عن الخياط وترك له زوجته •

هذه الحكاية سمعتها مرة أخرى (١) تروى بكل احداثها ، عدا تغييرا اعترى نهايتها • فعندما حكى الطفل الرضيع الحكاية على هذا النحو للملك ، ووصل الى نهايتها حيث كان يبحث عن حبة السمسم المفقودة ، قاطعه الملك قائلا : « ولماذا لم تترك حبة السمسم وتقفل الجوال وترحل ، وهل لحبة السمسم هذه القيمة التي تدفعك للبحث عنها ؟ » • عند ذاك رد عليه الطفل الرضيع قائلا : « ولماذا لا تترك انت الزوجة لزوجها ، وعندك من النساء الكثير ؟ » •

عند ذاك ادرك الملك خطأه واعرض عن فكرة الزواج بأمرأة الخياط •

وقد يبدو هذا التغيير طفيفا ، كما سبق ان ذكرنا ، ولكنه كفيل

---

(١) انظر « التراث الشعبي في محافظة البحيرة » فصل الحكايات الشعبية (جامعة القاهرة) •

بأن ينبه السامع الى ان هذه الحكاية لم تكن من اولها حتى نهايتها سوى ضرب من الخيال الذي استغل للوصول الى هذه النتيجة الواقعية .

وهناك حكاية اخرى تحكي عن ابن السلطان الذي كان ينتظر كل يوم على باب قصره بنت الفوال ، وهي ذاهبة الى المدرسة ، ويبادرها التحية والسؤال قائلا : « صباح الخير يا بنت الفوال ، فول ابوك طاب»؟ فترد عليه قائلة : « طاب طاب ، وأكلوا منه الاهل والاحباب ، وايش وصلك لنا يا فردة قبقاب » . فاغتاظ ابن السلطان ، وذهب الى مدرسة البنت واتفق معها على ان تدعو البنت لتبيت عندها ليلة بدعوى ان تساعدها في حياكة ملابسها ، وهناك يستطيع ان يفعل معها خدعة . فباتت البنت عند مدرستها ، وتسلل ابن السلطان بالليل ونام بجانبها وقبلها . فأفاقت البنت وكأنها تحلم ، وصاحت بمدرستها : « هنا كابوس ، يحضن ويبوس يا معلمتي » فهدأتها المدرسة ، وعادت البنت للنوم بعد ان تسلل ابن السلطان وخرج من عندها .

وفي صباح اليوم التالي كان ابن السلطان ينتظرها كالعادة ، وبادرها بالتحية والسؤال : « صباح الخير يا بنت الفوال ، فول ابوك طاب » فلما ردت عليه بجوابها المألوف :« طاب طاب ، وأكلوا منه الاهل والاحباب وايش وصلك لنا يا فردة قبقاب » ، رد عليها ابن السلطان قائلا : « هنا كابوس يحضن ويبوس يا معلمتي » . عند ذاك علمت البنت ان الخدعة قد جازت عليها . فتنكرت في اليوم التالي في شكل شبح مرعب وطرقت باب السلطان في الليل . فلما فتح ابن السلطان الباب وفزع لرؤية هذا المنظر اسرعت وخطفت منه ساعته . وفي صباح اليوم التالي انتظرها ابن السلطان كالعادة . ولما حياها وبادرها بسؤاله لوحت له بساعته ، فعلم بخدعتها .

وبعد ذلك ارسل ابن السلطان في طلب والد البنت . وامره ان يحضر اليه في اليوم التالي راكبا ماشيا والا قطع رقبته . فذعر الاب وعاد الى ابنته يسألها المساعدة . فاحضرت له الابنة جحشا وليدا

ليركبه . فلما فعل ، تدلت رجلاه الى الارض ، واصبح على هذا النحو راكبا ماشيا . وعلى هذا النحو ذهب الى ابن السلطان . فامره هذا ان يحضر اليه في اليوم التالي لابسا عاريا . ولم تستعص هذه المهمة على البنت التي احضرت له شبكة صياد وامرته ان يخلع ملابسه وان يرتدي الشبكة ، فاصبح بذلك لابسا عاريا . فلما رأى ابن السلطان ان الرجل حقق المهمة الثانية بنجاح ، امره في المرة الثالثة ان يحضر ابنته اليه في اليوم التالي بشرط ان تكون حاملا في تسعة اشهر . فلما ذهب الى ابنته واخبرها بذلك ، امرته ان يذهب الى ابن السلطان وان يقول له : « هي الخصة بتطلع من صخر » ؟ . فلما ذهب الرجل واعاد على ابن السلطان عبارة ابنته ، قال له : « هذه ليست كلماتك بل كلمات ابنتك ، انني اريد ان اتزوج ابنتك » . ووافقت الابنة على ذلك ولكنها خافت ان يقتلها ابن السلطان . ولهذا فقد طلبت من بائع الحلوى ان يصنع لها عروسة مجوفة في حجمها وان يزينها كما تزين العروس ليلة زفافها . ثم دخلت في جوف هذه العروسة وحملها ابوها الى بيت زوجها . وهناك في حجرة النوم اختفت الابنة تحت السرير بعد ان ربطت خيوطا في العروسة وأمسكت بهذه الخيوط . ثم جلست تنتظر ماذا يفعل ابن السلطان . وفجأة دخل ابن السلطان الحجرة وفي يده سيف يهدد به العروس ويذكرها بحيلها معه . فكانت العروسة في كل مرة تهز رأسها ولا تجيب . عند ذاك اغتاظ ابن السلطان وهوى على العروسة بالسيف، فانكسرت . وفي الحال قفزت قطعة من الحلوى في فمه .فامتصها وهدأ روعه . عند ذلك خرجت الابنة من تحت السرير فعانقها وتزوجها وعاشا فى سلام .

فمن الملاحظ ان هذه الحكاية التي تشبه النمط الخرافي في وحداته الوظيفية الى حد بعيد ، أبت ان تكون المهمات الملقاة على عاتق الاب مهمات خرافية ، كما انها ابت ان يكون تحقيقها من خلال الادوات السحرية ولهذا فعندما طلب ابن السلطان ان تصبح ابنة الفوال حاملا في يوم وليلة دون ان يكون لها زوج ، وكان من الصعب على الاب ان يحقق هذه المعجزة في عالم الواقع ، استعان عندئذ بالكلمة الحكيمة

التي تبصر ابن السلطان بواقع الامور ٠

وهكذا نرى كيف ان الراوي قد غير بدون عمد ، من الحكاية الخرافية مع الاحتفاظ بوظائفها الاساسية حتى تتلاءم مع عالمه الواقعي الذي اصبح يعيشه في عمق ٠

وفي بعض الاحيان يسعى الراوي متعمدا الى ان يقلد النمط الخرافي في رواية حكاية ترتبط بالواقع ٠ وفي هذه الحالة كذلك ، تظل الحكاية مرتبطة الى حد كبير بوحداتها الاساسية المتنوعة ٠ ولنستمع الى الراوي محمد احمد عبد الهادي الذي قابلناه في محافظة البحيرة ، ووجدناه يلعب دورا كبيرا في رواية التراث الشعبي القصصي ، فهو يصرح بتغييره المتعمد للحكايات الخرافية حتى توافق اذواق الناس ، يقول : « حاولت من خلال تجاربي مع الناس ان اصل الى اهواء الشعب واعرف هو عايز ايه ٠٠٠ حاولت آخذ بعض القصص الديني زي قصة سيدنا يوسف وابلورها في قصة شعبية ترضي اذواق الناس ٠٠٠ وعندي قصص شعبية وليدة الفكر الشعبي ٠٠٠ واحد بيحكي حدوته ، آخذها واعمل منها حكاية واعمل لها حوار معقول » ٠

والحكاية التي نستشهد بها من حكايات عبد الهادي ، يقلد فيها الحكاية الخرافية رقم (٢) تحت عنوان « الرجل الذي ولد بنتا » ٠ حقا ان الراوي لم يصرح لنا بالنمط الذي حاكاه في رواية حكايته ، ولكننا اهتدينا الى النمط المحكي من خلال ألفتنا للقص الشعبي ٠ وتتمثل الاحداث الرئيسية في هذه الحكاية في خروج الزوج ثم في ابعاد الزوجة من بيت زوجها ، وفي مساعدة القوة الخيرة لها ، ثم انتصارها على القوة الشريرة ، وعودتها الى زوجها ٠

اما ملخص حكاية عبد الهادي (١) التي اعطاها عنوان « الكريم »،

---

(١) استخدم الراوي في رواية هذه الحكاية اسلوب القص والغناء ←

فهي تحكي انه كان هناك رجل كريم محبوب في قريته لكرمه ومروءته٠ وكان لهذا الرجل ثلاثة اولاد بخلاء نزاعين الى الشر ، وابنة كريمة خيرة اسمها « درة » ٠ وذات يوم طرق باب الحج مسعود ، وهو اسم الاب ، رجل يبكي ويطلب المساعدة ٠ فلما فتح له الباب احد ابنائه وعلم انه جاء يطلب المساعدة ، نهره واغلق الباب دونه ٠ وكان الاب يصغي الى ذلك ، ولهذا فقد سأل ابنه عن الطارق ، فأجاب الابن : « ده واحد من الجماعة اياهم » ٠ عند ذاك امره الاب ان يذهب ويستدعيه فلما جاء الرجل وسأله مسعود عن طلبه ، حكى له الرجل انه كان يملك خمسين جنيها يتاجر فيها ، ويشتري بالمكسب ما يحتاج اليه ابناؤه وابوه وامه الذين يعولهم ٠ وبينما كان يسير في السوق ، سرق احد اللصوص منه النقود ، وبذلك اصبح لا يملك شيئا ٠ عند ذاك دس الحج مسعود يده في جيبه واعطاه مائة جنيه ٠ فعل ذلك وابناؤه الثلاثة يرمقونه في غضب ٠ فلما سأل عن سبب غضبهم اجابوا : « خايفين يابا المال يخس » عند ذاك اجاب الاب :

(الراوي يغني) :

لو خس مالي قليل منه بيكفيني

وان عز مالي رضا ربي بيرضيني

حامد في عسري وشاكر لما يعطيني

ومدام بنعمه ماليش ابخل وداريها

وتركهم بعد ما قال الكلام ده

آه ونام شاف النبي في منامه جاله

....

←

الشعري معا ، على نحو ما كان يفعل الراوي القديم عندما كان يحكي السير الشعبية ولكن الحان عبد الهادي تختلف كثيرا عن الحان الراوي القديم التي كانت تتسم بالرتابة ٠ فهو يستغل الالحان والمقامات العربية اجمل استغلال ، تساعده في ذلك فرقته الموسيقية ٠

وقال له يا كريم بالجنة ابشر

هناك عند الكريم تحظى بذاته

صحا م النوم سعيد فرحان وهايم

بحب المصطفى عاشق جماله

وقام من فرحته على الفجر صلى

وقرب الفجر قام صحى عياله

وقال يا ولاد انا من بكرة ناوي

على زيارة النبي وابلغ امالي

وقبل ما اروح كمان قسمت بينكم

بشرع الله املاكي ومالي ...

وهكذا ترك الاب ابناؤه وسافر الى الحج ، بعد ان وزع عليهم املاكه وكانت المضيفة من نصيب الابنة ، لانها هي التي ورثت الكرم من ابيها .

وانقضت ايام الحج ، وعاد الحجاج الى بيوتهم . ولكن الشيخ مسعود لم يعد معهم . وظن الابناء انه مات في الحج ، فسعدوا بأن الجو قد خلا لهم . اما « درة » فقد اخذت تبكي . ثم شرعت في احياء ذكرى ابيها وتوزيع المال على الفقراء واطعامهم كما كان يفعل ابوها . « وعارضها امير وحكيم وباهي ، وقالوا لها ليه كده يا درة دا فعل مايل ، بتدي بالسخا كده ليه يا درة ... بلاش المضيفة ، وكفى مهازل. عليهم بالعجل ردت وقالت : حرام يا جاحدين ليه تمنعوني ، انا يا اخواتي في اموالي حرة ، وليه بقى من الثواب راح تحرموني » ؟ .

فرد عليها الاخوين قائلين : « كده .. بتعارضينا ؟ يا ويلك مننا».
(ثم يغني الراوي مستمرا في السرد) :

وطمعوا في مالها وقالوا ليه يروح بره

وتقول لنا انها في ملكها حرة

لا بد تبعد قوام عن ملكنا درة

البنت دي بعدها عنا يسلمنا

ومالها حيعود علينا كله بالمرة

ما دام كده خرجت عنا وحتفني المال

وتقول لنا انه ده مالها والبر حلال

دا وجودها اصبح ويانا في القصر محال

مهما يكون لازم تبعد وتسيب المال

برا البلد خذها يا باهي وفي اي مكان

ويكون هناك مستنيها ابو العربان

وقول له لما توصل له ، يذبحها قوام

واسمها يصبح دايما ويا النسيان

بعت لاخته خدامه في ظلام الليل

والفجر كان قرب يظهر ويروح الليل

خبط على الباب فتحت له تسأل فيه ايه

بكى وقال باهي أخوك مش عارف ليه

وجدته في الوادي الاخضر وعبايته عليه

لكنه مجروح وتعالي ويايا شوفيه

وصدقت البنت ادعاء الخادم ، وخرجت معه متلهفة لرؤية اخيها . ولكن الخادم « معروف » تركها في منتصف الطريق .

تركها معروف وقال اسعي وطلي عليه

وسط الجنينة هناك تحت الشجر تلاقيه

راحت بسرعة تدور في الجنينة عليه

كشفت عبايته رأته شخص ثاني غريب

شافت قوام الخطر ، والغدر بان في عينيه

فسألت الابنة هذا الرجل الغريب وقالت له : هل تريد مني شيئا ؟ فأجاب : طبعا ٠

أشهر سلاحه وقال مين يمنعك مني

قالت له واحد أحد أقرب اليك مني

وان كان علي ذنوب خذ الذنوب مني

رمى سلاحه وسال دمعه على الخدين

وقال يا ربي بجاه الزين ارحمني

وهكذا رمى الرجل الغريب سلاحه وتركها وحدها وهرب ٠ اما الابنة « درة » فقد قالت لنفسها :

انا أرحل واسيب المال عشانهم

ما دام الاهل صبحم يكرهوني

في اي بلد أعيش وحدي غريبة

ولو طال الشقا أصبر يا عيني

ورحلت من بلد لبلد وشافت

مرار الغربة والحرمان ليالي

ومن كثر التعب والمشي نامت

في ظل سبيل جنبه قصر عالي

وخذها النوم لقرب الفجر لما

رآها صاحب القصر في طريقه

دنا منها وصحاها بهداوة

وشكرت همته وعجبها ذوقه

لكنه قال لها اشكي لي حالك

حكت له امرها ودموعها سالت

اخذها بالعجل في القصر عنده

وقال يا مرحبا ··· ردت وقالت

عليك الخير ربك راح يزيد

صفاتك في الكرم يا شاب عالية

وعلم صاحب القصر من الابنة قصتها ، وتبين انه كان يعرف اباها · ثم تزوجها وعاش معها في حب وسلام ·

وبعد سنين عاد الاب ، الحج مسعود ، من الحج · ولم يكن قد مات ، ولكنه شاء ان يقضي وقتا طيبا بجوار الكعبة وبجوار قبر الرسول عليه السلام · فلما اشتاق الى ابنائه والى بلده ، قفل راجعا · ولما دخل بلدته رآه رجلان · فقال احدهما للآخر : اليس هذا الشيخ مسعود ؟ فرد الآخر قائلا : عم الشيخ مسعود مات من زمن ، وقد طمع اولاده في مال اختهم ويبدو انهم قتلوها ، وقد عاقبهم الله على ذلك بان سلبهم المال كله واصبحوا شحاذين ·

وعندما سمع الاب ذلك ···

مشى سواح في كل بلد شوية

يدور في البلاد على بنته درة

وكان بالصدفة جنب القصر ماشي

رآه في سكته جوز بنته درة

نداله يا غريب على القصر حود

وأنس عندنا نحظى بنورك

دخل وياه وبات في القصر عنده

وقال له يا ابني زاد فضلك وخيرك

ولما الصبح بان صحاه يصلي

صلاة الفجر في المسجد جماعة

وبعد ما ادى وياه الفريضة

رأى وياه في المسجد جماعة

عليهم الانكسار والذل بادي

ومدوا في خشوع للناس ايديهم

وفيهم اللي عطف واللي نهرهم

وفيه اللي وقف يبكي عليهم

ولما قربوا منوا عرفهم

وسالت دمعته لما رآهم

واقترب الابناء من ابيهم يطلبون احسانا ، أذ لم يكونوا قد عرفوه بعد فصرخ الاب في وجههم وناداهم بأسمائهم وقال لهم : « هل وصل بكم الامر الى الشحاذة ؟ واين المال ؟ فردوا قائلين :

نسينا عهدك ولا مرة عملنا بيه

والمال ورثناه ولا جدنا مرة بيه

وحتى مال اختنا درة طمعنا فيه

وغدرنا بيها علشان كانت بتحسن بيه

وغرنا ملكنا لما انشغلنا بيه

انهد حصن الهنا من كل أركانه

والمال ضاع مننا وصبحنا نحلم بيه

عند ذاك سألهم الاب متعجلا : « وأين أختكم درة » ؟ فاجابه صاحب القصر : « ابنتك درة عندي في القصر » · فسأله الاب : « وماذا تفعل في القصر ، هل تشتغل فيه خادمة » ؟ فاجابه الرجل : « لا بل هي زوجتي » · واصطحب صاحب القصر الحج مسعود وعادا الى القصر وهناك تقابل الاب مع ابنته درة · وارسل في طلب ابنائه ، وتهيأ لكي يصطحبهم ليبدأوا حياتهم من جديد ، بعد ان لقوا جزاءهم حقا ، ولكن صاحب القصر طلب منه ان يصعد معه الى سطح القصر قبل ان يرحل · وهناك نظر الحج مسعود حوله، فوجد البساتين والرياض في كل مكان· فقال له صاحب هذا القصر : هل تعرف يا عم الحج مسعود لمن تنتمي هذه البساتين والرياض ؟ فأجاب الحج مسعود : لا · فقال زوج ابنته :

كل اللي شفته ده من مالك ورد اليك

واللي زرعته زمان عادت ثماره اليك

دانا اللي جيت لك في يوم وشرحت حالي اليك

ويومها أكرمتني وغمرتني بالمال

يااللي زرعت الخير وفتحت أبوابه

دايما ثمار الخير بتعود لاصحابها

خليك تملي كريم وزكي من مالك

ومهما كنت في ضيم راح ينصلح حالك

دائما ثمار الخير بتعود لاصحابها

وهكذا تبين ان الشخصية المانحة التي ظهرت للابنة في حيرتها ، لم تكن سوى تلك الشخصية التي جاءت الى الاب ذات يوم في هيئة رجل

فقير لتختبر كرمه . الا تشبه هذه الشخصية على هذا النحو تلك الشخوص المانحة السحرية التي تظهر للبطل في اللحظة الحرجة ؟ وسواء حاكى الراوي في هذه الحكاية النمط الذي أشرنا اليه ام حاكى نمطا آخر شبيها به ، فهو على اي حال قد صرح بأنه يستغل الحكاية الخرافية او الحدوتة في رواية حكايات اخرى قريبة من ذوق الناس ومن قيمهم الخلقية والاجتماعية .

وفي حكاية غنائية اخرى يحكي فيها هذا الراوي نفسه عن تاريخ رشيد يدور حوار بينه وبين الكورس (وهو فرقته الموسيقية) في مستهل الحكاية على النحو التالي :

يقول الكورس :

يا عم حسنين احكي لنا عن اهل زمان

وعن بساط الريح والله انت الكروان

سمعنا بالله حدوتة والا حكاية

وقول لنا ايه بقى يعني خاتم سليمان

فيرد الراوي قائلا :

الليلة انا مش بحكي لكم حواديت وخيال

لكن حقول قصة بلدي ، بلد الابطال

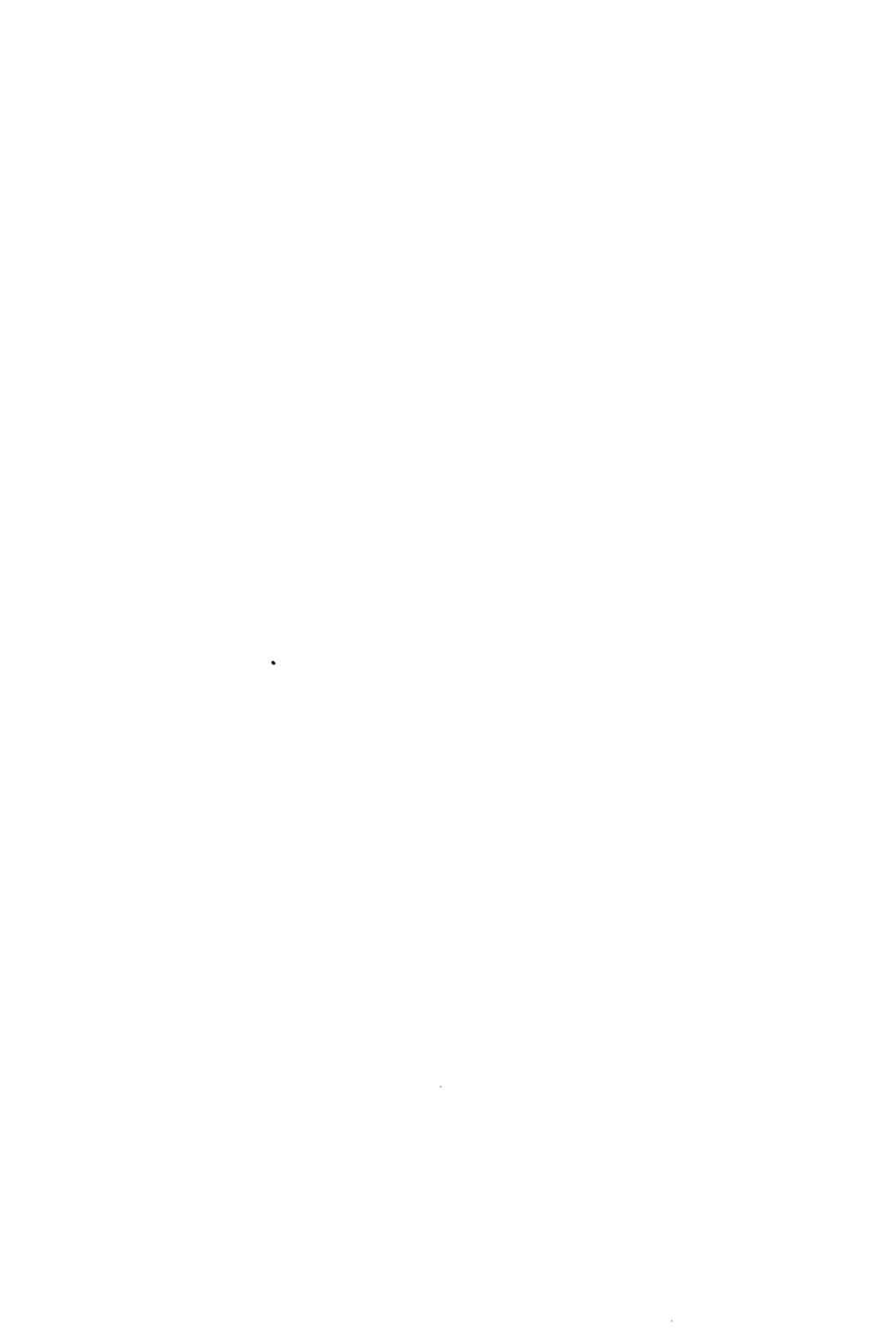
وبهذا يؤكد الراوي التحول الذي حدث في ذوق الشعب ، بحيث اصبحوا يعزفون عن رواية النمط الخرافي والاستماع اليه . اذ ان رد الراوي يعني من بعيد ، ان الوقت لم يعد يسمح لرواية حكايات خرافية كتلك التي تحكي عن خاتم سليمان ، بل اولى لهم ان يحكوا ما ينبع حقا من حياتهم الواقعية التي يعيشونها .

وهنا نقول ، بناء على التحليل الشكلي او المورفولوجي ، اننا

استطعنا ان ندرك التحول الذي حدث في بناء الحكاية الشعبية · ولكننا اكتفينا في هذا الباب بعرض هذا التحول من ناحية البناء الشكلي فحسب · وسنحاول في الباب الثالث والاخير ان ننتقل من الدراسة الشكلية الى دراسة المحتوى فنحاول ان نتبين من ناحية ، السبب في التزام الحكاية الخرافية بتلك الوحدات الوظيفية السابق ذكرها ، كما نحاول ان نستكشف من ناحية أخرى السبب في اهمال الحكاية الشعبية لكثير من هذه الوحدات الوظيفية ، مع الاحتفاظ بأهمها ·

الباب الثالث

التفسير



« الفصل الاول »

الشخوص الواقعية والشخوص الخرافية في عالميهما

ما من شك في ان اي تعبير شعبي انما ينبع من احتياج نفسي لهذا التعبير · ومن ثم فان الباعث على نشأة الاسطورة يختلف عن الباعث على نشأة الحكاية الخرافية ، وكلاهما يختلف عن الباحث على نشأة الحكاية الشعبية ، وهكذا · ومهما قيل عن العلاقة القوية بين هذه الانماط ، ومهما تكن النتائج التي حققها المنهج التاريخي في دراسة تطور هذه الانماط تاريخيا ، فما يزال البحث في حاجة الى استكشاف الاحتياجات النفسية التي تقف وراء الخلق الفني للنمط المحدد· وبتعبير آخر ما يزال البحث في حاجة الى دراسة العلاقة الوثيقة بين الانتاج الادبي ، والانسان الشعبي ·

ولا يعد التحليل المورفولوجي في الحقيقة ، كما سبق ان ذكرنا ، سوى بداية مرحلة الدراسة العميقة · ذلك ان الكشف عن بناء الشكل الفني الذي انتهى بنا الى تأكيد الطبيعة المستقلة المتكاملة لنمط من انماط التعبير الشعبي وهو الحكاية الخرافية ، والذي انتهى بنا الى ادراك التغيير الذي حدث في البناء التركيبي للحكاية الشعبية ، لا بد ان يثير بعد ذلك تساؤلات عدة : فلماذا تتمسك الحكاية الخرافية بهذه الوحدات الوظيفية التي تكاد تتتابع وفق نظام محدد ؟ ولماذا تستخدم هذه الشخوص في تكوينها ؟ ثم لماذا اختزلت الحكاية الشعبية الوحدات الوظيفية للحكاية الخرافية على نحو ما رأينا ؟ ولماذا غيرت من ملامح شخوصها ···

وفي فصول هذا الباب محاولة للاجابة عن كل هذه المسائل ٠

ولكننا قبل ان ندخل في التفسير ، نود ان نغوص بعض الشيء في محتوى النمطين لندرك الفرق الجوهري بينهما ، تماما كما ادركنا الفرق بينهما من حيث البناء الشكلي ٠

فما الفرق بين عالم الحكاية الخرافية وعالم الحكاية الشعبية ؟ قد يقال ان عالم الحكاية الخرافية عالم سحري ، في حين ان عالم الحكاية الشعبية واقعي ٠ ولكن كيف يمكن ان نميز بين النمطين عندما تستخدم الحكاية الشعبية الخيال والسحر كذلك ، وعندما تنتقل ببطلها من العالم المعلوم الى العالم المجهول ، كما تفعل الحكاية الخرافية ؟ ٠

لكي نجيب عن هذا السؤال نقدم حكاية امتلك البطل فيها الاداة السحرية وانتقل الى العالم الآخر ، ومع ذلك فهي تنتمي الى النمط الشعبي (١) ٠ ومن خلال مقارنتنا لهذه الحكاية بالنمط الخرافي ، ندرك الفرق تماما بين عالميهما السحريين ٠

بلغ الفقر برجل الى حالة دفعته لان يذهب الى ضريح السيدة زينب ويجلس عند الضريح مع الشحاذين ٠ وهناك جاء اليه شيخ المجاذيب وسأله عن سبب جلوسه مع الشحاذين دون ان يمد يده للناس، فاجابه بأنه كان يعيش في حالة من اليسر ثم صار فقيرا ٠ عند ذاك أمره ان يدخل في عباءة ٠ فلما فعل الرجل ذلك وجد نفسه في بلد آخر غير بلده ٠ ولما كان جائعا ، فقد ظل يتنقل من مكان الى آخر لعله يجد من يعطف عليه ٠ ثم وجد نفسه امام مخبز فدخله ليطلب من صاحبه رغيفا من الخبز ٠ فسأله صاحب المخبز عما اذا كان غريبا في ذلك البلد ، فرد بالايجاب ٠ عند ذاك طلب منه صاحب المخبز ان يصحبه الى

(١) هناك رواية اخرى لبنانية لهذه الحكاية تقع ضمن مجموعة « حكايات لبنانية » ص ٢٧٦ تحت عنوان (لا فرار من المقدور) ٠

قصر الملك ، لان الملك اعلن انه سيزوج ابنته من اول رجل غريب يدخل المدينة · فذهب معه الرجل الى قصر الملك ، حيث وافق الملك علـى ان يزوجه من ابنته الكبرى واشترط عليه شرطا واحدا هو ألا يتدخل فيما لا يعنيه· وتصور الرجل ان هذا الطلب يسير للغاية ، ومن ثم فقد وافق عليه ، وتزوج الابنة الكبرى ·

وفيما كان الرجل يتجول في المساء بمفرده ، رأى رجـــلا يتسلق شجرة صاعدا هابطا دون ان يهدأ ، ويأكل من ثمارها الحلوة وثمارها التالفة في آن واحد · فظل يرقبه لعله يهدأ ويستقر ، ولكنه لم يفعل فوقف يسأله : لماذا لا تجلس فوق الشجرة وتأكل من ثمارها الطيبة حتى تشبع ثم تنزل بعد ذلك ؟ فاجابه الرجل قائلا : هذا شيء لا يعنيك ، وليس من حقك ان تتدخل فيه · عند ذاك تذكر الرجل تحذير الملك اياه ولكنه تصور ان احدا لم يره، ولهذا فقد دخل القصر في المساء مطمئنا· ولكنه فوجيء بابنة الملك تقول له : انك اصبحت محرما علي ، حيث انك قد ارتكبت الشيء المحظور ·

عند ذاك ترك الرجل القصر وذهب الى دكان الخباز ليشتكي اليه حاله· فأخذه الخباز وذهب به الى قصر الملك مرة اخرى، حيث استشفع له عند الملك وطلب منه ان يزوجه من ابنته الثانية · فوافق الملك عـــلى ذلك واشترط عليه نفس الشرط ·

وذات يوم بينما كان يسير بجوار نهر ، أبصر رجلا يملأ دلـــوه بالماء حتى يطفحه ثم يسكبه في ارض مخضرة مزدهرة ثم يعود فيملأ الدلو بقليل من الماء ويروي به ارضا بوارا · فتعجب لهذا الامر ، ووقف يسأله : لماذا تبخل على ألارض البوار بالماء في حين انها تحتاج الى الماء اكثر من الارض المخضرة ؟ عند ذاك اجابه الرجل بأن هذا امر لا يعنيه ، وليس من حقه التدخل فيه ·

وطلق الرجل من الابنة الثانية ، ولكن الملك عاد وزوجه الابنـــة الثالثة واشترط عليه الشرط نفسه · وكان الرجل حريصا كل الحرص

على الا يسير بعد ذلك في مكان يسير فيه أحد · ولهذا فقد صعد قمة الجبل ليتريض هناك · ولكنه ابصر جماعة من الناس يشدون طوقا فيما بينهم ، والطوق معلق في شجرة · وكان كل منهم يشد الطوق نحوه بحيث ظل الطوق ثابتا على هذا النحو · عند ذاك وقف الرجل يتأملهم ويتعجب ، ودفعه لان يتساءل : « لماذا لا تقفون في ناحية واحدة وتشدون الطوق في اتجاه واحد·وردت عليه الجماعة قائلة بأن هذا امر لا يعنيه، وليس من حقه التدخل فيه ·

ولما كان الرجل يعلم ان الملك ليس عنده ابنة رابعة ، فقد قرر ألا يعود الى القصر ، وعند ذاك دخل في العباءة فوجد نفسه مرة اخرى عند ضريح السيدة زينب وقد وقف أمامه شيخ المجاذيب · فسأله هل كنت في حلم ام في علم ؟ فأجابه شيخ المجاذيب بأنه كان في علم واخذ يفسر له ما رآه فقال : ان الرجل الذي ابصرته صاعدا هابطا الشجرة ، يأكل الثمرة الحلوة والتالفة ، ليس سوى عزرائيل قابض الارواح · فهو دائب على عمله ، يقبض ارواح الناس الطيبين والفاسدين على السواء · اما الرجل الذي كان يسخو على الارض الخصبة ويبخل على الارض البور ، فهو الملك المكلف بتوزيع الارزاق ، فهو يوزع الارزاق كيفما شاء ، وليس لاحد ان يعارضه · اما الناس الذين كانوا يشدون الطوق بحيث كان كل منهم يحاول ان يشده نحوه ويبعده عن الآخرين ، فهم اهل هذه الحياة ، يتكالبون عليها · وكل واحد منهم يريد ان يكون الغنم له وحده ·

ومن الواضح ان هذه الحكاية قد استخدمت كثيرا من الوحدات الوظيفية في الحكاية الخرافية ، ففيها خرج البطل من بيته بدافع الاحساس بحاجة تنقصه في حياته·وفيها قابل البطل الشخصية المساعدة والمانحة ، وفيها منح الاداة السحرية ، وهي العباءة التي اوصلته الى العالم الآخر ، حيث تزوج من ابنة الملك ، وفيها تزوج البطل بالاميرة · وعلى الرغم من هذا التشابه ، فان هذه الحكاية تختلف اساسا في بنائها وفي وظيفتها عن الحكاية الخرافية · لماذا ؟ لسبب واضح جلي

هو ان البطل عاد من مغامراته في العالم المجهول خاسرا دون ان يغنم شيئا سوى التساؤلات المثيرة التي لم يجد عنها ردا شافيا ·

اذن لا بد ان يكون العالم المجهول فيالحكاية الشعبية خلاف العالم المجهول في الحكاية الخرافية · ولا بد ان الدور الذي يلعبه البطل في هذا العالم المجهول ، خلاف الدور الذي يلعبه بطل الحكاية الشعبية فيه · ففيم هذا الاختلاف ؟

يجب ان نسلم باديء ذي بدء بأنالعلاقة بين العالم المجهول والعالم المعلوم تتمثل في كل من النمطين · وهذه العلاقة في الحقيقة تقرب في الظاهر بين النمطين ، ولكنها تعود فتفصل بينهما · ذلك ان علاقة العالم المعلوم بالعالم المجهول يختلف تصويرها في كل نمط على حدة ، بل ان العالم المجهول نفسه يصور على نحو مختلف في كل من النمطين ·

ان العالم المجهول لا يبعد كثيرا عن العالم المعلوم في الحكاية الخرافية ، بل هو قريب منه كل القرب · فاذا رحل البطل اليه فكأنما انتقل من مكان لآخر، لا لان هذا المكان المجهول قريب منه ، وانه يستطيع ان ينتقل اليه في خفة ورشاقة فحسب ، بل لان هذا العالم ليس مجهولا بالنسبة له · فلا هو يقف منه موقف الخائف الفزع ، ولا هو يتحرك فيه بدافع استكشاف امور غريبة فيه، فيقف منها موقف المتسائل· والسبب في هذا ان بطل الحكاية الخرافية لا يرحل الى هذا العالم المجهول من أجل الوصول الى المعرفة ، بل لانه يود ان يخلص الاميرة من قبضة المارد ، او يحضر الليمونات الثلاث او الاداة السحرية او غير ذلك · فاذا هو قابل الشخوص الغريبة ، فانه لا يفزع منها ولا يشعر ازاءها بأية رهبة ، بل يقف منها موقف المساوم من اجل الحصول على حاجته· فاذا منح الوسيلة السحرية ، فانه لا يتساءل عن ماهيتها ، لان هذا الامر لا يهمه،بل ان ما يهمه منها هو ان يستعين بها فياللحظة الحرجة·

ومعنى هذا ان العالم المجهول في الحكاية الخرافية يقع في مستوى العالم المعلوم ، وان البطل عندما ينتقل الى هذا العالم ، لا يكون مدفوعا بالرغبة في خوض تجربة فيه ، أو استكشاف ماهيته ، بل يكون مدفوعا بالرغبة الملحة في الحصول على حاجته · ومعنى هذا ان عالم الحكاية الخرافية ذو بعد واحد ·

اما في الحكاية الشعبية ، فان العالم المجهول يمثل بعدا ثانيا ما في ذلك شك · ولعل اكثر ما يشير الى ذلك في حكاياتنا ، ذلك التساؤل الذي وجهه الرجل الفقير الى شيخ المجاذيب عندما عاد من ذلك العالم المجهول ، اذ قال له : « هل انا في علم أم في حلم » ؟ · ومعنى هـــذا ان بطل الحكاية يميز في دقة بين العالمين · واذا كان شيخ المجاذيب قد رد عليه بأنه في عــلم ، فهـو لا يعني بهـذا ان العــالم المعلوم والعالم المجهول شيء واحد ، بل يعني ان الامور الغيبية التي رآها ، قريبـة للغاية من عالمه المعلوم لانه دائم الانشغال بها ·

ومن الواضح ان بطل حكايتنا لم يرحل الى العالم المجهول بحثا وراء الاميرة التي يود ان يتزوج منها ، بل انه كان يود أولا الكشف عن معميات هذا العالم المجهول · ولم يكن زواجه بالاميرة ، الذي صور على نحو خرافي ، سوى وسيلة فنية لاستكمال مغزى الحكاية · فعلى الرغم من انه قد تزوج من الاميرة وعالج بذلك مشكلة فقره ، فان هذا لم يكن ليكف بصره عن ادراك مشكلات الحياة الجوهرية · ولقد تصور ان تحذير الملك له ، من ان يتدخل فيما لا يعنيه ، من السهل الالتزام به، ولكنه ادرك في النهاية انه ليس في وسعـــه ان يجنب نفسه النظــر والتساؤل ، رغم علمه بأن هذا التساؤل لن يجر عليه سوى الخسارة· وهذا ما عبرت عنه هذه الحكاية على نحو رمزي بعودة الرجل ودخوله في العباءة ، حيث وجد نفسه مرة اخرى فقيرا بين الفقراء الذيـــن يجلسون أمام ضريح السيدة زينب ·

الحكاية الشعبية اذن تدفع بأبطالها الى عوالم غريبة ، وقد تدفعهم

الى عالم الموتى او عالم الارواح او الشياطين والاشباح ، ولكنهم عندما يخوضون في هذه العوالم يكونون دائما على وعي تام بأن هذه العوالم بعيدة عن عالمنا ، ومن ثم فهي تثير في نفوسهم الفزع والرهبة، وان كانت مع ذلك تغريهم دائما بالبحث عنها ·

ومعنى هذا ان عالم الحكاية الخرافية ذو بعد واحد في حين ان عالم الحكاية الشعبية ذو بعدين ·

وكما ان الحكاية الخرافية لا تهتم بالبعد المكاني ، فانها لا تحفل كذلك بالبعد الزماني · حقا انها تحكي عن الكبير والصغير ، وعن الكهل والشاب ، ولكن البطل الشاب فيها لا تؤثر فيه السنون · ومعنى هذا ان شخوص الحكاية الخرافية تتحرك فيالزمان والمكان بدون عائق، على عكس شخوص الحكاية الشعبية ، التي تشعر انها اسيرة الزمان والمكان وهذا يكشف عن خاصية اخرى لعالم الحكاية الخرافية ، وهي انعزالية هذا العالم · وهذه الانعزالية تعزل بالتالي شخوص الحكاية الخرافية عن عالم الواقع · فالاخ الاكبر يخفق في خوض التجربة ، ثم يقوم من بعده الاخ الاوسط بالتجربة نفسها دون ان يبحث عن سبب اخفاق الاخ الاكبر ، بحيث يمكنه ان يتفادى الخطأ ، ولكنه يخوضها لان الحكاية تود له ان يخفق حتى تصل الحركة الى الاخ الاصغر ، الذي ينجح اخيرا في خوض التجربة · وهو لا ينجح فيها لانه علم بكنهها ، بل لانه الاخ المفضل ·

ولقد تكررت تجربة البطل في حكايتنا الشعبية ثلاث مرات ، ولكن البطل كان يعي كل مرة سبب اخفاقه · وعلى الرغم من ذلك فقد خاضها ثلاث مرات لتؤكد الحكاية بعد ذلك اخفاقه من ناحية ، ولتكشف عن ثلاثة جوانب غريبة في حياتنا من ناحية اخرى ·

واذا كنا قد ميزنا بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية من ناحية تصويرهما للعالم المجهول وعلاقته بالعالم المعلوم ، فاننا نعود

فنتحدث عن شخوصهما ، لنرى الى اي حد تختلـف الشخوص في كل من النمطين · فلنعرض اذن لشخصية البطل في كل منهما ثم لطبيعة الشخصيات الخيرة والشخصيات الشريرة ·

البطـل :

البطل في الحكاية الشعبية تنمو شخصيته من الداخل ، اي من داخل نفسه ، على عكس بطل الحكاية الخرافية الذي تنمو شخصيته من الخارج · فالبطل في النمط الاول يحس بخطر يتهدده ، وهو يحاول ان يستكشف من داخله كنه هذا الخطر وعلاقته بمصيره · اما البطل في النمط الثاني ، فهو وان كان يشعر كذلك بالخطر الذي يتهدده فانه لا يواجه الا بمعونة القوى الخارجية والقـــوى السحرية · ذلك ان الحكاية الخرافية تحرر الاشياء والشخوص من علاقاتهـــا الطبيعية ، وتنشىء علاقة جديدة بين بعضهما والبعض الاخر · وهـــذه العلاقة الجديدة من السهل انتنتهي وكأنها لم تكن · ولهذا فان علاقة الحيوان والنبات والجماد بالبطل ليست مألوفة ، فهي تتحدث اليه وتقدم اليـه النصيحة ، وتهديه الى الطريق · فاذا حصل البطل على المساعدة من هذه الاشياء وبـــدأ مغامراته ، انتهت عـــلاقته بهذه الاشياء · وهو يتحتم عليه كذلك ان يقتل التنين او المارد او ينتصر علــــى الساحر الشرير او على الغول ، ولكنه اذ يفعل ذلك ، لا ينفعل ولا يتغير مزاجه، ولا تصور الحكاية صراعه الداخلي ومجرى تفكيره مع تطور الاحداث، بل تجعله الحكاية يسير الى امام ويشـق طريقه في الظـــلام ووسط الغابات وفوق الجبال وفي العالم السفلي وبيـــن دســـائس القوى الشريرة ، لانه مقدر له من قبل ان يصل الى الملك ويفوز بالاميرة ، او مقدر له ان يحصل على الكنز الذي ينتظره ·

وبطل الحكاية الخرافية جوال خفيف الحركة ، كما انه يتحرك في حرية مطلقة · اما بطل الحكاية الشعبية ، فهو عندمـــا يتحرك يكون اسير عالمه المرئي وغير المرئي ، واسير تلك القيود التـــي نشعر من

اعماقنا انها تكبلنا وتحد حياتنا · وهذا الاحساس يحول بينه وبين الحركة الحرة الطليقة ، بل يحول بيته وبين الوصول الى حياة الابهة التي يصل اليها بطل الحكاية الخرافية ·

وليست مهمة بطل الحكاية الشعبية في الحقيقة ان يتحرك بغير بصيرة ، على نحو ما يفعل بطل الحكاية الخرافية ، بـل ان مهمتـه الاساسية تتمثل في ان يفتح عينيه واذنيه لما يدور حوله · وهذه المهمة لا تجعل منه نمطا مسطحا ، لا يحمل ملامح محددة ، كما هـو الحال بالنسبة لبطل الحكاية الخرافية ، بل انه نموذج جاد للانسان الشعبي الذي يعيش الحياة الواقعية بكل ما فيها من آلام وآمال ·

ويمكننا ان نقول بتعبير آخر : ان بطل الحكاية الخرافية يعيش تجاربه بدون عالم داخلي ، ولا يتوقف نجاحه على خصاله ، بل يتوقف على ظهور القوى المانحة والمساعدة له · ومن هنا نـرى اهمية ظهور القوى المانحة او المساعدة ، او هما معا ، فـي الحكاية الخرافية ، فالبطل بدونهما لا يستطيع ان يحقق اي فعل · وقـد يجلس البطل في الحكاية الخرافية ليبكي ، ولكنه ، اذ يفعل هذا ، لا يثير فـي نفوسنا الاحساس بالالم ، لاننا نعلم ان القوة السحرية ستظهـر له اثر هذا البكاء ، وتعينه في اللحظة التي توقف فيها عن الحركة ·

اما بطل الحكاية الشعبية فهو يكشف لنا عمق تجـربة انسانية نعيشها في عالمنا المرئي وغير المرئي · وهو يثير في نفوسنا مشاعـر القلق والالم ويجعلنا نحس كل الاحساس بوجوه النقص في عالمنا ·

٢ ـ الشخوص الشريرة :

اذا عاود القارىء قراءة الحكايات الشعبية التي قدمناها سابقا، فانه سيلاحظ على الفور ، انه ليس فيها اثر للشخوص الشريرة التي تظهر في الحكايات الخرافية ، مثل شخصية الغول او المارد او الساحر

الشرير ، وقد اختفت هذه الشخوص في الحكايـــة الشعبية ، لان الانسان الشعبي بدأ يحس بجـوانب التهديد الحقيقية فـــي حياته · وتتمثل جوانب التهديد هذه اما في عالمه المـــرئي ، او في عالمه غير المرئي · ففي العالم غير المرئي يتهدده الموت ، ويتهدده المصير المقدر له · اما في عالمه المرئي فتتهدده مشكلة توزيع الارزاق على حد تعبيره، ومشكلة ظلم الانسان لاخيه الانسان ثم مشكلة انكماش القيم الاخلاقية المثـــلى ·

ولا يعني هذا ان الانسان الشعبي لم يعد يعتقد على الاطلاق في وجود القوى الشيطانية التي تسكن عالما قريبا من عالمه ، والتي يمكن ان تسبب له الاذى ، فالمعتقدات الشعبية الحية مليئة بهـــذا التصور وكثيرا ما يحكي الناس حكايات تؤيد هذا الاعتقاد · ولكن هذا النمط من هذه الحكايات يندرج تحت صنف خاص به ، هو حكايات التجارب الواقعية · وهو يختلف تماما عن الحكايات الفنية المؤلفة ، وهذا مثال يوضح هذا النوع ·

حكى لي رجل ريفي عن تجربته مع عالم الجن ، كما تراءى لــه فقال انه كان ساهرا في حفل ثم عاد الى بيته في وقت متأخر من الليل· وكان يتحتم عليه ان يسير في الطرقات المظلمة ، حيث ان قريته لم تكن قد عرفت وسائل الانارة بعد ، فتعثر في حجر وسقط على الارض· وفي الحال شعر بسخونة في صدره على حد تعبيره · فقام وسار في طريق آخر ، فقابل امرأة تبكي وهي تحمل طفلا ، فسألها عن سبب بكائها · فردت عليه قائلة : « سر في طريقك ولا تتدخل في امور غيرك »· فداخله مزيد من الرعب · فقام وسار في طريق ثالث ، واذ به يصادف جاموسة تسد عليه الشارع وهي تخور ، وقد اقبلت نحوه من جهة المقابر · عند ذلك صرخ ، واصابه « الجن » اثر هذه الصرخة · وبعد ذلـــك سمع صوتا يقول له : « اشهد الا اله الا الله ، انت الـــذي عرضت نفسك للاذى بصراخك هذا » ·

وذهب الرجل بعد ذلك لشيخ في بلدته يشرح له حالته ، فقال له « لا بد ان تحافظ على نفسك ، ان هذا الذي قابلته ثلاث مرات هو « عون » ، وهو الذي بدا لك في شكل حجر تعثرت فيه ، ثم في شكل امرأة تبكي ، ثم في شكل جاموسة تخور » ٠

وتؤكد هذه الحكاية وغيرها الاعتقاد الشعبي في الجن الذي يصيب الناس بالاذى ٠ ولكن هذا النمط ، كما نرى ، لا يندرج تحت صنف الحكايات الشعبية ، الا بوصفه نمطا مستقلا يختص بحكاية التجارب الواقعية التي تحدث للناس ٠ اما الحكايات الشعبية التي نهتم بدراستها ، فهي نوع من التأليف القصصي الفني الذي يعد تعبيرا مباشرا عن مشكلات الناس النفسية ٠ وفي هذا النوع الاخير ، اختفت الشخوص الشريرة التي تهدد بطل الحكاية الخرافية ٠ واذا كان الاسد قد ابتلع البطل في حكاية الاخوين ، فان هذا الاسد في الحقيقة لم يكن واقفا متربصا بالبطل لكي يعوقه عن اداء مهمته ٠ بل انه افسح له الطريق وتركه لحاله عندما علم منه انه ذاهب الى حظه لكي يوقظه ٠ وربما بدت الجمجمة كذلك مهددة لحياة الاب في حكاية الجمجمة ٠ ولكنه اتضح في نهاية الحكاية ، ان الجمجمة لم تكن سوى تجسيد لامر اكبر يفزعه في حياته ، وهو القدر المكتوب على الانسان ٠

ولما تغير شكل الخطر الذي يتهدد اليوم عالم الانسان الشعبي فقد تغير ، بناء على ذلك ، تجسيده لهذا الخطر ، فهو قد يبدو في شكل ملك الموت الذي يتسلق الشجرة صاعدا هابطا ، او قد يبدو في شكل الملك المكلف بتوزيع الارزاق ، او في شكل صنابير الارزاق ، او في شكل السلطان الجبار ، الى غير ذلك ٠

٣ ـ الشخوص الخيرة :

واذا كان بطل الحكاية الشعبية قد اصبح واقعيا الى هذا الحد ، واذا كانت المشكلات التي اصبحت تعنيه والتي صار يعبر عنها في

الحاح مشكلات اجتماعية ونفسية يعايشها في صدق ، فلا غرو بعد ذلك ان استغنى الانسان الشعبي عن الشخوص المانحة التي تمنـــح البطل الوسيلة السحرية لكي يستخدمها وقت الحاجة · ولكنه ـ مع ذلك ـ اصبح في اشد الحاجة الى شخصية اخرى تبصره بالحقيقة وتكشف له المجهول · ومن ثم فقد ظهرت في الحكايات الشعبية شخصية اخرى لا نظير لها في الحكايات الخرافية ، وان كنا نعدها مـــع شيء مـن التجاوز ، تطويرا للشخصية المانحة او المساعـــدة فـــي الحكايات الخرافية · وهذه الشخصية نطلق عليها اسم « العـــريف » · وهذه الكلمة استقيناها من حكاية شعبية تعد رواية اخرى لحكاية الاخوين · ففي هذه الحكاية ، قتل الاخ اخاه الملك طمعا في ان يتربع على العرش من بعده ، ولكن الشعب رفض ان يعترف به ملكـــا ، الا اذا اخذ من الشعب خطابا ، وذهب به الى العريف الذي يسكن وراء الجبل وعاد برد منه · ثم تستمر الحكاية في سردها على نحو ما اوردناه ·

هذه الشخصية المجهولة التي لا يعطيها القصاص الشعبي ايـة ملامح بارزة ، بل يتركها لخيالنا نتصورها كيفما نشاء ، كثيرا مـــا تظهر في الحكايات الشعبية في صورة او اخرى · فهي شيخ المجاذيب الذي قابل الرجل الفقير عند باب ضريح السيدة زينب وفســر له تلك الظواهر الغريبة التي رآها في العالم المجهول · وهي الرجل الذي كان يجلس بجانب صنابير الارزاق ، والذي اطلع البطل على صنبور رزقه· وكان ينبغي على البطل ان يصدق ما اطلعه عليه من ان رزقه قليل ، بل يوشك ان ينقطع ولكنه لم يستطع ان يصدق هذه الحقيقة المرة ، حتـى تحققت نبوءة صاحب الصنابير في النهاية ·

والعريف بعينه هو الحظ الذي ذهب اليه البطل ليوقظه ويرعاه· وعلى الرغم من ان هذا الحظ الراقد في الجبـــل الشرقي لم يتعرض لمشكلة صاحبه ، ولم يطمعه في ثروة او جاه ، فان صاحب هذا الحظ تصور انه سوف ينال كل ما يرغب فيه ما دام حظه قد استيقظ ولم يكن

الحظ في الحقيقة يضمر له سوى هلاكه على يد الاسد . وهذا يدلنا على ان العريف يعطي الانسان بقدر ما يستحق ، فان هو شاء المعرفة اعطاه اياها ، وان شاء الكشف عن المجهول بصره به ، وان كان فاسدا ميئوسا من صلاحه قضى عليه ، او بالاحرى هيأ له من يقضي عليه .

ومرة اخرى ظهر العريف في هيئة الملاك الذي يشفي العاهات ، لكي يهدىء من روع البطل المتمرد عندما بصره بما في الحياة من كوارث . وبهذا استبدل البطل التفاؤل بالتشاؤم ، وقرر ان يعمل في الحياة ليكسب رزقه .

وقد ظهر العريف في هيئة الاب الكهل الذي استطاع ان يفلت من قبضة الحاكم الظالم ، ثم استطاع فيما بعد ان يبصره بحقيقة نفسه وعلاقة شعبه به .

وقد يكون العريف حيوانا ، فقد تعود رجل (١) ان يصعد الى الجبل كل يوم ، وهناك يعزف على نايه فتظهر له حية وتظل ترقص على انغام نايه ، ثم تضع له في النهاية بيضة من الذهب ، فيأخذها الرجل ويرحل .وذات يوم خرج الرجل في سفر ، ففكر الابن في ان يقوم بنفس الفعل الذي يقوم به والده ، فأخذ الناي وصعد الى الجبل واخذ يعزف حتى خرجت له الحية ، واخذت ترقص على انغامه . عند ذاك راودت الابن فكرة الامساك بالحية حتى يأخذها معه الى البيت ، فتضع له البيضة هناك بدلا من ان يصعد الى الجبل كل يوم ، وبينما كان يهم بامساكها التفت الحية على جسمه لتدافع عن نفسها ، فهم بقطع ذنبها، ولكنها عند ذاك لدغته ومات . ولما عاد الرجل من سفره وسأل عن ابنه ، اخبرته الام بأنه اخذ الناي وخرج ولم يعد . فأسرع الرجل الى الجبل حيث وجد ابنه ميتا . عند ذاك اخذ الناي وظل يعزف حتى

....

(١) هذه الحكاية تروى في سورية والعراق واليمن - انظر سلمى الازهرية ، حكايات عربية ، ص ٥٠٠ .

خرجت له الحية ، وشرحت له قصة ابنه معها • عند ذاك طلب منها الرجل ان تنسى ما فات وتظل ترقص له وتضع له البيض الذهبي • ولكنها ردت عليه قائلة : « لا لن افعل ذلك بعد اليوم ، فانت لن تنسى قتل ولدك وانا لن انسى ذنبي المقطوع » •

وبهذا كشفت الحية للرجل عن طبيعة انسانية شاء ان يتغافل عنها امام الاغراء المادي • وعلى الرغم من ان العريف قد قام بدور ايجابي في كل الحكايات السابقة ، فانه قد يقف عاجزا عن حل مشكلة الانسان في بعض الاحيان •

فقد اجتمعت « الكلاب البلدي » ورفعت اصواتها بالشكوى وقالت : لماذا تأكل « الكلاب الرومي » الاكل النظيف وتجد من يرعاها ، ونحن نسير في الشوارع على غير هدى ، ولا نجد طعامنا سوى في النفايات ؟ عند ذاك قررت ان ترسل رسولا من بينها الى النبي سليمان لتسأله في هذا الشأن ، فكتبت رسالة ووضعتها في مؤخرة كلب وبعثت به الى النبي سليمان • وحتى اليوم لم يعد الكلب برد على ما في الرسالة ، ولهذا فان الكلاب عندما تجد كلبا غريبا وافدا عليها ، فانها تشم مؤخرته على امل انه قد عاد بالرسالة •

وعلى الرغم من ان هذه الحكاية تعد حكاية تعليلية ، فان الشعب استغل هذه الظاهرة التي نلاحظها عند الكلاب ، في التعبير عن مشكلة اجتماعية تشغله وهي مشكلة الفروق الاجتماعية •

وهكذا نرى كيف ان شخصية العريف تلعب دورا مهما للغاية في الحكايات الشعبية • هذا فضلا عن انها تكشف عن التغير الذي طرأ على شخوص الحكايات الخرافية لكي تتلاءم مع جو الحكاية الشعبية الواقعي •

واذا كنا قد ربطنا بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية في هذا الفصل ، فاننا نعود فنفصل بينهما في الفصلين التاليين ، وذلك بهدف دراسة الوظيفة التي يقوم بها كل نوع على حدة في حياة الشعب •

« الفصل الثاني »

الحكـاية الخرافية في ضوء التفسير النفسي

قد نتساءل بعد هذه الجـولة في عـالم الحكاية الخرافية ومع شخوصها وبعد تحليلنا لبنـائها التركيبي ، فنقول : ما الهـدف من الحكاية الخرافية وما الرغبة الملحة التي يشعر بهـا الانسان ويحققها في ذلك الشكل الفني ؟

قد يقال ان الحكاية الخرافية ، بناء على تحليلها المورفولوجي ، تهدف الى زواج البطـل الذي كثيرا ما ينتمي الى بيئة فقيـرة ، من الأميرة ٠ وقد تهدف الى حصول البطل على الادوات السحرية من اجل القضاء على القوة الشريرة ٠ ولكن تحديد وظيفة الحكاية الخرافيـة على هذا النحو لا يفسر كثيرا من جوانبهـا الغـامضة ٠ فاذا كانت الحكاية تهدف الى زواج البطل من الاميرة او البطلة من الأمير، فلماذا تصور الحكاية تلك الاميرة مهددة من قبل المارد ، ويتحتم حينئذ على البطل ، لكي يتزوجها ، ان يقضي اولا على هذا المارد ؟ ولماذا تكونهذه الفتاة في بعض الاحيان أسيرة العالم السفلي ؟ او لماذا تكون مسحورة في شكل ليمونة ثم تتحول فجأة الى فتاة سـاحرة ؟ ولماذا يقضي على الفتاة أن تتزوج من رجل مسحور على هيئة حصـان ويتحتم عليها الا تكشف سره ، والا اختفى من حياتها بعد ان تكون قد تعلقت به ؟ ثم ما معنى ظهور تلكالشخصية الغريبة في حياة « كشكول دهب »، وحرصها على ان تبعد عنها ولديها وأن تمسح فمهـا بالدم لكي تثبت لمن حولها أنها قد التهمت ولديها ؟

كل هذه الاسئلة تبدو بعيدة عن موضوع زواج البطل بالاميرة ،

او حصوله على الادوات السحرية ٠ ولكن حيث انه يتحتم على بطل الحكاية الخرافية ان يعيش هذه الجوانب الغامضة الغريبة ، فاننا نخلص من ذلك الى ان هدف الحكاية الخرافية لا يتمثل ، كما يبدو ، في زواج البطل بالفتاة المسحورة او بالاميرة ، كما لا يتمثل في حصوله على الادوات السحرية من اجل القضاء على القوى الشريرة ، بل انه يتمثل اكثر من ذلك في وصف رحلة البطل الشاقة ، وفي الكشف عن هذا الباعث الذي يدفعه الى اكتشاف مصيره ٠ واذا كانت الحكاية الخرافية تنتهي دائما بالنهاية السعيدة ، فذلك لانها ، كما قلنا ، تمثل نوعا محددا من القصص الشعبي الذي يسعى الشعب عن طريقه الى خلق تلك الصورة المثالية التي تحقق له الامل الذي يراوده ، في ان يصبح الناس في هذا العالم صورة اخرى من بطله المحبوب ، ذلك البطل الذي يتسم بالبطولة وبالتفاؤل والايجابية في سلوكه ، ويصور بعد كل هذا ، قدرة الانسان على ان يتخطى كل ألم وكل شر ٠ وهذه الصورة يحبها الشعب ويصورها في حكاياته الخرافية ، لا لانه يعتقد ان مثل هذه الحياة لا تتحقق الا في عالم الخيال بل لانه يؤمن بأن هذه هى الطبيعة الاصلية للحياة ٠ فالحياة كاملة كمال الطبيعة ، واذا كان الانسان قد صور ذات يوم كمال الكون في اساطيره فانه قد عاد ليصور كمال الحياة في حكاياته الخرافية ٠

ان الحكاية الخرافية لا تتحدث الينا من خلال الفاظ ، ولا من خلال الحركات المتتابعة لرحلة البطل ، بل انها تتحدث الينا أكثر من ذلك من خلال الصور ٠ وهذه الصور مصنوعة بكل دقة ، بحيث تكشف لنا بكل جزئياتها عن العالم الداخلي للانسان الشعبي ٠ ومعنى هذا انه اذا حاول الاديب الفرد ان يغير من هذه الصور بالحذف او الاضافة ، او التحوير فانه يفقدها وظيفتها الاساسية ٠

وليس من اليسير ادراك مغزى صور الحكاية الخرافية لاول وهلة، وذلك لانها مغلفة بمضامين عميقة عمق العالم الداخلي للانسان ٠ ولعل هذا يفسر لنا كثرة الابحاث التي نشأت حول الحكاية الخرافية منذ

نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم · وسواء اهتمت هذه الابحاث بشكل الحكاية الخرافية ام بمحتواها ام بتفسير رموزها ، فانها جميعا تسعى الى تفسير مغزى صورها الغريبة ، وتكوينها الفني الوثيق ·

وقد سيطرت في مجال دراسة الحكاية الخرافية مدرستان ، المدرسة الاسطورية والمدرسة النفسية · اما المدرسة الاولى فقد حاولت ان تدرس العلاقة الوثيقة بين الاسطورة والحكاية الخرافية ، ذلك ان الحكاية الخرافية من وجهة نظر هذه المدرسة ليست سوى بقايا معتقدات اسطورية قديمة· ومن هنا اخذت هذه المدرسة تشرح علاقة بطل الحكاية الخرافية بالنبات والحيوان والجماد ، على اساس ان عملية التشخيص التي ينظر الانسان من خلالها الى النبات والحيوان والجماد ليست سوى أثر من بقايا الديانات القديمة كالديانة الطوطمية والفتيشية والروحانية (١) · وقد تزعم هذه المدرسة بحق « يعقوب جرم » ، ثم مثلها من بعده « تايلور » « ولانج » · ويمكن ان نقول ان دور هذه المدرسة قد انتهى بانتهاء عملها الذي لم ينكره احد من الباحثين من بعد ·

اما المدرسة الثانية التي ما تزال تؤدي دورا رئيسيا في تفسير مغزى رموز التراث الشعبي ، فهي المدرسة النفسية · وقد برز في مجال الدراسات النفسية مدارس ثلاث : اما المدرسة الاولى فهي مدرسة « فرويد » وهي التي تسمى بمدرسة التحليل النفسي · واما المدرسة الثانية فهي مدرسة « ادلر » ، التي تسمى بمدرسة علم النفس الفردي ، واما المدرسة الثالثة فهي مدرسة « يونج » ، وهي التي تسمى بمدرسة علم النفس التركيبي او علم النفس التحليلي ·

وفيما يختص بتأثير هذه المدارس في الدراسات الشعبية ، فاننا

(١) انظر فصل « اصول الحكاية الخرافية » في كتاب « الحكاية الخرافية » ترجمة المؤلفة (القاهرة ١٩٦٤) ·

نستبعد المدرسة الثانية حيث انها لم تتعرض لجوانب الانتاج الشعبي كما اننا لا نستطيع ان ندعي لمدرسة فرويد تأثيرا كبيرا في تفسير الانتاج الشعبي وعلاقته بالروح الجمعي الخلاق ، حيث ان جهود هذه المدرسة تركزت في ابراز تأثير الجنس في اللاشعور ، وفي مظاهر هذا التأثير في أشكال التعبير الانساني · ولهذا فان تأثير هذه المدرسة لم يتجاوز معمل التحليل النفسي ، كما عبر عن ذلك بعض الباحثين ·

اما المدرسة النفسية التي ادت خدمات جليلة في مجال تفسير أشكال التعبير الشعبي ، فهي مدرسة يونج · ولم يكن اهتمام هذه المدرسة نابعا في الاصل من اشتغال اصحاب هذه المدرسة بالدراسات الفولكلورية ، بل ان هذا الاهتمام نشأ نتيجة تطور نظريات علم النفس ذاته ، فلقد توسع « يونج » من مجال علم النفس بحيث شمل الحياة الانسانية بصفة عامة،وخرج من ذلك بنظريته في علم النفس الحضاري·

وقد بدأ « يونج » اهتمامه باللاشعور كما فعل استاذه فرويد ، ولكنه ما لبث ان انشق عليه عندما انكر عليه فهمه للاشعور بوصفه سلة من المهملات تختزن فيها كل الاشكال المكبوتة ، بخاصة ما تعلق منها بالكبت الجنسي · انما نظر يونج الى النفس الانسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور · وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنوف الكبت النفسي فحسب ، بل انه يحتوي على ما هو اهم من ذلك بكثير ، وهو القوة الدافعة الى تكييف الانسان لحياته بصفة عامة · وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل ، وهي التي تنظمها ، على نحو ما يظهر في اشكال التعبير الشعبي ، وهي التي تقف وراء اختلاف اشكال السلوك البشري في الحياة الفردية ·

اللاشعور اذن عند يونج يتكون من عنصرين : عنصر فردي وعنصر جمعي · اما العنصر الفردي فهو ما تحدث عنه فرويد واهتم به ، وهو ملك للانسان الفرد · اما العنصر الجمعي فليس ملكا للفرد ، ولكنه ملك للناس جميعا ، او على الاقل ملك لشعب بأكمله · وليس محتوى هذا اللاشعور الجمعي حصيلة حياة فردية ، بل انه نتاج صور

من التأمل مولودة مع الانسان ، وهو ما سماه يونج «بالانماط الاصلية» وهذه الانماط الاصلية هي التي تكون العنصر الحقيقي للروح الانساني، ذلك لانها هي التي تكيف الشعور وتحركه وتغيره ، بل انها كذلك تكيف الغرائز · وعلى الرغم من ان الانماط الاصلية والغرائز متعارضة للغاية ، الا انها مرتبطة بنظام معين ، ذلك ان القوة الخلاقة في الانسان انما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين قوة الانماط الاصلية من ناحية وقوة الغريزة من ناحية اخرى (١) ·

وحيث ان الانماط الاصلية تعد جزءا من تركيبنا اللاشعوري ، لا ندرك منه الا تأثيره ، فان يونج صور طبيعة هذه الانماط بانها معنوية غير ملموسة · ولا يجوز لنا ان نخلط ، كما يقول ، بين الانماط الاصلية من ناحية والتصورات والخيالات النابعة منها من ناحية اخرى · ذلك لان الانماط الاصلية ليست سوى دواقع ، وهذه الدوافع هي التي تفتح الطريق امام قوة التخيل ، وتستدعي اشكالا من الخيالات تظهر في الاحلام او في التعبير الادبي او في حالة الامراض النفسية ·

وكما اختلف يونج عن فرويد في فهمه للاشعور ، كذلك اختلف عنه في فهمه للاحلام · وعلى الرغم من انه استعان بالاحلام ، كما فعل فرويد من قبل ، في تحليله النفسي العملي ، عاد واختلف معه في فهمه لطبيعة الحلم ، ومن ثم في الهدف من الاستعانة بتحليل الاحلام في التحليل النفسي ، فليس الحلم مستودعا للتجارب الجنسية المكبوتة كما رأى فرويد ، بل انه يشارك الى حد كبير في تحقيق الاهداف المستقبلة ، ذلك انه يمثل حالة من التقارب بين الشعور واللاشعور · والسبب في هذا هو ان الحلم ، الذي يعد تعبيرا لاشعوريا يقع بين اليقظة والنوم ،

....

1) Hans E. Giehr I : Volksmârchen und Tiefenpsychologie, München, 1970, s. 19.

يجمع في تكوينه بين عنصري اللاشعور ، الفردي والجمعي · وهذا العنصر الجمعي هو الذي يتمثل في الانماط الاصلية التي تنطلق من عناصر مهوشة ، وتتحدد في شكل خيالات وصور مختلفة من الممكن تنظيمها في شكل مجموعات تشير الى تلك الانماط الاصلية · وصاحب الحلم في هذه الحالة انما يشبه الرسام الذي يظل يرسم الخطــوط المختلطة حتى تتضح له الرؤية في النهاية في شكل منظم ·

الفرق اذن بين نظرية فرويد الى الحلم ونظرة يونج اليه يتمثل في ان الاول يتساءل : ما الذي يجعلنا نحلم ، في حين ان الثاني يتساءل : من اجل اي هدف نحلم (١) ·

ولقد استعان يونج بتفسير الاحلام في تفسير الحكاية الخرافية · ذلك ان الاحلام والحكاية الخرافية من وجهة نظره تحتوي جميعا على عناصر الدراما ، وهي العرض والنقد والتحول والنتيجة · كما انها تحتوي على الانماط الاصلية التي تتضـــــح في شكل خيالات وصور تنظمها قوة التخيل والفرق الوحيد بينهما ، من وجهة نظره ، هو أن الحكاية الخرافية تأليف فني ذو بناء متكامل · فكيف يمكننا بعد ذلك ان نفسر رموز الحكاية الخرافية في تتابعها مـــع وحداتها الوظيفية ؟ لنبدأ اولا بالنماذج التي قدمناها :

ولا نستطيع ان ندعي في هذا المجال اننا سنطبق حرفيا كل مـــا ذكرته مدرسة يونج بصدد تفسير رموز الحكاية الخرافية ، فمما لا شك فيه ان كثيرا من وجوه التفسير عند هذه المدرسة يتسم بالتعسف ، كما هو الحال بالنسبة لعلماء النفس بصفة عامة ، عندما يهملون النـــص الادبي المتكامل، ويقفون بتفسيراتهم عند حدود الجزئيات · ولعل اوضح مثال على هذا ما قامت به « هودفج فون بايث » في كتابها الموسوعي : « رموز الحكاية الخرافية » (٢) · وعلى الرغم من ان الباحثة تعد من

1) Op. cit., pp. 28-32.

2) Hudwig Uon Beit : Symbolik des mârchens, München, 1965.

أقرب تلاميذ يونج اليه واكثرهم تطبيقا لنظرياته ، فانها تعد في الوقت نفسه من اكثرهم بعدا عن النص الادبي بوصفه وحدة فنية متكاملة ٠

ومع ذلك فان اقتناعنا بنظرية يونج بصفة عامة يدفعنا الى الكشف عن اللاشعور الجمعي في الحكاية الخرافية، وما يكمن في هذا اللاشعور الجمعي من دوافع تدفع البطل الى تحقيق الكل الكامل ٠

لقد ظل البطل في الحكاية الاولى « الليمونات الثلاث » لاهيـــا بعيدا كل البعد عن الاحساس بشدة بالأنا ٠ ومن ثم فقد كان يخرج كل يوم ليتنزه راكبا حصانه وكأن شيئا لا يشغله في هذه الحياة ٠ وكثيرا ما حثه الاب والام معا على الزواج ، اي احداث تآلف بين المتناقضات في النفس الانسانية ، او بين الشعور واللاشعور من اجل الوصول الى الانا الكاملة ، ولكنه كان ينصرف عنهما الى لهوه ٠

ولكن هذه الحالة لا تستمر مع الانسان ، في بداية تكوين شخصيته طويلا ٠ اذ سرعان ما تتحرك بداخله الدوافع الداخلية التي تدفعه الى تحقيق الشيء الكبير ٠ ولكن الاعتراف بهذه الدوافع والرضوخ لها ، رغم قوتها ، ليس بالامر الهين ٠ ذلك ان اللاشعور الانساني لا يحتوي على العناصر الايجابية فحسب ، بل انه يحتوي حتما على عناصر سلبية مثل الغرائز ومثل التأثير السلبي للانماط الاصلية في بعض الاحيان ٠ ومع ذلك فان الشعور لدى الانسان لا يبدأ عمله الا نتيجـة لهذا التضارب والتفاعل بين القوى الداخلية المختلفة ٠ وقد عبرت حكايتنا عن هذه اللحظة الحاسمة بظهور تلك المرأة العجوز ، اي هذا الجزء الغريب الكامن الذي يدفع الانسان الى الوعي ، ودعائها على الابن بعشق الليمونات الثلاث ٠ وابتـــلى الشاب بعشق هذا الشيء المجهول، وصرفه هذا العشق عن اللهو، بل انه كدر عليه حياته٠ولهذا فقد قرر الخروج بحثا عن هذا الشيء المجهول ٠ وهنا يتبين لنا اهمية الوحدة الوظيفية ، وهي الخروج ، في رحلة البطل النفسية ٠ ولم تحاول المرأة العجوز ان تكشف للبطل عن ماهية الليمونات الثلاث ولا عن

مكانها ، ذلك أن الانسان لا يعرف هدفه واضحا مع بداية وعيه ، ولا مفر له من ان يسير في متاهات حتى يتكشف له تدريجا هذا الهدف · وهذه المرحلة وصل اليها البطل عندما قابل الشيخ الكهل ، فهو بلقائه هذا الشيخ اصبح قاب قوسين او ادنى من هدفه · وربما مثل هـــذا الشيخ بوقاره وحكمته النمط الاصلي (١) للاب الــذي يــدفع ابنه الى الاستقلال من ناحية ، ويكون مشفقا عليه من خوض غمار التجارب من ناحية اخرى · وربما كان هذا الشيخ تجسيدا لتلك العمليات الداخلية التي يحسها الانسان في لحظة الاقدام ، بل يسمع صوتها مشفقا عليه ومشجعا له في الوقت نفسه · وعلى كل فقد اتضح هدف الفتى على يد هذا الكهل ، وعلم منه انه سيدخل غابة موحشة ، وانه سيجد فيهـــا الوحوش التي ينبغي عليه ان يلهيها بالطعام حتى لا تفترسه وانه سيجد الليمونات الثلاث معلقة على شجرة ضخمة · وكل هذه الصور انما تشير الى المتاهات التي كانت ما تزال تتمثل في عالم البطل النفسي ، وان كان البطل مدركا لوجودها · وعليه ، لكي يصل الى هدفه ان يجتاز كل هذه المتاهات بما فيها من ظلمات ووحوش ، وهذا الاجتياز لا يمكن ان يتم الا بذكاء ووعي تام ، والا ابتلعته الغابة والتهمته الوحوش ، اي والا ابتلعه اللاشعور واصبح في حالة عاجزة عن تحقيق الانا · فاذا وصل البطل الى هدفه ، فانه يجد الليمونات الثلاث متدلية من شجرة ضخمة · وهذه الشجرة الضخمة هي النمط الاصلي للام الكبرى ، وهو ذلك النمط الذي تمتد جذوره في اعماق النفس الانسانية ويؤتى ثمره يانعا ليقطفه الابن يوما ما ، عندما يحس بالرغبة الملحة في قطفه (٢)·

ولا يعني حصول البطل على الليمونات الثلاث انه قد وصل الى

1) C. G. Jung : Four Archetypes, London, 1972, p. 93, 95-198.

2) C. G. Jung : Four Archetypes, p. 44.

هدفه وانه يستطيع بعد ذلك ان يعود الى بيته ، بل لا بد له من ان يخوض تجربة واعية اخرى لكي يظل محتفظا بهذا الشيء الثمين الذي عثر عليه · وهو لكي يحقق هذا ، لا بد له من ان يستخدم عناصر ثلاثة في وقت واحد ، هي : الاحساس والتفكير والارادة · ولهذا فقد نبهه الشيخ من قبل الى انه لا ينبغي عليه ان يشق ليمونة من الليمونات الثلاث الا اذا كان معه الماء لكي يروي الفتاة التي تخرج له منها · فالهدف الذي يصل اليه يكون في حالة من الجدب بحيث يحتاج الى الماء لكي ينمو ويترعرع · فان لم يجد من يرويه ، فانه يموت · ولكن الفتى وعى كلمات الشيخ بلفظها ولم يعها بمضمونها ، ولهذا فان ادراكه لهذا التحذير كان سطحيا · فلما شق الليمونة الاولى كان عنصرا التفكير والارادة غائبين عنه · ولم يكن آنذاك يمتلك سوى عنصر الاحساس بالرغبة الملحة في معرفة كنه هذا الشيء المجهول · ولهذا فقد فقده لاول مرة · فعندما عاد واستخدم عنصري الاحساس والتفكير معا ، اذ انه فكر في اعداد الماء قبل شق الليمونة الثانية ، فقد الليمونة الثانية كذلك لانه كان ينبغي عليه ان ينتظر حتى يتوافر لديه الماء ثم يشقها بعد ذلك · فلما قرر الا يشق الليمونة الثالثة الا بعد ان يصل الى نبع ، كان معنى ذلك انه بدأ لاول مرة يستخدم اسلحته الثلاثة ، الاحساس والتفكير والارادة · ولهذا فقد نجح في هذه المرة في الحصول على مأربه ·

ولكن عندما خرجت الفتاة من قلب الليمونة ، اي من هذه الثمرة الصغيرة اللاذعة ، الشبيهة بهذا الجوهر الداخلي المركز ، كانت عارية· وقد كان من المستحيل ان تصاحبه الفتاة الى بيته عارية على هذا النحو· وبالمثل ، فان الانسان لا يمكن ان يظل حائزا على ما لم يغلفه برداء من الوعي الكامل بقيمته · وقد كان في وسع البطل ان يغطي فتاته بردائه وان يصطحبها على هذا النحو الى بيته · ولكنه تركها في غير رعاية الى ان يحضر لها الملابس · ومعنى هذا ان وعيه بما يمكن ان يحدث في اثناء غيابه ، كان ناقصا · بل ان تركه لهدفه المنشود الذي خاض من اجله الاهوال معناه انه ما زال يعيش مرحلة من الاهمال الواعي ·

وهذا الاهمال بذاته جعله يخضع لتأثير سحر امرأة عجوز ، في الوقت الذي حلقت روحه وهي الحمامة المسحورة في الفضاء صاعدة هابطة في غير استقرار · وربما كانت الساحرة العجوز تجسيدا للام الكبرى في تأثيرها السلبي · وهذه الام هي التي كانت قد منحته الثمار في باديء الامر ، ولكنه عاد وفقد هذه الثمار ، رغم انه كان قد وصل الى مرحلة كبيرة من الوعي تعينه على الوصول الى الخطوة الاخيرة الحاسمة في مغامرته · ولهذا كان يتحتم عليه ان يظل اسير اللاشعور المظلم مرة اخرى ، وان كان قد نجح في اطلاق روحه (١) من هذه المتاهات الغريبة · وهو لكي يعود فيعيش في حالة من الانسجام الكامل بين شعوره ولاشعوره ، كان ينبغي عليه ان يخلص روحه من السحر · فلما فعل ذلك وصل الى النتيجة النهائية ، وهي قتل تلك القوة الشريرة التي حاولت ان تأسره بحيلتها الكاذبة ·

وبهذا يكون البطل قد وصل الى حالة من الوعي الكامل بعد ان مر بمراحل اربع من التجارب النفسية : المرحلة الاولى عاشها في شبه غيبوبة وان شعر بقوة تدفعه الى التغيير · والمرحلة الثانية اختلط فيها عنصر الشعور باللاشعور ، بحيث لم يكن البطل مدركا تماما لمحتوى اللاشعور · والمرحلة الثالثة وصل فيها الى ادراك كامل لمحتوى اللاشعور ولكن كان جاهلا او بالاحرى مهملا في المحافظة عليه · ثم وصل اخيرا الى المرحلة الرابعة والاخيرة التي استطاع فيها ان يخلص روحه من اسر القوى الشيطانية وان يعيش في حالة التحام تام بين الشعور واللاشعور ·

ومرة اخرى تتحدث الحكاية الخرافية من خلال الصور التي اتقن الشعب الفنان تصويرها · ففي حكاية « الرجل الذي ولد بنتا » ، نجد الحكاية تحكي في مطلعها عن الابنة التي ولدت ولادة غريبة فنبذتها امها

---

1) C. G. Jung : Op. cit., p. 88.

وابعدتها عنها ، وتركتها وحيدة في الخلاء · والابنة في هذه الحالة رمز للوعي الجديد الذي يولد في قرارة النفس دون ان يشعر به احد · حقا ان عبارة الام للاب : « ان كان ولدا لفه في ثوب الحرير واحضره، وان كانت بنتا لفها في ثوب الخيش واتركها » ، تعكس موقفا حضاريا، ولكنها اصبحت عنصرا دخل في تركيب حكاياتنا الخرافية ليصور هذا الشيء الصغير المنبوذ الذي يصبح فيما بعد شيئا كبيرا ·

وهذا الوعي الوليد لا بد له من قوة روحية ترعاه لكي ينمو ويكبر· وهكذا وجدت الابنة الطيور ترعاها حيث طارت بها حتى وضعتها فوق النخلة لتكون بعيدة عن الاذى· وهناك ظلت الطيور تطعمها حتى كبرت· وبعد ذلك اختفت الطيور من حياتها ولم تعد تلعب اي دور بعد انسلمتها لقوة روحية اخرى تستطيع ان تسمو بها وتوصلها الى الأنا ، وهي ابن الملك الذي يمثل في الحكاية الجزء الواعي الذي استطاع ان يعيد الروح المحلقة في الفضاء الى العالم الارضي الواقعي · اذ انه استطاع بالحيلة ان يجعل الفتاة تهبط بالشجرة الى الارض حيث امسك بهـا وتزوجها ، ولكن ابن الملك في حد ذاته يمثل في الحكاية صورة اخرى لهذ االوعي المبكر الذي يمكن ان ينخدع بالعناصر السلبية في اللاشعور ويعيش مرة اخرى معها في صراع · فالابنة والابن في هذه الحالة ، يمثل كل منهما بالنسبة للآخر تلك الدوافع المعنوية التي ما تزال تدفع الانسان الى الاحساس بالانا · ولقد سلم الابن الى امه زوجته لكي ترعاها في اثناء غيابه ولكن الام اساءت اليها وعذبتها، حتى استطاعت ان تخدع الابن وتتزوجه· ومعنى هذا ان الابن بتسليمه العنصر الروحي لامه وابتعاده عنه ، كان يتحتم عليه ان يعيش مرحلة من الانتكاس ، بعد ان رضخ للجانب السلبي للنمط الاصلي للام·ولكن الجانب الروحي للابن لم يكن قد قضي عليه ، بل كان يعيش في قصر مواجه له · اي انه كان قريبا منه ، يعيش في حالة من النضرة والبهاء · اذ كانت حديقة قصر الابنة تحتوي على الاشجار التي تثمر على مدار السنة · وقد يسر هذا القرب للابن ان يتعرف على جانبه الروحي وان يلتحم بـه · ولكن هذا لا يتم الا بعد ان يقتل القوة المعوقة له في حياته ، اي ان يقتل

ونلاحظ ان الام حملت من الابن ، ولكن مثـــل هذا الالتحام بين الجانبين المتعارضين اي بين الجانب المشرق المضيء والجانب المظلم ، لا يمكن ان يتولد عنه وعي جديد الا اذا قتل الجانب المشرق الجـانب المظلم ولهذا فقد قتل ابن الام جنينا في بطنها قبل ان يقدر له ان يخرج الى الحياة ٠

ان حصول الانسان على مقدرة جديدة توصله الى الأنا ، لا يعني نهاية الصراع بين الشعور واللاشعور ٠ بل انه يعني بدايـــة التعرض لمتاعب جديدة توصله ، اذا انتصر عليها ، الى اكتساب قدرات اخرى ٠ وهذا ما تعبر عنه حكايتنا من ان حصول الابن على الابنة وزواجه منها لم يكن سوى مرحلة من النجاح سلمته لمتاعب اخرى لكي يفوز بنجاح اكبر ٠ والا فقد كان من الممكن لحكايتنا ان تنتهي بزواج ابن الملك من الابنة وعيشهما بعد ذلك في التبات والنبات ٠

وكثيرا ما تعبر حكاياتنا بصورة او بأخرىعن هذا الشيء الصغير التافه الذي يصبح بعد ذلك شيئا كبيرا ٠ فحكاية « عقلة الصباع » نمط معروف في حكاياتنا العربية ، بل انه نمط منتشر في جميع انحاء العالم ٠ ولم يولد « عقلة الصباع » على نحو ما هو عليه الا لان الام التي لم ترزق بأبناء ، تمنت ان يولد لها ابن ولو كان عـلى هيئة عقلة الصباع ٠ ثم تستمر الحكاية فتبين كيف ان هذا الشيء الحقير التافه قد صنع المعجزات ٠

ويحكى في هذا النمط كذلك ، ان الاب كان متزوجا من زوجات ثلاث ، وانه سافر ذات يوم وسأل كلا منهن عن مطلبها ٠ فطلبت كـل واحدة منهن ان يحضر لها رمانة ٠ فأحضر لهن الرمانات الثلاث ٠ ولكنه بينما كان عائدا في الطريق ، قابله شخص طلب منه ان يشرب ٠ ولما لم يكن لديه ماء فقد قدم الزوج اليه نصف رمانـــة لكي يرتوي

بعصيرها · وهكذا عاد الزوج برمانتين ونصف رمانة · وكان لا بد ان يكون نصف الرمانة من نصيب احداهن بعد ان القى الزوج بالثمار حتى تأخذ كل منهن نصيبها · ومعنى هذا ان احداهن قد ظلمت ، بخاصة وانها ولدت بعد ذلك نصف طفل هو « نص نصيص » · وخرج « نص نصيص » ذات يوم مع اخويه الكاملين ، ولكنهم ضلوا الطريق ، ثم وجدوا انفسهم بعد ذلك في بيت الغولة · وفي حين وقف الاخوان السليمان عاجزين عن فعل شيء ، اخذ نص نصيص يدبر الحيل حتى استطاع ان يقتل الغولة وان يحملها الى اخويه في جوال ·

فالنص نصيص او عقلة الاصبع او الفار الذي تلده الام في بعض الاحيان ، تمثل جميعا صورا تثيرها الانماط الاصلية المستكنة في اللاشعور او بعبارة اخرى تلك الدوافع التي تتولد في الانسان في لحظة من الزمن ويتولد عنها ذلك الشيء غير المكتمل · اما الاخوة الاصحاء فهم يمثلون الشق الواعي في الانسان ، الذي يقف باهتا عاجزا عن الحركة ، ما لم يلتحم مع الدافع الداخلي الدفين الذي يستطيع ان يحقق المعجزات للانسان ·

ولقد ألفنا في حكاياتنا الخرافية ان البطل الذي يقدر له ان يهبط الى العالم السفلي ، سواء أكان ذلك نتيجة حيلة دبرت له ، ام نتيجة رغبة شخصية منه ، انه يصعد من العالم السفلي او من اعماق البحر بعد ان غنم شيئا · ولكن الابنة في حكاية « البنت التي تزوجت كلبا » قد ظلت مستقرة في العالم السفلي بعد ان تزوجت من ملك ذلك العالم · وهذا يدفعنا الى البحث عن مغزى هذا النمط الفريد في حكاياتنا ·

فلقد قابل الرجل الحطاب وابنته رجلا مجهولا بصحبة كلب · وسأله الرجل عما اذا كان يفضل ان يزوج ابنته منه ام من الكلب · ولما علم الاب بعد ذلك ان الكلب ليس سوى ملك العالم السفلي المسحور في هيئة كلب ، وان الرجل المصاحب له ، يعمل خادما لهذا الملك ، فضل الاب في هذه الحالة ان يزوج ابنته من الكلب وليس من الرجل · ومن

المعروف ان الحيوان المسحور في الحكايات الخرافية يرمز الى هذا الجزء الغريزي او البهيمي الذي يمكن ان يقود الانسان الى متاهات اللاشعور المظلمة · وهكذا شاء الاب لهذا الجزء الواعي الذي كان ينبغي ان يدخل مرحلة جديدة من النمو وهو الابنة ، شاء له ان يهبط الى العالم السفلي لكي يعيش فيه الى الابد · وقد كان من الممكن ان يوافق الاب على زواجها من خادم هذا العالم المظلم الذي بدا على الاقل في هيئة انسان ، ولكن الخادم الحقير بدا له شيئا تافها امام بهاء الملك وان كان ملك العالم السفلي ·

وعلى الرغم من ان الاب قد حصل على الثروة وعلى الادوات السحرية مستغلا في ذلك وجود ابنته في كنف ملك العالم السفلي ، فانه قد حقق هذه الثروة وهو يعيش في حالة من الانعزال عن عالمه الداخلي الدفين · ومعنى هذا انه لم يحقق سوى النجاح السطحي ، اما النجاح الحقيقي فلا يتم الا عندما يتعرف الانسان على خبايا لاشعوره ويهيىء لها ان تطفو الى السطح ، مستجيبا في ذلك الى الدوافع الداخلية ، وبذلك يتحقق الالتحام بين اللاشعور والشعور ، الذي يترتب عليه الوصول الى الانا · وعلى عكس هذه الحكاية دفع ابن العم ، في حكاية أبناء العم الثلاثة الى العالم السفلي من خلال البئر · ولقد دفعه الى الدخول في هذا البئر ابنا العم من اجل البحث عن المال المفقود · وابناء العم في هذه الحالة يمثلان جزءا من الشعور الذي لا بد ان يرضخ يوما لمطالب اللاشعور الذي يحتوي على كنوز دفينة · ولكن هذا الجزء الشعوري في الوقت نفسه قد يحول بين الانسان وبين التعرف على نفسه ، حيث انه يود ان يوفر عليه المتاعب الشاقة ، ويود له ان يعيش الحياة الهينة البسيطة· ولهذا فقد حاول ابناء العم ان يسلبا ابن عمهما كل ما حصل عليه من العالم السفلي من كنوز ، وهي الفتاة الجميلة والسوار · بل انهما شاءا له ان يظل في العالم السفلي تائها ضائعا · ولكن الشاب لم يعتره ادنى خوف من متاهات العالم السفلي ، اي من متاهات اللاشعور الذي يعيش داخل الانسان بدرجة من التركيز بحيث يستدعي دائما ظهور الخيالات المتنوعة · وكان اول ما قابله تلك الفتاة

المعلقة من شعرها ، ففك قيدها وارسلها الى العالم العلوي وبقي بعد ذلك وحده في العالم السفلي يتجول في ربوعه بحثا عن وسيلة يصعد بها الى العالم العلوي حيث تنتظره فتاته · وهذه الفتاة ليست سوى قرينة الشاب فيما يقول علماء النفس · فكل رجل يعيش بداخله قرينة Anima وهي تساوي الجزء الانثوي في الرجل ، كما ان كل امرأة يعيش بداخلها القرين Animus وهو الجزء المذكر فيها (١) وهذا هو بعينه الاعتقاد الشعبي في ان كل ذكر له قرينة في العالم الآخر كما ان كل انثى لها قرين في العالم الخفي · وهذا القرين او القرينة يطلق عليه في الاصطلاح الشعبي الاخ او الاخت · وعندما يتعثر الابن على سبيل المثال او يقع من مكان مرتفع ، تسرع امه وتسمي عليه وتقول : « وقعت على اختك احسن منك » ومعنى هذا انها تخاف من ان تصاب القرينة بأذى ، فيلحق الاذى نتيجة لذلك بالابن نفسه · ويمكننا ان نفسر الاعتقاد الشعبي على نحو علمي ، بأن القرين او القرينة هي جزء خفي في الانسان ولكنه مرتبط به وملازم له ، اي انه يعد جزءا من محتوى اللاشعور · وهو كأي عنصر من محتوى اللاشعور يمكن ان يكون له اثره السلبي او الايجابي ، وفقا لدرجة الوعي وسلوك الفرد مع نفسه·

فاذا كان الابن قد خلص الفتاة من قيد العالم السفلي ، فانه بذلك يكون قد خلص قرينته من قيد العالم المجهول داخل نفسه · وبهذا يمكنها ان تلعب دورا ايجابيا في عالمه المعلوم بعد ان خلصت من العالم المجهول (٢) ولكن حيث ان الفتى سلم قرينته الى الجزء الشعوري الذي يسعى الى ان يعيش منعزلا عن اللاشعور،فانه كان يتحتم عليه ان يكافح مرة اخرى حتى يخلصها من تلك القوة التي تريد ان تستأسر بها ، ثم يعود ويلتحم بها · ثم استمر الشاب في رحلته في العالم السفلي ،

---

1) Jung : op. cit., p. 123, 124.
ثم انظر Symbolik des mârchens, s. 285-301.
2) Symbolik des mârchens, s. 57-60.

فقاده الطريق الى قصر ملك العالم السفلي الذي كان المارد يتهدد ابنته· فأسرع الشاب وقضى على المارد · عند ذاك عرض عليه الملك ان يتزوج ابنته ، ولكن الشاب رفض ، لان فتاته كانت تنتظره في العالم العلوي · وهذه الفتاة الثانية في الحقيقة ليست سوى تجسيد أخر للفتاة الاولى التي كان المارد يتهددها كذلك · وحيث ان الشاب ليس له سوى قرينة واحدة ، فقد رفض ان يتزوج تلك الفتاة · ولكنه طلب من ابيها ان يعينه على الصعود الى العالم العلوي · والاب في هذه الحالة صورة من تلك الصور التي تستدعيها الدوافع الداخلية التي تحاول ان تجذب الانسان الى عالمه الداخلي لكي يتعرف على كنهه ثم تعود وتعينه على الوصول الى عالم الضوء · وربما كان هذا الملك كذلك تجسيدا للنمط الاصلي للاب في حالة سلوكه الايجابي مع الابن · وعلى كل فقد صعد الشاب من هذه المملكة الغريبة بعد ان اعاد اليها السلام والطمأنينة ، وبعد ان حصل منها على الثمار السحرية لكي يستخدمها فيما بعد ضد سائـر القوى المعوقة في حياته ·

ثم تعرف الشاب على فتاته بعد ذلك ، وذلك عن طريق السوار الذي قذفته له داخل البئر ، اي انه عاد وتعرف على قرينته من خلال محتوى من محتويات اللاشعور · وقد كان يتحتم عليه فيما بعد ، لكي يتزوج بها ، ان يخلصها من تلك القوة التي ابت عليه هذا المكسب وشاءت ان تحرمه منه · وهنا استخدم الشاب الثمار السحرية ، واستطاع ان يمسخ ابني عمه في صورة حيوانين ، اي انه دفع تلك القوة القديمة التي كانت تسيطر عليه ذات يوم لان تعيش في الظلمة الى الابد ·

وتنتمي صورة البحر والشخوص التي تبرز منه للبطل ، الى مجموعة الصور التي ترمز الى اللاشعور · فهو يشبه بعمقه وما يحتويه من اسرار ، الغابة والعالم السفلي ، والجبل الشاهق · غير ان رمز البحر يتميز بأنه يشير الى عالم الشعور واللاشعور معا ، فسطحه الظاهري بمياهه الجارية وامواجه المتقلبة ، انما يشير الى الجزء الشعوري المتقلب عند الانسان · اما اعماقه وما تحتوي عليه

من كنوز ومن كائنات غريبة ، فتشير الى ذلك الجـــزء المجهـــول في الانسان (١) ·

ولذلك فكثيرا ما تخرج من عمق البحر سمكة كبيرة ، وهي ترمز دائما للكائن الخير ، وتقوم بدور بارز في حياة البطل · ففي حكايـــة « الصياد والسمكة » اصطاد الاب سمكة كبيرة وتركها في رعاية ابنه ريثما يذهب ويحضر عربة يحملها فيها الى البيت · ولكن السمكة اخذت تفتح فمها وتضمه ، بصورة فهم منها الابن ان السمكة عطشى وتود ان تشرب ، ولهذا فقد اخذ يجرها الى الماء حتى ترتوي · ولكنه فوجيء بعد ذلك ان السمكة تتسرب الى الماء · ومعنى هذا ان النمط الاصلي للاب المتسلط ، وهو هنا يظهر في صورة طبيعية ، قد انتزع جزءا من محتوى اللاشعور عند الابن، وهو السمكة التي تشير دائما الى التجارب الروحية · وهذا الانتزاع حدث مبكرا او انه لم يحدث بصورة طبيعية ، ولهذا فقد انفلت هذا المكنون من يد الابن وارتد الى اللاشعور مرة اخرى · ولم يظهر هذا الجزء اللاشعوري للابن بعد ذلك الا عندما هرب الابن من سلطان الاب · وهنا خرج هذا الجزء من البحر في شكـــل انساني وظل يقتفي اثر الابن حتى ادركه · وكان اول شيء فعله مـــع الابن انه علمه ، اي انه اوصله الى الحكمة · ثم ساعده بعد ذلك على ان يتزوج من ابنة الملك التي تشير مرة اخرى الى القرينة التي ينبغي ان يتعرف عليها البطل ويلتحم بها كي يعيش حياة طبيعيـــة · فلما رفضت ابنة الملك ان تعيش مع الشاب بعد ان علمت ان اباه صيـــاد ، وضع ذلك الشخص المجهول يده في البحيرة التي كان قد صنعها للشاب في قصره،واخرج لابنة الملك سمكا من ذهب، وقال لها هذا ما نصطاده· وهو في ذلك يشير الى الكنوز الثمينة التي يحتوي عليها مكنون هذا البطل· واما الصنيع الثالث الذي حققه هذا الشخص المجهول للبطل فهو انه اوصله الى الثروة ·

---

1) Ibid. s. 36-56.

وبعد ان حقق هذا الكائن الغريب كل هذا الخير للبطل ، عرفه بحقيقته ، وهو على اهبة لان يختفي مرة اخرى في البحر ، وقال له : لقد صنعت في جميلا ، فصنعت لك ثلاثا · : أطفأت ظمأي ، فعلمتك واغنيتك وزوجتك بابنة الملك · ثم اختفى في قاع البحر ، بعد ان قام بدوره كاملا في توصيل البطل الى الانا ·

وهناك كلمة قالها ذلك الشخص المجهول للبطل عندما قابله ، وهي تلقي مزيدا من الضوء على تلك الشخصية الغريبة · لقد قال له : لا تخف فأنا مثلك هربت من ابي اذ شاء ان يعاقبني عندما سكبت له الزيت · وهذه العبارة تشير الى اصالة الانماط الاصلية التي تستكن في الجنس البشري بأسره ، نتيجة اشتراكه معا في خوض تجارب روحية واحدة · وكأن الرجل الغريب اراد ان يقول للشاب بذلك : كلانا طريد وغريب في هذه الحياة ولكننا لن نضيع ما دمنا كنا معا وما دمت استمعت الى نصائحي ووضعت ثقتك في ·

ان الانسان يولد غريبا ويخوض تجاربه وحيدا في هذا العالم · ولكنه عندما يتعرف على نفسه ويحقق الانا الكاملة ، عند ذاك يعود فيعيش مع الوجود بأسره ولا يشعر بعد ذلك بالغربة · وهذا ما عبرت عنه حكايتنا من ان السمكة المسحورة في شكل رجل ، لم تترك الابن الا بعد ان احضرت له اباه ليعيش معه مرة اخرى ·

وفي بعض الحكايات لا يخرج كائن البحر الطيب الى الانسان ويرافقه في حياته ، بل انه يجذبه الى اعماق البحر ويجعله يعيش فيه فترة ثم يخرجه منه بعد ان يكسبه شيئا جديدا · ففي حكاية مصرية(١)، استدعى الاب ابنه قبل وفاته وقال له : هناك نصيحة اود ان اقولها لك قبل ان اموت وهي : « اعمل طيب وارميه البحر » · ثم توفي الاب بعد

(١) هناك رواية اخرى سودانية لهذه الحكاية بعنوان « الفطير » (انظر قصص سودانية صفحة ١٠٣) ·

ذلك • وفهم الابن النصيحة بحرفها ، فكان كل يوم يصنع طعاما ثم يذهب الى البحر ويرميه فيه • ثم اصاب الفقر الابن بعد ذلك ولم يعد يتمكن من تحقيق نصيحة الاب • فذهب ذات يوم خاوي اليدين الى البحر حيث اعتاد ان يلقي بالطعام • فاذا بشخص يظهر له من البحر ويجذبه اليه ويخبره بأنه لا بد ان يرد له صنيعه لانه كان يستقبل منه الطعام الذي يرميه في البحر • وهناك في داخل البحر ، اطلعه على مملكة البحر وجعله يعيش بضعة ايام في سعادة وهناء بالغين • ثم شاء الابن ان يعود الى الارض مرة اخرى • فسأله هذا الشخص ما اذا كان يتمنى شيئا قبل صعوده الى العالم الارضي • فأجاب الابن بأنه يتمنى شيئين ، ان يصبح غنيا وان يعرف لغة الطيور والحيوانات • عند ذاك كتب الرجل بضعة كلمات في ورقة واذابها في قليل من الماء وطلب من الابن ان يشربها • وبعد ذلك سمح له ان يصعد الى العالم العلوي •

وبينما كان الابن جالسا تحت شجرة سمع عصفورين يتحدث احدهما الى الآخر ويقول له : « ان هذه الشجرة يختفي تحتها كنز ، ولكنه لا يظهر الا اذا ذبحت شاة عند مكانه • » فرد عليه الطائر الآخر قائلا : « وهذا الرجل الذي يجلس تحت الشجرة رجل طيب وهو يستحق هذا الكنز • ولكن كيف يمكننا ان نعينه على الحصول عليه؟ »• وعندما سمع الابن حديث الطيرين وفهمه ، ذهب على الفور الى احد اصدقاء والده ، واقترض منه مبلغا من المال واشترى شاة وذبحها عند الشجرة • وفي الحال انفتح له الكنز • ولما وجد ان الكنز كبير للغاية، ذهب واشترى حمارين احدهما ابيض والآخر اسود • ثم اخذ يحمل الكنز على دفعات الى بيته • ولكن الكنز لم يفرغ بعد ، وكان الحماران قد بلغ منهما التعب مبلغه • عند ذلك قال الحمار الاسود للحمار الابيض : « لقد تعبت حقا من حمل الكنز ومن الذهاب والمجيء ، وما زال في الكنز قدر كبير من المال • ما رأيك ان نصطنع اننا تعثرنا في حجر امام نقطة الشرطة ، ثم نقع ويتساقط منا الذهب ؟ عند ذاك سيأتي رجال الشرطة الى الكنز ويستولون عليه ، وبذلك يريحوننا من حمله • » وسمع الرجل حديث الحمار الاسود • فلم يحمله في هذه

المرة بالمال بل حمله بالحجارة · فعندما وصـــل الحماران الى نقطة الشرطة ، سقط الحمار الاسود وتبعثر الحجر · عند ذاك ضربه سيده حتى قام وسار في طريقه مرة اخرى · وما زال هذا الحمـــار الاسود يكيد لسيده ولكن سيده كان يفهم كلامه في كل مرة مـــع الحيوانات الاخرى التي كان قد اشتراها · وفي نهاية الامر باعه سيده الى رجل بخيل لكي يعذبه فينتقم بذلك له منه ·

وذات يوم كان الرجل جالسا مع زوجته ، وامامهما ديكان يتحدث احدهما الى الآخر · وعندما سمع الرجل حديث الديكين ضحك · ورأته زوجته وهو يضحك فسألته عن سبب ضحكه · ولكنه كان قد وعد رجل البحر ، بناء على طلب هذا الرجل ، الا يكشف سره لاحد · ولهذا فان الرجل لم يجب زوجته عن سؤالها · ولكن الزوجة اصرت ان تعـرف السبب والا تركت له البيت · وفي هذه اللحظة تحدث اليه الديك قائلا: « دعها تذهب ، فانها سوف تسبب لك المتاعب ان اخبرتها عن السر · » ولما اصر الرجل ، بناء على نصيحة الديك ، على الا يعطيهـا الجواب الشافي ، تركت له زوجته البيت ورحلت الى اهلها ·

وسعد الرجل بخروجها وعاش بعد ذلك غنيا وفي وفاق مع حيواناته فقد استجاب الابن في هذه الحكاية الى نصيحة النمط الاصلي للاب في ان يرعى داخله · وقد جسدت الحكاية هذه الرعاية في ذلك الطعـــام الذي كان يقدمه الابن على الدوام الى كائنات البحر · فلمـــا شعـر الابن بحاجته الشديدة الى عون هذه الكائنات المجهولة التي طالما قدم لها الطعام ، جاء وجلس عندها لعلها ترد اليه صنيعه · ومعنى هـــذا أنه كان قد اقترب كل القرب من عالمه الداخلي · ثم جذب اليه جذبا فيما بعد · وعندما شاء ان يبرح هذا العالم المجهول ليعيش بوعيه الكامـل في العالم المعلوم ، اعطاه رجل البحر ورقة كان قد كتب عليها بعـض الكلمات ، واذابها في قليل من ماء البحر ، وطلب من الفتى ان يشربها وبهذا يكون قد استوعب طبيعته الداخلية وعرف اسرارها · فلمـــا خرج من البحر كان قد اكتسب الحكمة التي اطلعته على اسرار الكون

المتمثلة في لغة الحيوانات · ولما عرف اسرار الكون بحكمته ،استطاع بعد ذلك ان يحصل على الثروة ·

وكثيرا ما تحكي حكاياتنا عن زواج الابنة برجل طبيعي مسحور في شكل حيوان وغالبا ما يكون حصانا· او تحكي عن زواجها من رجل غير طبيعي · وهذا الحصان ، او ذاك الرجل الذي يبدو فيهيئة غريبة، يبدو في الليل في صورته الطبيعية، ثم يحرم على زوجته الا تبوح بسره والا اختفى · وعليها بعد ذلك ان تخوض الاهوال حتى تعثر عليه · وها هي ذي الحكاية الكاملة لهذا النمط ، لعلنا نستطيع ان نحيل صورهـــا الى لغة تكشف عن احوال النفس البشرية ·

كان للسلطان ابن اطلق عليه الناس اسم «بعرور» لغرابة خلقته· ولما كبر بعرور كف عن الكلام كلية · فنصح السلطان رجل «حكيم» بأن يزوج ابنه «بعرور» حتى ينطلق لسانه بالكلام · وتعب السلطان في ان يجد له عروسا ، واخيرا خطب له بنت الطحان الكبرى · عند ذاك ذهب اليها الغراب ليلة الزفاف وتحدث اليها قائلا : « هل تكونين علـــى هذا القدر من الجمال ثم تتزوجين بعرورا ؟ » « فردت الفتاة عليه قائلـــة : «ان اصروا على زواجي منه قطعت رقبته · « ولما تزوجت بنت الطحان بعرورا ، وكانقد سمع حديثها مع الغراب ، قطع رقبتها قبل ان تقطع هي رقبته ، ثم عاد بعد ذلك الى حالة الخرس · فعاد ابوه وزوجه مـــن الابنة الثانية التي حدث لها ما حدث للابنة الاولى · وفي نهاية الامر زوج السلطان ابنه من ابنة الطحان الصغرى · فلما جاء اليها الغراب وقال لها نفس العبارة التي قالها لاختيها ، اجابته قائلة: « ليكن بعرورا ولكنني راضية به » عند ذاك « طق(١) الغراب ومات» ·

ثم تبين للبنت بعد ذلك ان بعرورا هذا شاب جميل كما يبدو لها في الليل · اما في النهار فانه يعود الى شكله القبيح · وحذر بعرور زوجته من ان تكشف سره والا اختفى من وجهها · وعند ذاك لا يمكنها ان تعثر عليه الا اذا هي انجزت مهمات ثلاث وهي : ان تعيد الحياة لميت والعقل لمجنون وان تمكن انسانا اخرس من الكلام · وعلـــى الرغم من هذا

---

(١) « طق » في العامية المصرية ، معناها : انفجر من داخله ·

التحذير فان الابنة من فرحتها بزوجها لم تستطع ان تكتم هذا السر عن امها لذلك فانها طلبت منها ان تختفي في مكان ما حتى تبصره وهو يعود الى شكله الجميل · فلما فعلت الام ذلك ، اختفى بعرور ولم يعد له اثر عند ذاك خرجت الابنة هائمة علـى وجهها ، لعلهـا تستطيع ان تنجز المهمات التي فرضها بعرور عليها فتعود فتلتقي به ·فظلت تسير وحدها على غير هدى حتى اظلم الكون ووجدت نفسها تجلس بجانب القبـور لتستريح وبعد قليل جاءت امرأة وفتحت قبرا واخرجت منه ميتا · ثـم وضعت في اصبع هذا الميت خاتما ، فاستيقظ في الحال · وعنـد ذاك سألته المرأة ما اذا كان سيتزوجها · فلما رفض الرجل خلعت الخاتـم مـن اصبعه ، فعاد فمات · فادخلته القبـر ورحلت · فاسـرعت ابنة الطحانوجرت وراءها في الظلام وخطفت الخاتم · وفي الصباح رحلت الى اهل الميت ، واخبرتهمان ابنهم ليس ميتا بل هو مسحور · وسلمتهم الخاتم السحري لكي يضعوه في اصبعه فتعوداليه الحياة · فشكرها اهل الميت ودعوها الى المبيت عندهم وقدموا لها الطعام · ولكنها قالت لهم : « لا آكـل مـن اكلكم ولا اشرب من شربكم واديـني صحيت لكم ابنكم » ·

ثم خرجت من عندهم وظلت تسير حتى علمت من بعض الناس بقصة سيدة مجنونة رفضت ان تتزوج رجلا ، فأحال عليها هذا الرجل بعـض السحرة لكي يعملوا لها عملا فتجن · فتركت ابنة الطحان هؤلاء الناس وذهبت الى السحرة واعطتهم النقود الكثيرة حتى يكفوا عن سحرهم · فلما فعلوا ، عادت المرأة الى حالتها الطبيعية · ثم ذهبت الى اهلهـا واطلعتهم على هؤلاء السحرة حتى يحافظوا على ابنتهم من شرهـم · فشكرها الاهل وقدموا لها الطعام ، ولكنها رفضتمرة اخرى وسـارت في طريقها · فلما فاجأها الظلام ، طرقت بيتا ففتحت لها سيدة · ثـم طلبت منها المبيت فسمحت لها وبعد قليل جاء الى هذه السيدة رجـل فأدخلته في حجرتها واخذت تحكى له كيف ان اهلها يرغمونها علـى الزواج من رجل اخر ، لا توده ·ولهذا فهي تصطنع الخرس · ثـم اطلعته على طريقة ذلك ، بأن وضعت خرزة تحت لسانها فلم تعد قادرة

على الكلام · وكانت بنت الطحان تستمع الى هذا الحديث ، فلما اصبح الصباح ذهبت الى اهل هذه السيدة واطلعتهم على سر خرسها · فلما وافقوا على زواجها بمن تحبه ، لم تعد بعد ذلك تصطنع الخرس ·

وبعد ان قامت الزوجة بتحقيق هذه المهمات العسيرة،دخلت حماما لتستحم · وبعد ذلك دخلت حجرة لتستريح وتغطت بسبعة ألحفة · ثم جاءتها امرأة عجوز ووجدتها تبكي فقالت لها : «احكي لي همك وغمك من يوم ما ولدتك امك»· فأخذت بنت الطحان تحكي لها عن قصتها مع زوجها بعرور، عند ذاك اخذت العجوز تحكي لها عن رجل غريب الشكل رأته وهو يدخل مغارة· ثم اخذت تراقبه كل يوم فوجدته يدخل هـــذه المغارةكل يوم · وذات يوم دفعها الفضول لان تدخل وراءه ، فوجـدته يسير في طريق يؤدي الى قصر · وليس في هذا القصر خدم بل بـــه مجموعة من الحيوانات التي تعيش مع الرجل ، وكل شيء في هـــذا القصر يعمل من تلقاء نفسه ، فالابواب تفتح وتقفل من تلقاء نفسهـــا، والفرن يخبز من تلقاء نفسه وهكذا · فاذا خرج الخبز من الفـــرن وجاءت الحيوانات تأكل منه · أمرها الفرن أن تنتظر حتى تعود صاحبة هذا القصر · أما الرجل فانها أبصرته يبكي وينوح على زوجته الغائبة ثم يأمر الابواب أن تبكي معه وكذلك النوافذ ، فاذا بكل شيء في القصر يبكي معه · كانت العجوز تحكي هذه الحكـــاية لابنة الطحان ، وابنة الطحان تستمع اليها في شغف · وكانت كلما استمـــرت في الحكي ، رفعت لحافا من الألحفة السبعة ، حتى رفعتها جميعا · ثم طلبت منهـــا على الفور أن تصطحبها الى هذه المغارة · وما كادت بنت الطحانتدخل القصر حتى أخذت الابواب والنوافذ تضحـــك · فلمـــا سمعها بعرور جاء مسرعا في صورته الجميلة ليستقبل زوجته · ثم عاشا بعد ذلـــك مع أهلهما في التبات والنبات ·

فبعرور في هذه الحكاية ومثله الحصان في القصة اللبنانية «ورد والحصان المسحور»، ليس سوى صورة ممسوخة من اللاشعور الـــذي يتحرك بدوافعه ملحا على الانسان أن يكتشـــف كنهـــه · ولكن الغراب

الاسود ذلك الرمز القديم للشر ، سخر مـــن البنتين الأوليين في أنهما ستتزوجان من ذلك الشخص الغريب · فلما رفضتا الزواج بـه حكم عيلهما بالقتل· اما الابنة الثالثة فقد قبلت ان تتزوج بعرورا ، اي انها تهيأت لأن تدخل مرحلة الكفـــاح في احــــداث التوافق بين الشعور واللاشعور · فلما فعلت ذلك اكتشفت أن زوجها ليس قبيحا ، كما يراه الناس ، بل هو شاب جميل وان لم يظهر على هذا النحو الا في الليل· ومعنى هذا أن الصراع مع النفس من اجل الوصـــول الى الحقيقـــة الواضحة ، ليس بالأمر المرعب ، بل انه يوصل الانسان بكل تأكيد الى الخير والجمال ·

على أن الانسان قد يصل الى محتوى اللاشعور ، ولكنه لا يكون مسلحا بسلاح الحكمة والارادة الذي يمكنـــــه من معالجة مضايقاتـــه النفسية من ناحية ، والاستفادة من كل العناصر الايجـابية الكامنة في لاشعوره من ناحية أخرى · وهنا يكمن الخطر في أن ينفلت اللاشعـــور من الشعور مرة أخرى ليعيش في الجانب المظلم من النفس الانسانيـــة· وهذا ما حدث لابنة الطحان عندما أسرعت وكشفت عن حقيقة بعـــرور في الوقت الذي لم تكن تملك فيه الوسيلة على الاحتفاظ به ، رغم أنـــه بصرها بالحقيقة من قبل · وكان يتحتم على الفتاة بعد ذلك ، لكيتعود الى التعرف على حقيقتهـــا الداخلية ، أن تعيش في متاهات عبرت عنها الحكاية بخروجها هائمة على وجهها في الحياة · على أنه كان يتحتـم عليها أن تتسلح في هذه الفترة بسلاح المعرفة والقـــدرة عـــلى صنـــع المعجزات ، إن هي شاءت أن تظل محتفظة بزوجها في طبيعته الانسانية الجميلة · وهذا ما استطاعت الفتاة أن تحققه بعد جهد بالغ · وهو ما عبرت عنه الحكاية بالرمز عندما أخذت الفتاة تزيح عنها الالحفة السبع لحافا بعد الاخر كلما ازدادت الحقيقة لها تكشفا ·

ثم اننا نلاحظ أن بعرورا قد عاد الى صورته الانسانية بعد ذلـــك على الدوام ، وأن الفتاة رجعت به على هذا النحو الى أهلها ، أي انها عادت بعد كل هذه التجارب لتعيش في الوعي الكامل ·

وهكذا نرى كيف تتحدث الحكاية الخرافيـــة عن تجارب النفس الانسانية من خلال الصور المتتابعة · ولقد بـــدأت هذه السلسلة مـــن الصور بصورة انسان ممسوخ صامت ثم انتهتبتصويره جميلا ناطقا·

فاذا انتقلنا الى حكاية « كشكول دهب » فاننا نجد انفسنا أمـــام نموذج اخر من التجارب الانسانية التي تنكشـــف من خلال صورهـــا الحكايات الخرافية الغريبة ·

فنحن لم نألف في الحكايات السالفة أن الشخصية المهولة قـــد التهمت أحد أفراد الاسرة · فهي قد تتعقبـــه وتتهـــدده · بل انها قد تلتهمه ولكنه يعود ويخرج من جوفها حيا · ولكـــن الكائن المهول فـــي حكاية « كشكول ذهب » الذي تصوره الحكاية بوصفه معلما للأخ ، قـــد التهم أخا البنت ولم يعد للاخ وجود في الحكاية بعد ذلك · فاذا أضفنا الى هذا أن الأخ لم يقم بدور شرير على الاطلاق في الحكاية ، وأن هذه الشخصية الشريرة لم تقتل الابناء كما قتلت الأخ ، بـــل أرجعتهم الى أمهم بعد أن شبوا عن الطوق ، فان هذا يكون مدعاة للتساؤل عنماهية هذه الشخصية التي يبدو على الاقل من ظاهرها أنها شخصية شريرة· وأود أن أؤكد أصالة هذه الحكاية بادىء ذي بدء بأنني استمعت اليهـــا شخصيا من امرأة مسنة · وهذا يدفعنا الى الافتـــراض أن هـــذه هي الرواية الاصلية للحكاية ·

لقد خرجت الفتاة لتبحث عن اخيها ، ولكنها اكتشفت ان «الفقي» كما تسميه الحكاية ، يلتهم أخاها · فلم تعد الفتاة اثر ذلك الى بيتهـــا بل هامت على وجهها · ومعنى هذا أن البنت في لحظة من حياتها قـــد دفعت ، بتأثير روحي ، لان تخرج من قوقعتها ، وهذا ما يرمز اليه في الحكاية بخروجها من البيت · ولكنها فوجئت بقـــوة مهولة تظهر فـــي حياتها وتلتهم أخاها · فهل هذا يمثل عملا شريرا قبل تلك الشخصيـــة المهولة ؟ لا شك أنه بدا للابنة لأول وهلة عملا مفزعا للغاية ولكننـــا اذا ادركنا أن هذا الفعل بعينه هو الذي أوصل الابنة لأن تتزوج بابن الملك، فاننا نفترض أن تلك الشخصية الغريبة ليست سوى دافع قوي مندوافع

اللاشعور ظهر للفتاة لحظة خروجها من قوقعتها للتعرف على ذاتها، ولا بد أن الأخ ، بناء على ذلك ، يمثل قوة القرين الذي قد يكون ، في تأثيره السلبي ، عائقا دون اكتمال الشخصية · وهذا يفسره قتل الأخ نهائيا في الحكاية ·

هذه هي المرحلة الاولى العنيفة في حياة الابنة ، مرحلة انسلاخها في قوة من حالة اللاشعور لتعيش حالة الشعور بقوة الأنا · وليس هناك أبلغ في تصوير قسوة هذه المرحلة من أن ترى الابنة بعينيها أخاها وهو يلتهم ·

ولا سبيل الى تراجع الابنة بعد ذلك بعد أن دفعت الى هذا الطور الجديد من حياتها · ولهذا فانها لم تعد الى البيت ، بل سارت في طريقها على غير هدى ، وهو تعبير عن دخولها في مرحلة ثانية اختلط فيها ما هو مستكن في اللاشعور بما في الشعور بحيث أن الفتاة لا تدرك بوضوح طريقها · وفي هذه المرحلة كذلك ، لا بد من استمرار ظهور تأثير الدوافع الايجابية الكامنة · ولهذا فقد شقت تلك الشخصية الغريبة الحائط وظهرت لها فجأة · وهذا يشير الى الطريقة الغريبة المفاجأة التي يظهر فيها تأثير تلك الدوافع من بين حيطان الحصن الذي يعيش فيه الانسان · ثم سألت تلك الشخصية الابنة سؤالا غريبا وهو: « كشكول دهب ، ايش رأيت فيما عجب ؟ » فردت الفتاة قائلة : رأيت يا سيدي الفقي بيعلم الناس الادب » وهي في ذلك تعبر عن ترددها في الكشف عن الحقيقة ، ومن ثم فانه يتحتم عليها أن تعيش فترة من الاضطراب النفسي عبرت عنه الحكاية بما أحدثته الشخصية المهولة من اضطراب في الدكان الذي باتت فيه في الليلة الاولى ، ثم في الدكان الذي باتت فيه في الليلة الثانية ·

ولكن هذا الاضطراب والخلط النفسي لا يستمران على الدوام في حالة تطور الشخصية السليمة · ولهذا فقد انتهت هذه المرحلة عند

الفتاة بزواجها من ابن الملك ، أي بحـــدوث التـــوافق بين اللاشعور والشعور الذي يرمز اليه عادة في الحكايات الخـرافية بالملك أو ابـن الملك (١)٠ على أن هذا التوافق بينهما لم يكن قد تحقق بصورة كـاملة بعد ٠ ذلك أن هذه الشخصية عادت فظهرت للابنة مرتين بنفس الطريقة الغريبة وخطفت ابنيها ٠ وفي كل مرة كانت تسألها نفس السؤال ، وترد الابنة بنفس الجواب ٠ ذلك أن الفتاة في هذه المرحلة التي أصبحت فيها أما ، وقعت تحت التأثير السلبي للنمط الأصـــلي لـــلأم ، فأرادت أن تستحوذ على ابنيها أي أن تلتهمهم ٠ وهذا ما ترمز اليه الحكاية بفمها الملوث بالدم ٠ ولكن هناك في مقابل ذلك قوة أخرى تدفعها الىابعادهما عنها حتى تكتمل شخصيتهما ٠ وهذا الأمـــر لا يتم في سهولة ويســـر بالنسبة للأم ، بخاصة اذا كانت من النـــوع الذي يسعى بعنـــف الى الاستحواذ على الابن ٠ ولهذا فقد انتزع ابناها منها في قوة ٠

وقد كان نتيجة ابعاد الابنين عن أمهما أن أبعدت الأم نتيجة لذلك عن زوجها ٠ أي أنها أبعدت عن حالة التحام اللاشعور بالشعور التي كانت قد وصلت اليها من قبل ، بعد أن تبين أنها ما تزال قاصرة عـــن الوصول الى ذلك ، على الرغم من أنهـــا أصبحت أما ٠ وعندما عـاد اليها ابناها ، أي عندما استطاعت أن تتخلص من التأثير السلبيللنمط الأصلي للأم ، عادت مرة أخرى الى حـــالة التوافق الواعي بمحتوى اللاشعور ٠

وقد كان يتحتم على الفتاة في كل هذه المراحل الشاقة أنتستعين بالصبر ، وهو ما يحدث حقا في مراحـــل نضـــوج الشخصية ٠ وقد شخصت الحكاية هذا الصبر بوعاء الصبر الذي أحضره لها الـزوج بناء على طلبها ولقد كان الصبر نفسه قد نفذ صبره ، ولهذا فان الفتاة كانت تحت علبة الصبر على أن تتحلى بمزيد من الصبر كما تفعل هي٠

....

1) Symbolik des mârchens, B. II, S. 11,21.

وربما أشار احضار الزوج لعلبة الصبر من العالم البعيد ، الى خوض الشعور في أعماق اللاشعور ليجلب منه وسيلة يستعين بها الانسان في اجتياز رحلة تجاربه النفسية بنجاح وتعبر عن ذلك الحكاية بتلك العبارة الهادفة : « ان جاب علبة الصبر مركبه سارت، وان لم يحضرها مركبه وقفت في البحر واحتارت » ٠

وبهذا تكون حكايتنا قد أحكمت صنع صورها المتتابعة لتحكي لنا من خلالها عن قصة صراع الانسان مع نفسه كما يشعر به الانسان الشعبي ٠

وربما كان من الافضل ، قبل أن نفرغ من هذا الفصل ، أن نشير الى بعض النماذج من ألف ليلة وليلة ، حقا ان النماذج التي سبق أن قدمناها مأخوذة مباشرة من أفواه الشعب ، ولكن تأثير ألف ليلة وليلة على الخيال الشعبي العربي لا ينكره أحد ٠ ومن ثم يحق لنا أن نقدم بعض الصور من هذا النموذج الشعبي القديم ونحاول ان نستكشف مغزاها في ضوء التفسير النفسي ٠

كان هناك(١) رجل غني يمتلك الضياع والاموال ٠ ثم توفي هذا الرجل وترك وراءه ابنا واحدا ٠ ولما كبر هذا الابن اخذ ينفق الاموال في اللهو والشراب حتى اضاع كل امواله واصبح بعد ذلك معدما ٠ ثم خرج لكي يبحث لنفسه عن عمل يقتات منه ٠ وبينما كان جالسا ذات يوم بجوار حائط يفكر في حاله ، برز له شيخ وسيم الطلعة يرتدي الملابس الفاخرة وحياه ٠ فسأله الشاب : هل تعرفني يا عم من قبل ؟ فأجاب الشيخ : لا ، لا اعرفك من قبل ، ولكنني اقرأ في محياك ملامح الاصل الطيب ٠ ثم شرح له الشاب حاله واخبره انه يبحث عن عمل

....

(١) حكاية الرجل الذي لم يضحك قط في حياته من مجموعة «ليتمان» الجزء الرابع ، ص ٣٠٣ ـ ٣١٢ ٠

شريف . فأجابه الشيخ : « يمكنك ان تصحبني لكـــي اسلم لك عمـلا شريفا ، ولكن عليك ان تصغي جيدا لما اقوله لك . انني اسكن في بيت مع عشرة من الشيوخ ولا نجد من يخدمنا . فاذا قمت بخدمتنا ستنال ما ترغب فيه من المال . ولكن هناك شيئا واحدا احذرك منه وهو الا تكشف عن سرنا لاحد . واذا وجدتنا تبكي فلا تسأل عن سبب بكائنا ».
فوافقه الشاب على ذلك وذهب معه لكـــي يقوم علـــى خدمته وخدمة زملائه . وادخله الشيخ قصرا منيفا تنتشر في ربوعه الينابيع ، وتغرد على اشجاره مختلف انواع الطيور بألحانها العذبة . ثم قاده الشيخ الى بهو في هذا القصر تـــــزدان حيطانه بالذهب وفصوص الياقوت والزمرد . وفي هذا البهو جلس الشيوخ العشرة يبكون وينوحون . وكلما خطر ببال الشاب ان يسألهم عن سبب بكائهم ، تذكـــــر تحذير الشيخ اياه فتراجع عن السؤال . وكان الشاب مع ذلك يعيش في رغد من العيش ، اذ كانوا يسلمونه الاموال الكثيرة ويدعونه يتصرف فيها كيفما شاء . واستمر الحال على هذا النحو حتى توفـــي احد هؤلاء الشيوخ ، ثم توفي اخوانه من بعده واحد تلو الآخر ولم يبق منهم سوى واحد . وعندما مرض هذا الشيخ الاخير ، خاف الشاب ان يموت كذلك دون ان يعرف قصة هؤلاء الشيوخ . ولهذا جاءه يوما والح عليه ان يخبره عن سبب بكائهم . فأخبره الرجل بأن قصتهم تعد سرا دفينا لم يطلع عليه احد من قبل . ثم حذره من ان يفتح بابا من ابواب القصر وقال له : « اذا شئت ان تتطلع على سرنا وتتحمل مسؤولية ذلك فافتح هذا الباب » . ثم توفي الشيخ بعد ذلك وظل الابن وحيدا في ربوع ذلك القصر . ولم يستطع الابن بعد ذلك ، رغم تحذير الشيـــخ ، ان يقاوم الرغبة الملحة في فتح هذا الباب المحرم . وعندما وصل الى هذا الباب وجده مغطى بنسيج العنكبوت . ففتحه ونظر في انحاء الغرفة المظلمة.
وفجأة قفز نسر كبير من الحجرة وحمله على جناحيه وطـــار به خارج الحجرة . وظل يطير به حتى اوصله إلى عنان السماء . ثم قذف بـــه فوق جزيرة نائية وطار بعيدا عنه . وجلس الشاب عند شاطىء البحر وهو في حيرة من امره . وفجأة ابصر من بعيد مـــركبا يتهادى على

صفحة الماء · فلما اقترب منه المركب وجده مصنوعا من العاج كما ان مجاديفه كانت مصنوعة من الصندل · فلما ازداد القارب قربا منه رأى عشر فتيات يجلسن فيه ، وكل منهن مثـــل البدر في تمامــه · فلما ابصرنه ، نزلن من المركب واخذن يقبلنه ثم حملنه الى المركب ورحلن به الى ان وصلن الى بلد من البلاد · وهناك ظهر لـــه فرسان يمتطون الخيول · وحمله احدهم على ظهر فرس وسار به الـــى ان وصل الى قصر · وهناك استقبلته ملكة هذا القصر ودعته لكي يقضـــي عندها بعض الوقت · وفي نهاية الامر عرضت عليه ان يتزوجها وان يكون حر التصرف في شؤون القصر على شرط الا يفتح حجرة من حجرات هذا القصر · ووافق الشاب في بداية الامر · ولكن الرغبة الملحة دفعتـه مرة اخرى لان يفتح هذا الباب ، بخاصة ان فتح الباب الاول المحرم قد اوصله الى هذا البهاء · ولكنه ما كان يفتح باب تلك الحجرة ، حتى قفز النسر الكبير بعينه وحمله الى عنان السماء ثم حط به عند شاطىء البحر · وظل الشاب قرابة شهرين عند هذا الشاطىء ينتظـــر عودة الملكة الجميلة ولكنها لم تعد · واخيرا عاد الى قصـــر الشيوخ واخذ يبكي وينوح كما كانوا يبكون وينوحون ·

واول ما يلفت النظر في هذه الحكاية انهـــا قد انتهت بنهايـة مأساوية ولم تنته بزواج الشاب النهائي بالاميرة او المـــرأة الجميلة الجميلة بوجه عام ، كما هو المألوف في الحكايات الخرافية · ومع ذلك فاننا نلاحظ ان احداث الحكـاية مـن الممكن ان تمتد بعد ذلك ، وفقا للتحليل المرفولوجي للحكاية الخرافية فتظهر القوة الخيرة للبطل بعد ان تجاوز المحظور وعوقب على ذلك ، ثم تقدم لـــه العون ، وتعينـه بمساعدة الوسيلة السحرية ، على الوصول مرة اخرى للملكة الجميلة· ولكن هذه الحكاية انتهت على هذا النحـــو لان شهـــرزاد ارادت ان تستغلها في القاء العظة على الملك من ان التسرع في قضـــاء الامور العسيرة ليس محمودا وانه لا يجلب للانسان سوى الندم (١) · ومهما

---

(١) انظر صفحة ٣١٢ الجزء الرابع من ترجمة ليتمان لالف ليلة ·

تكن نهاية الحكاية فانها الحكاية لا شك تنتمي الى النمط الخرافي الذي تنطق صوره بمشكلات الانسان الداخلية · فلقد وصل الشاب الى حالة الفقر المدقع وجلس وحيدا بجوار حائط منعزلا عــــن العالم ، وهـــذا اشارة الى الفقر الروحي الذي وصل اليه والى العزلة النفسية التـــي اصبح يعيش فيها · ثم ظهر له الشيخ الوسيم الوقور وحياه · وليس هذا الشيخ سوى جزء من تكوينه الداخلي ، اي جزء من لاشعوره الذي ظهر له فجأة في لحظة من الزمن كان فيها في اشد الحاجة لظهوره لكي يساعده في حيرته · ثم سأل الشاب الشيخ ما اذا كان يعرفه من قبل· واجابه الشيخ بأنه حقا لا يعرفه من قبل ، ولكنه قرأ في محياه ملامح الاصل الطيب · وبهذا تنطق الصورة بالحالة التي يمكـــن ان يعيش فيها الانسان منعزلا عن لاشعوره ، وان كان احدهما يعرف الآخر حق المعـرفة ·

ثم اخذه الشيخ من يده وجعله يعيش الحياة المستقلة الرغدة · ذلك ان خدمة الانسان للاشعوره لا تعني انه يصبح عبدا لـــه ، بل ان هذا على العكس يوصله الى الاستقلال والوعي · وحذره الشيخ من ان يقحم نفسه ويسأل عن سبب بكائه هو واصحابه ، وقد كان الشيخ بذلك يتنبأ له بالمصير المحزن الذي ينتظره ، ولهذا فقد مثـــل امامه هـــذا المصير لكي يراه رأي العين · ولكن الشاب ظلت تساوره الرغبة الملحة في الكشف عن ذلك المجهول فلما توفي الشيوخ العشرة شيخا تلو الآخر ولم يبق منهم سوى شيخ واحد · اسرع الى هذا الشيخ لعله يستطيع ان ينتزع منه السر قبل ان يلفظ انفاسه ومعنى هذا ان الشـــاب انتهز فرصة غفلة اللاشعور حتى يستطيع ان يرتكب المحظــــور · وارتكاب المحظور في الحكايات الخرافية يشير دائما الى حالـــــة عدم النضج الكامل في التعرف على حقيقة الانا ·

فلما فتح الشاب الحجرة ، قفز اليه نسر مهـــول من جوانبهـــا المظلمة وحمله الى عنان السمــــاء ثم هوى بــــه الى جزيرة نائية · اي ان الشاب طار مع نشاطه الروحي الذي انبثق معه فجأة دون ان

يكون مرتكزا على اساس سليم من التعرف الدقيق على الدوافع الكامنة في نفسه · ولهذا فقد هوى الشاب في الجزيرة النائية ، اي فـــي تلك الظلمات الداخلية التي تهيأت لابتلاعه ·

ومرة اخرى تدفق النور من داخلـــه متمثـــلا في تلك الفتيات الجميلات اللاتي ظهرن له في عرض البحر ، ولكـــنه عـــاد وارتكب المحظور ، ولهذا فقد هوى في قاع الظلمات الـــى الابد بعد ان فقـد كـل شيء ·

وعلى عكس هذه الحكاية نجد حكاية « الاميرة والغول » (١) فقد خرج الامير ليصطاد وحده في الجبال · ثم ظهرت لـــه فتاة رائعـة الجمال وهي تبكي · فلما سألها عن سبب بكائها اخبرتـــه بأن ماردا حملها وطار بها بعيدا ثم هبط بها في هذا المكـــان المجهول وتركهـا وحدها · فأشفق عليها الامير واخذها معه على حصانه · وفي منتصف الطريق طلبت منه ان يتوقف لقضاء امر · فلما عادت اليه وجدها قد تحولت من امرأة رائعة الجمال الى امرأة قبيحة كـــل القبح · فبهت الامير لهذا المنظر وامتقع لونه ووقف بحصانه متبلدا دون حراك · اما الفتاة فقد اسرعت وامتطت وراءه صهوة الحصان فسار الشاب فـي طريقه وهو يتدبر امره · ثم تحدثت اليه الفتاة قائلة : « لماذا امتقـع لونك على هذا النحو ؟ » فأجاب الفتى : « انني افكر في امر قد جلب لي الشقاء » · فردت عليه الفتاة قائلـــة : « فاستعن اذن بجيوش ابيك وفرسانه » · فأجاب الفتى : « ان جيوش ابي لا تستطيع ان تعينني على شقائي » · فقالت الفتاة : « اذن فاستعن بثروة ابيـــك وكنوزه » · فأجاب الفتى : « ان المال بكل اسف لا يستطيع ان يمحو مـــا بالانسان من شقاء » · فقالت الفتاة : « ألم تقل لي عندما قابلتك انك تؤمن بالاله الواحد الذي تفوق قوته كل شيء ؟ اذن فاستعن بـــه لكي يخلصـك

....

(١) ليتمان ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٧٤ ·

مني » • عند ذاك رفع الفتى بصره الى السماء ودعا الله قائلا : « انني الجأ اليك يا الهي لكي تخلصني من شقائي » (٢) • عنـــد ذاك هوت الفتاة الى الارض وهي تحترق حتى تحولت الى كتلـــــة من الفحم • فشكر الفتى ربه واستمر في سيره حتى وصل الى مملكة ابيه •

لقد خدعت الفتاة الامير عندما رآها لاول وهلة جميلـــــة رائعة الجمال ولكنها ما لبثت ان ظهرت له على حقيقتها قبيحـــة كل القبح • ومعنى هذا ان الفتى كان يعيش في وهم فترة من الزمن • فلمـــا بدأت دوافعه الداخلية تتحرك لتدفعه الى استكشاف مجاهل نفسه ، بدت لـه تلك المجاهل مفزعة للغاية وبدأ اثر ذلك يعيش مرحلة من القلق النفسي الذي لم تكن تجد معه حياة الرغد والنعيم التي يعيش فيها • ولهذا فقد اجاب الامير الفتاة بأنه ليس في وسع جيوش ابيه او كنوزه ان تمحو ما به من شقاء • عند ذاك طلبت منه الفتاة ان يستعين باللـــه ، ذلك النمط الاصلي للقوة الكبيرة الخلاقة التي تستكن في نفـس الانسان • فلما فعل الفتى ذلك ، احترقت الفتاة وبهذا تخلص الفتى من اسر ذلك القبح وعاد سالما الى مملكته •

والى هنا تتوقف شهرزاد بأحداث الحكاية لكي تضرب للملك مثلا بغدر النساء • ولا يعني هذا ان جميـــع الحكايات الخرافيـة في الف ليلة وليلة من هذا النمط المبتور ، بل انها تحتوي علـــى كثيـــر من الحكايات الخرافية التي تعد مستوفية لجميـــع الوحدات الوظيفية السابق ذكرها • ومثال ذلك حكاية قمر الزمان وبدر البدور • ويهمنـا ان نشير في هذه الحكاية الطويلة الى الصور التـــي استعانت بهـا الحكاية لتحكي لنا عن هذا التحول المفاجيء الـــذي يعتري حيـــاة الانسان ليقوده من حياة الغفلة الى حياة الوعي الكامل حيـــث يحدث الاتفاق بين قوتي اللاشعور والشعور •

ففي ليلة من الليالي ، بينما كانت بدر البـــدور وقمر الزمـــان

---

(٢) ليتمان ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٧٦ •

مستغرقين في النوم في مكانين منفصلين تماما ، ولـــــم يكن احدهما يعرف الآخر قط ، زارهما جني كلا عى حدة ٠ ولما وجدهما على نحو من الجمال الذي لم يسبق له من قبل ان رآه قط ، فقد شاء ان يجمع بينهما ٠ ومن ثم فقد حمل بدر البدور في رفق وهوادة وجعلها ترقد بجوار قمر الزمان في سريره ٠ فعاش معها قمر الزمان ليلة ممتعة ٠ ثـــم عاد الجني وحمل بدر البدور وارجعها الى مكانها قبل ان ينبثق الفجر ٠ ولكن جوهرة من عقدها كانت قد سقطت في سرير بدر البدور ٠ فلمـــا استيقظ كل منهما في الصباح وتذكر ما عاشه في تلك الليلة ، لم يصدق انه كان وهما او رؤيا ، بخاصة بعد ان عثر قمر الزمان على الجوهرة الثمينة في فراشه ٠

عند ذاك قرر كل منهما ان يخرج باحثا عن الطرف اخر ٠ وبينما كان قمر الزمان يسير راكبا حصانه وينظر الى الجوهرة ، حلق طائر فوقه واختطف الجوهرة وطار بها ٠ فأسرع قمر الزمان في اثره ولكنه لم يتمكن من اللحاق به ٠ وكان كلما اسرع في الجري ، اسرع الطائر فى الطيران ، وكلما ابطأ ابطأ الطائر في طيرانه ٠ فقال فـــي نفسه : عجبا لهذا الطائر ، انني كلما اسرعت اسرع ، وكلما ابطأت ابطأ ٠٠ ثم تستمر الحكاية بعد ذلك في سرد مغامرات كل من بدر البدور وقمر الزمان ، حتى يعثر قمر الزمان على الجوهرة ، ثم يتعرف احدهما على الاخر عن طريق تلك الجوهرة ٠

فقمر الزمان وبدر البدور في هذه الحكاية يمثل كل منهما الجزء المجهول بالنسبة للآخر ٠ وقد احس احدهما بوجود الاخـــر بجانبه في ظلام الليل ، وفي هذا اشارة الى عالم الظلام الذي يعيش فيه الجانب المجهول في الانسان ٠ فلما انبثق الصباح كان احدهما قد عشق الاخر كل العشق ، وبدافع هذا العشق خرج كل منهما ليبحث عن شقه الاخر ٠ ولم يكن عثور احدهما على الاخر بالامر الهين ، بل قد دفـــع كلاهما لخوض مغامرات مهولة ظهرت لهما فيها القـــوى الخيرة والشريرة ٠ بالاضافة الى ذلك ، كان يتحتم على قمر الزمان ان يعثر على الجوهرة

التي كانت تعد الوسيلة الوحيدة التي تعرف احدهما بالاخر · وفي هذا ترمز الجوهرة الى ذلك الجوهر الاصيل في النفس الذي يدفع صاحبه الى الوصول الى الشخصية المكتملة · ولكن الطائر كان قد خطف تلك الجوهرة من قمر الزمان ودعاه الى اللحاق به · ولم يكن الطائر يريد ان يختفي عن عينيه لانه كان كلما اسرع قمر الزمان في الجري ، اسرع الطير في الطيران قدامه وكلما ابطأ قمر الزمان ، خفـــض الطائر من سرعته · ويشير الطائر بصفة عامة في الحكايات الخرافية ، ما لـم يكن غرابا او نسرا مهولا ، الى الروح الانساني الذي يحلـق بالانسان ولكنه لا يتركه · فلما هبط الطائر الى الارض بعد معركــــة بينه وبين طائر آخر ، اي عندما استقر الروح الانساني علـــى ارض صلبة ، استطاع قمر الزمان ان يخطف منه الجوهرة · وبهذا تهيأ للدخول في مرحلة اخرى ، مرحلة التعرف على شقه المجهول ·

ولا تكشف الحكاية الخرافية عن التجارب الداخلية التي يعيشها الانسان من خلال تلك الصور الرائعة فحسب ، بل انها تكشف عن ذلك كذلك في اسماء ابطالها الغريبة في بعض الاحيـــان ، وفي عباراتها الاكليشيهية التي تتميز بالايقاع ·

فكثيرا ما تسمي الحكاية الخرافية ابطالها بأسماء لا نألفها فـي حياتنا اليومية · وهذه الاسماء في الحقيقية ليســت اسماء شخوص بقدر ما هي رموز ، فما معنى « كشكول دهب » ، و « عقلة الصباع » ، و « القمر بين حائطين » ، و « الورد في الاكمام » ، و « فرط الرمان »؟ هذه بعض الاسماء التي ترد في بعض حكاياتنا الخرافية · فان لم ترد هذه الاسماء الغريبة ، فان الحكايات عندئذ تسمـــي ابطالها باسماء عامة ، وان كانت هذه الاسماء في الوقت نفسه تعد اسمـــاء خاصة بالقصص الشعبي مثل الشاطر محمد والشاطر حســن وست الحسن والجمـال ·

وكلمة كشكول تعني في اصطلاح اهل الريف في مصـــر الوعاء

المصنوع من الفخار · والوعاء عند علماء النفس رمز للأنثى · فاذا كانت الحكاية قد ميزت الكشكول بأنه مصنوع من الذهب ، فانها بذلك قد اشارت بادىء ذي بدء الى موضوعها ، وهو الجوهر الانثوي الثمين الذي يطور الفتاة حتى تصبح اما ناضجة · اما عقلـــة الصباع فهو يكاد يكون اسما عالميا لذلك البطل الذي يولد صغيرا تافها ، ولكنه في النهاية يصنع المعجزات ، اي انه رمز للانسان الذي ينشأ غريبـــا بين الناس ثم ما يلبث ان يتعرف على نفسه ويحقق وجوده بينهم · وكثيرا ما يولد عقلة الصباع اثر دعاء الام التي لا تنجب ، لربها ، بأن يرزقها ابنا ولو كان عقلة الصباع · ثم يستجاب دعاء الام كما نطقت به ويولد لها عقلة الصباع ·

اما القمر بين حيطين (حائطين) فهو اسم بطلة احدى الحكايات الخرافية المصرية · وقد ابتلي الفتى في هذه الحكاية بحب القمـــر بين حيطين تماما كما ابتلى الشاب بعشق الليمونات الثـــلاث في حكايـــة « الليمونات الثلاث » · واذا كان الفتى قد ابتلي بعشـــق القمر بين حيطين وخرج ليبحث عنها في البلاد الغريبة ، فهـــذا معناه انه قـــد استجاب كلية للنور المتدفق في نفسه ، ذلك النور الذي يظل فترة من الزمن محجوزا بين اللاشعور والشعور في حالة انعزال كل منهما عـــن الاخر ، تماما كما يقف القمر بين حائطين ·

اما الورد في الاكمام فهي اسم بطلة احـــدى حكايات الف ليلة وليلة وعنوانها قمر الزمان والورد في الاكمام · وربما كان اسم ورد مألوفا لدينا ، فكثيرا ما يتسمى به ابناء اهل الريف ، ولكن الغرابة في ان يكون الاسم « الورد في الاكمام » · والاسم يشير على كل حال الى الفتاة التي اوشكت على التفتح في فترة النضوج · فلمـــا خشي الاب والام على ابنتهما من عواقب هذا النضج ، بخاصة وانها ابدت حبهـــا لقمر الزمان ، قررا ان يعزلاها في جبل سمته الحكايـــة باسم « جبل الثكلى » · وبذلك يكون الاسمان الورد في الاكمام وجبل الثكلى قـــد اجتمعا معا ليشيرا الى فترة بداية نضج الفتاة ، وهـــي الفترة التي

تراقبها فيها اعين الاب والام بحرص بالغ ، الامر الذي يؤدي بها الى ان تعيش في عزلة مع نفسها ٠

وبهذا تسهم اسماء ابطال الحكايات الخرافية على نحو ما رأينا في استجلاء مغزى صورها ٠

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى العبارات الاكليشيهية في الحكايات الخرافية فاننا نجدها كذلك في حاجة الى تفسير في ضوء المغزى المتكامل الذي تهدف اليه ٠ وهنا نعود مرة اخرى الى حكاية « كشكول دهب » لنتذكر العبارة التي ترددت فيها اكثر من مرة في شكل سؤال وجواب ٠ فلقد كان « الفقي » يسأل الفتاة في كل مرة قائلا : « كشكول دهب ايش رأيت فيما عجب ؟ » فترد عليه الفتالا قائلة : « رأيت يا سيدي يا سيدي الفقي بيعلم الناس الادب »٠ فلقد شعرت الفتاة في فترة انفتاحها على عالمها الداخلي ، بدوافع غريبة تشكلت في هيئة ذلك الكائن الشرير الذي يدفعها لان تعترف بأن ما يفعله لا يخدم الا مصلحتها ، وان كان يتحتم عليها ان تحتفظ بسر ما يفعله معها ٠

وكثيرا ما نألف في حكاياتنا الخرافية عبارة ترد على لسان الغول او الغولة عندما يدخل عليهما البطل ويحييهما قائلا : سلام عليكم يا ابونا الغول ٠٠٠ فيرد عليه الغول قائلا : « لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك » ومعنى هذا ان تحية البطل للغول قد حالت دون التهام الغول اياه ٠ وفي هذا اشارة الى الوسيلة الهادئة اللينة التي ينبغي ان يتعامل بها الانسان مع الشخوص الشريرة التي ترمز في الوقت نفسه الى الصراع الذي يحدث بداخله ٠

والمرآة السحرية التي تسألها الشخصية الشريرة في الحكاية الخرافية عن مشكلتها لعلها تجيبها اجابة شافية ، ثم ترد عليها المرآة باجابة لم تكن تتمنى الشخصية الشريرة ان تسمعها ، هذه المرآة ليست سوى الصفحة الرقراقة التي تنعكس عليها كل الحقيقة التي تعيش في

اللاشعور · ولهذا فان زوجة الاب القاسية تسأل المـــرأة ، اي تسأل حقيقتها الداخلية ، قائلة : يا مراية يا هندوان ، انا احلى والا فـرط الرمان ؟ ولكن المرآة لا تجاملها عندما تخبرها بأنها جميلة ولكن فـرط الرمان اجمل منها · ومن هنا تعلم زوجة الاب ان فرط الرمان مـا تزال تعيش رغم انها سعت اليها من قبل ودست لها السم في الطعام · عند ذلك تسعى اليها مرة اخرى وتسحرها في شكل حمامة ثـــم تعود الى بيتها · وتظل الحمامة تطير فوق سطح القصر الذي كانت تسكن فيـه بعد ان تزوجت من الاميرة ويراها ابنها تطير مع سرب مـــن الحمام ، وقد علم انها امه فينادي قائلا : يا حمامي ياما حمامي ، امي ورا والا قدام ، ان كانت ورا تشرب من القلة المسنجرة ، وان كـــانت قدام تأكل رز وحمام » · عند ذاك يرد عليه الحمام قائلا : « امك ورا ورا ، بتبكي على اللي جرا » ·

ولعل اهم ما يلفت النظر في تلك العبارة كلمتا « وراء وقدام » · فاذا كانت امه المسحورة تطير مع الحمام ، فما معنـــى ان يسأل الابن الحمام عما اذا كانت امه وراء ام قدام ؟ ان كلمة وراء تشير بـــلا شك الى التخلف ، اي تخلف الام في اللاشعور · ويـــدل على ذلك انها مسحورة ، اي انها لا تعيش في حالة الوعي الكامل · ولهذا فان الابن يدعو عليها ان تشرب من « القلة المسنجرة » ، ان كانـــت متخلفة في الوراء · اما ان كانت متقدمة فانه يدعو لها ان تأكل الارز والحمام ·

وعندما يتقابل البطل مع الشخصية الخيرة ، بعـــد ان يكون قد عاش التجارب المهولة ، ولم يصل بعد الى هدفـــه ، تقـــول له تلك الشخصية : « احكي لي همك وغمك من يوم ما ولدتك امك » · فهـذه الشخصية الخيرة تطلب منه ان يكشف القناع عن مشكلاته الداخلية فى جميع اطوار حياته ، حتى يمكنها ان تقدم له العون ·

وفي بعض الحكايات يوصف الشاطر محمد بأنه « الشاطر محمـد المسحور اللي عايش بين السبع بحور » وليس هناك افصـــح من تلك

الصورة في التعبير عن انعزال الانسان الطيب الذي يرجى منه الخير الكثير ، في عالمه البعيد العميق في فترة من فترات كفاحه مع نفسه ٠

وهكذا نرى الى اي حد تسهم كل عناصر الحكايـــة الخرافية في التعبير عن هدفها ، سواء كانت تلـك العناصر مرتبطـــة بشكلها ام بصورها ام بلغتها ٠

ان الحكاية الخرافية التي تهدف الى الوصول بالبطل الى الحياة الكاملة الجميلة ، والتي تستخدم اسلوبا سحريا في سبيل تحقيق هذا الهدف ، تعد بلا شك نمطا رومانسيا بين انماط التعبير الشعبي ٠ حقا انها تحكي لنا عن قصة صراع الانسان مع نفسه ، ولكنه صراع يخلو من المعاناة ومن الاحساس بالالم ، لان مصير البطل الجميل مقدر لـــه من قبل ٠ اننا عندما نفهم مغزى رموز الحكاية الخرافية ، نحـس حقا بالمشقة التي يتحتم على الانسان ان يعيشها في سبيل تحقيق الشخصية الكاملة ، ولكن الانسان في العالم الواقعي ، لا يستطيع ان يحقق في سهولة ويسر ما يحققه البطل الخرافي ٠

« الفصل الثالث »

الحكاية الشعبية والتحول الى الواقعية

ان العمل في الحقل الفولكلوري دأب متواصل · فاذا قام الباحث بجمع مادة من التراث الشعبي في فترة من الزمن ، فانه لا يستطيع ان يدعي ان هذه المادة تعكس شخصية الشعب في جميع العصور · فعلى الرغم من ان الجماعة الشعبية تتميز بتكوينها المتماسك وبحرصها الشديد على المحافظة على التراث الشعبي بوصفه كلا ، لانه يعد الوسيلة الوحيدة التي تعبر الجماعة الشعبية من خلالها عن تماسكها، فان الجماعة الشعبية تخضعمن ناحية اخرى،لعوامل التغير التي تعتري حياتها·فاذا استجابت الجماعة الشعبية لهذا التغيير ووعته سواء كان هذا التغيير اجتماعيا او سياسيا ام اخلاقيا ، فانها لا بد ان تعبر عنه تلقائيا في اشكال تعبيرها · ويترتب على ذلك ادراكها لعجز الاشكال القديمة عن التعبير عما يخالج نفوس افرادها · ومن هنا يحدث التغيير في الشكل والمحتوى معا ، وان ظل الشكل الجديد يرتبط الى حد ما بالشكل القديم·ولا تتمثل مقدرة الجماعة الشعبية التي يمثلها الراوي ، على التغيير والتحوير فحسب،بل تتمثل فضلا عن ذلك في خلق الشكل الفني الجديد الذي يعد كذلك استجابة لنمو مقدرتها الفنية ·

ولا يخطىء الباحث الفولكلوري العربي الذي ظل بعيدا عن العمل الميداني فترة من الزمن ، هذا التغيير الذي حدث في حياة الشعب العربي بصفة عامة ، وانعكس بالتالي في اشكال تعبيره · واذا كان لي ان اعبر عن تجربتي الخاصة في جمع القصص الشعبي اليوم ، فانني اشير بادىء ذي بدء الى ان رواية الحكايات قد تحولت من النساء

الى الرجال · كما ان مجتمع القص لم يعد يتكون من الاطفال الذين يجلسون حول جداتهم او مربياتهم ، بل اصبح يضم الرجال والشباب ، فضلا عن الاطفال · ولهذا لم يعد من اليسير على الباحث ان يستمع الى الحكايات الخرافية من النساء العجائز في حين يمكنه ان يستمع الى كثير من الحكايات ذات الطابع الواقعي اذا ما جلس مع جماعة من الرجال في اوقات فراغهم في جلسة طبيعية ، او عندما يجلس مع الرواة المحترفين في اثناء الاحتفال بالاعياد الدينية او المناسبات الاجتماعية · وعندما سألت الراوية « سعاد خميس » في بلدة ادفينا التابعة لمحافظة البحيرة ، عما اذا كانت تجلس بين احفادها وتحكي لهم الحكايات كما كانت العادة في الزمن السالف ، اجابت بعبارة تتسم بالواقعية وقالت : « بنحكي عن هم الدنيا ! » · ومعنى هذا ان الحالة النفسية التي يعيشها الشعب اليوم لم تعد تسمح برواية حكايات السحر والجن التي الفناها وورثناها في تراثنا ·

ونحاول الان ان نتعمق محتوى الحكايات الشعبية لنرى الى اي حد تعبر هذه الحكايات عن الحياة الشعبية التي يعيشها الشعب العربي اليوم ، والى اي حد استطاع الشعب ان يكشف من خلالها عن وجوه النقص في هذه الحياة · وهنا يجدر بنا ان نصنف الحكايات الشعبية التي تمثل جوانب الحياة المختلفة حسب محتواها الى الموضوعات الآتية : حكايات الواقع الاخلاقي ، حكايات الواقع الاجتماعي ، حكايات الواقع السياسي ، حكايات تكشف عن موقف الانسان الشعبي من العالم الغيبي ، حكايات المعتقدات ، ثم الحكايات الهزلية ·

اولا ــ حكايات الواقع الاخلاقي :

واذا كنا قد ذكرنا ان الجماعة الشعبية بناء متماسك لانها اكثر الطبقات ارتباطا باصولها ، واكثرها محافظة على عاداتها وتقاليدها وتراثها الشعبي بصفة عامة ، فانها لهذا السبب تعد اشد الطبقات حرصا على القيم الاجتماعية المثالية ، تلك القيم التي يخشى الشعب

كل الخشية ان تنهار بتأثير الزحف المدني الى المجتمع الشعبي · ومن ثم فان الشعب يستغل حكاياته في تأكيد تلك القيم تارة ، وابراز العيوب الخلقية التي يرى انها بدأت تتفشى في مجتمعه تارة اخرى ·

فبينما كان الاسد والذئب يتجولان ذات يـــوم ، اذ ابصرا رجلا نائما تحت شجرة يكاد يلفظ انفاسه من الجوع · عند ذاك امر الاسـد الذئب بأن يدخل الحديقة المجاورة ويحضر مــــن شجرها بعض ثمار العنب ليعصرها في فم الرجل حتى يقوى على الحركة · ففعل الذئب ذلك واخذ الاسد يعصر له الثمار في فمه · ثم امر الاسد الذئب بعد لذك ان يصطاد غزالا ، وان يشويه حتى يطعمه للرجل · فأخذ الرجل يلتهم الغزال المشوي في نهم ، وبذلك استرد قوته وشكر لهما صنيعهما · ثم اخذ الاسد والذئب بعد ذلك يفكران في البحث عن عـــمل للرجـــل يستطيع ان يكتسب منه رزق يومه · فجاءا الى مكان يعبر الناس منــه السكة الحديدية ، وقطعا الاشجار واقاما حاجزا عنــد جانبي هــذا الطريق · ثم امر الرجل ان يقف حارسا لهذا الطريق ويطلب مـن كل من يريد عبوره اجر هذا العبور · ثم اختفى الاسد والذئب بالقرب من هذا الطريق · وعندما جاء الناس ليعبروا الطريق كالعـــادة ، طلب الرجل منهم اجر العبور · ولكنهم رفضوا ان يدفعوا لــــه اي شيء بدعوى ان الطريق ملك لعامة الشعب · عند ذاك برز الاسد والذئب من مخبئهما وهددا الناس بالتهامهم ان لم يدفعوا اجر العبور · فـدفع الناس اجر العبور صاغرين · فلما شاع هذا النبأ في القرية ، لم يعد احد من المارة يعارض بعد ذلك في دفع الاجر · وعندما اطمأن الاسـد والذئب الى ان عمل الرجل يسير على ما يرام ، ودعــاه ورحلا الى مقرهما في الغابة · وبعد عام تذكر الاسد والذئب صاحبهما وقـررا زيارته ، ولكنهما شاءا الا يذهبا اليه خاويا اليدين · فاصطادا غزالا وقاما بشوائه واخذاه معهما ورحلا الى الرجل · وعندما وصلا الـى طريق العبور الذي يقف عنده الرجل ، حيياه من بعيد وطلبا منه العبور اليه · ولكن الرجل طلب منهما اجر العبور · فذعر الذئب والاسد واخذ ينظر احدهما الى الاخر في دهشة · عند ذاك ذكر الاسد الرجل بقصته

معهما ، وانهما قد انقذاه من الموت وبحثا له عن هذا العمل الذي اثرى من ورائه ، ولكن الرجل لم يأبه بهما وأصر على ان يدفعا اجر العبور. عند ذاك امر الاسد الذئب ان يهجم على الرجل وان يمزقه شر ممزق . ففعل الذئب ذلك ، ووجد مكتوبا على جمجمته : « ابن العرب لما يشبع ما يطمرش فيه » .

فهذا ما يخشاه الشعب كل الخشية ، وهو ان يتنكر الفرد منهم للقيم الاصلية اذا ما تغيرت ظروفه الاجتماعية وحصل على الثروة . ولهذا فاننا نكاد نسمع في كل بقعة تخطوها اقدامنا في الريف حكاية الاصيل والخسيس . والاصيل هو ذلك الذي يسلك في مجتمعه سلوكا ناضجا ، بحيث يراعي مصلحة الجماعة ويجعلها فوق مصلحته . انه الشخص الذي لم يعرف الكذب والرياء والبخل والخسة طريقا الى نفسه ، وعلى عكس ذلك هو الخسيس . فلقد اجتمع الاصيل والخسيس يوما وكان كل منهما يمتلك قدرا من الثروة . فاتفق الخسيس مع الاصيل على ان يرحلا وينفقا من مال الاخير اولا ، حتى اذا نفد مال الاصيل ، اخذا في الانفاق من مال الخسيس . ووافق الاصيل على ذلك، لان اخلاقه الاصيلة حالت بينه وبين الشك في سلوك صديقه . فلما نفد مال الاصيل وطلب من الخسيس ان يبدأ في الانفاق من ماله ، اعترض الخسيس على ذلك ، وعذب الاصيل كل صنوف العذاب ، ثم تركه ومضى . ثم تحسنت ظروف الاصيل بعد ذلك ، في حين تدهورت احوال الخسيس ، وخرج هائما على وجهه الى ان اوصلته قدماه الى بيت تبدو عليه ملامح الكرم ، اذ رأى الناس يدخلون ويخرجون من « مضيفته ». فدخل البيت واكرمه صاحبه وكان هو بعينه الاصيل . وعندما شاء الخسيس ان يرحل ، قدم له الاصيل مبلغا من المال . ولكنه لم ينس ان يعرفه بنفسه وان يذكره بقصته معه .

وهذا الخوف من التغير المفاجىء في الاحوال الاجتماعية هو الذي دفع الاب في احدى الحكايات الى ان يسدي لابنه النصيحة قبل ان يموت فيقول له : لا تزوج ايا من اختيك برجل كان فقيرا ثم اغتنى ،

والافضل ان تزوجهما من رجلين كانا غنيين ثم افتقرا · وبذلك عبر الاب عن خوفه من ان الثروة المفاجئة التي تهبط على الانسان لا تؤدي بالضرورة الى ثراء في القيم الاخلاقية ، بل ان الانسان في هذه الحالة قد يظل ملتزما بالخسة والوضاعة اللتين توارثهما من اصله الوضيع· اما اذا فقد الانسان ماله ، فان هذا لا يعني فقدانه للقيم الاخلاقية الاصيلة ·

ولا تهتم حكايات الواقع الاخلاقي بابراز العيوب الاخلاقية التي بدأت تظهر في بناء المجتمع الجديد فحسب ، ولكنها تشير من ناحية اخرى الى بعض القيم الايجابية التي يراها الشعب من وجهة نظره مؤدية الى الحياة الهادئة التي يمكن ان يعيشها الفرد في تفاؤل تام ·

فقد طلب الملك من وزيره لحافا طوله متر وعرضه متر · ولكنه اشترط عليه ان يكون هذا اللحاف كافيا لان يغطي جسمه تماما · وهدد الملك الوزير بالقتل ان هو لم يحقق له رغبته · فذهب الوزير حزينا وجلس في مقهى ، واخذ يتدبر امره في كيفية تلبية هذا الطلب · ثم ابصره رجل آخر كان يجلس في نفس المقهى واقترب منه ليسأله عن سبب حزنه · فأخبره بطلب الملك العسير الذي لا يستطيع ان يحققه · عند ذاك طلب منه هذا الرجل ان يصحبه الى الملك لانه في وسعه ان يحقق هذا الطلب له · فأخذه الوزير وذهب به الى الملك · وهناك اخبر الرجل الملك بأنه سيحقق له طلبه على شرط ان يمنحه مائة جنيه · فقدم اليه الملك خمسين جنيها ووعده بأن يعطيه الباقي عندما يحضر اللحاف المطلوب · وفي اليوم التالي احضر الرجل اللحاف وذهب به الى الملك· فقاسه الملك ووجد طوله مترا وعرضه مترا · عند ذلك نام على السرير ومد رجليه وطلب من الرجل ان يغطيه · فلما غطاه الرجل باللحاف لم يصل الا الى ركبتيه · فصرخ الملك في وجهه لان اللحاف لا يغطيه كله· وفي هذه اللحظة ضرب الرجل الملك بعصا كانت معه على ركبتيه· وفي الحال قرفص الملك ركبتيه فغطاه اللحاف كاملا · وتعجب الملك من ذلك وساله : « لماذا فعلت هذا ؟ » فأجاب الرجل : « ألم تسمع المثل الذي

يقول : « على قد لحافك مد رجليك » ٠

هذه الحكاية قد صيغت على هذا النحو لا لتؤكد المثل في حد ذاته فحسب ، بل لتؤكد قيمة المثل ٠ وهذه القيمة الاخلاقية التـــي يحتويها المثل لا يعرفها بطبيعة الحال من يعيش في الرغد والنعيم وانما يعرفها ابناء الشعب الذين يعيشون الحياة في صورتها المتواضعة ٠ ومن ثم كان ينبغي ان يبصـّـر ابن من ابناء الشعب كلا من الملك والوزير بقيمة اخلاقية تغيب عنهما وهي القناعة ٠

وتحكي حكاية اخرى (١) ان ابنا ورث من ابيه ثروة ولكنه فقدها بعد فترة من الزمن ، ولم يعد يملك منها سوى ثلاثمائة جنيها ٠ فأخذ ما تبقى معه من نقود وخرج ليبحث عن عمل ٠ وفي الطريق قابـــل رجلا يعلن عن كلمات حكيمة يبيعها ٠ فطلب منه الابن ان يبيعه بعض حكمه فى مقابل الثلاثمائة جنيها ٠ فباعه الرجل الحكم التالية وهي : « حبيبك اللي تحبه ولو كان دب » ، « ساعة الحظ ما تتعوضش » ، « من آمنك لا تخونه ولو كنت خاين » ٠ واخذ الرجل الكلمات الحكيمة بعد ان دفع الى الرجل اجره وذهب وهو لم يعد يملك شيئا ٠

ولما اظلم الكون ، جلس الشاب بجوار دكان وراح في النوم ٠ وفجأة رأى شخصا غريبا امامه يسأله سؤالا غريبا ، ويقول له : اتحب البيضاء ام السوداء ؟ واحتار الشاب في الاجابـــة ولكنه سرعان ما تذكر الكلمات التي اشتراها ، واجابه قائلا : « حبيبك اللي تحبه ولو كان دب » ٠ عند ذاك اختفى الشخص الغريب ٠ وفـــي الصباح جاء صاحب الدكان ليفتح دكانه ٠ فسأله الشاب عما اذا كان من الممكن ان

---

(١) هذه الحكاية تحكى في اليمن والجزيرة العربية والمغرب ٠ انظر: سلمى الازهرية ، حكايات عربية ، ص ٥٤٢ ٠ اما النص الذي اوردناه فهو عن الرواية المصرية ٠

يجد عنده عملا ٠ فأخذه الرجل ليعمل عنده ٠ ولما توسم فيه الاخلاص والامانة ، تركه يرعى شؤون تجارته وشؤون بيته ريثما يحضر من سفره ٠ فكان الشاب يذهب كل يوم الى زوجة الرجل ويسألها عن احتياجاتها حتى يشتريها لها ٠ وبعد وقت احبت الزوجة الشاب وحاولت ان تراوده عن نفسه ٠ ولكن الشاب تذكر الكلمات التي اشتراها بماله وقال في نفسه : « من آمنك لا تخونه ولو كنت خاين » ٠ ولهذا فقد رفضها ورحل الى حاله ولم يعد بعد ذلك يذهب الى بيت سيده ٠

ولكن الزوجة خشيت ان يكشف الشاب عن فعلها لزوجها عندما يحضر ٠ ولهذا اسرعت الى زوجها بعد وصوله ، واخبرته بأن الشاب الذي وثق فيه وسلمه تجارته ووكل اليه ان يرعى شؤون بيته ، ليس جديرا بهذه الثقة ، لانه شاء ان يراودها عن نفسها ٠ فغضب الرجل وشاء ان ينتقم من الشاب ٠ ولهذا فقد امر الشاب ان يرحل الى جماعة من الاعراب وسلمه رسالة اليهم بعد ان كتب فيها « احضروا الامانة » ٠ وكانت هذه هي كلمة السر التي يفهم منها الاعراب ان يقطعوا رأس من يرسله الرجل اليهم ٠ فأخذ الشاب الخطاب ورحل الى هؤلاء الاعراب ٠ وفي اثناء الطريق صادف حفل زواج ٠ فقال في نفسه لقد اشتريت الكلمات بمالك ويجب ان تعمل بها جميعا ٠ وكان يعني بذلك ان يستفيد من النصيحة الثالثة التي تقول : « ساعة الحظ ما تتعوضش » وعند ذلك دخل البيت الذي اقيم فيه الحفل واخذ يأكل ويشرب مع المدعوين ثم بات هناك ليلتين ٠

ولما تأخر الاعراب في ارسال الامانة الى التاجر ، ارسل اليهم رسولا آخر برسالة يقول لهم فيها « اين الامانة ؟ » ٠ فلما وصل هذا الرسول بالرسالة ، قطع الاعراب رأس الرسول ٠ وبعد وقت وصل اليهم الشاب بالرسالة الاولى ، فسلم له الاعراب الرأس المقطوع ، فأخذها ورحل الى سيده ٠ وفوجىء الرجل التاجر بأن الشاب يعود اليه سالما

وانه يحمل معه رأس الرسول الثاني الذي أرسله في اثره • عند ذاك ادرك التاجر ان هذا الشاب لا بد ان يكون بريئا • فطلب منه ان يصارحه بما فعله مع امرأته فحكى له الشاب الحقيقة • فقتل الرجل امرأته وابقى على الشاب معه في عمله وزوجه ابنته • وبهذا كانت الكلمات الحكيمة خير عون للفقي في حياته بل هي خير عون للشعب في حياته الكادحة • ولا غرابة في ذلك وهو الذي اودع حكمه في امثاله الكثيرة وفي حكاياته •

ومرة اخرى يودع الشعب حكمه حكاياته عندما يتساءل اين العقل ؟ وهو سؤال غريب • ولهذا فقد عجز الرجل عن الاجابة عنه عندما سألته زوجته هذا السؤال ، وخشي الرجل ان يتهور في الاجابة فلا يوفق ، ولا يحوز عندئذ على رضاء زوجته • ولهذا طلب منها ان تمنحه مهلة • وخرج من بيته عله يجد من يكشف له عن الاجابة السليمة عن هذا السؤال • وظل الرجل يسير حتى صادف خيمة في الصحراء فطرق بابها ، وفتحت له فتاة في سن النضج • فسألها : « اين ابوك ؟ » فقالت : « انه ذهب ليسقي الماء بالماء » • وتعجب الرجل من الاجابة ، ولكنه سألها بعد ذلك : « واين اخوك ؟ » فقالت : « انه راح يصطاد الهواء من الهواء » • فازداد الرجل تعجبا ، ثم سألها : « واين امك؟ » فقالت : « انها راحت لتكفر بالله » • عند ذاك بلغ التعجب من الرجل مبلغه وقال في نفسه : « لقد جئت لاحل لغزاً فاذا بي امام ثلاثة الغاز » •

وبعد وقت جاء الاب من حقله يحمل بطيخة ، فعلم الرجل انه كان حقا يسقي الماء بالماء • وبعد ذلك جاء الابن يحمل غزالا ، فعلم انه كان يصطاد الهواء (اي الغزال الذي يجري كالريح) من الهواء • وبعد قليل جاءت الام وهي ترتدي الملابس السوداء وتلطخ وجهها بالطين ، فعلم انها كانت في العزاء ، وانها كانت تعترض بسلوكها مع سائر النساء ، على الموت • عند ذلك ذلك قال الرجل : « الآن قد حلت لي الالغاز الثلاثة ، وبقي لغزي الذي اتيت من اجله » •

وجلس الثلاثة يحيون الضيف ، وتعجب رب الاسرة من ان ابنته لم تقدم للضيف شيئا • ولهذا فقد صاح بها قائلا : « لمـــاذا لم تقومي بواجب الضيافة ، اين عقلك ؟ » وهنا تاهب الرجل لسماع الرد عن هذا السؤال • فردت الابنة قائلة : « انني اقوم بطهي الطعام للضيف ، الا تعلم ان العقل في الصبر ؟ » •

وسعد الرجل بهذه الاجابة ، وعاد على الفـــور الى زوجتـه واخبرها بها •

هذه الحكاية المحكمة البناء ، قد صاغها الخيـــال الشعبي على هذا النحو ليؤكد بها قيمة الصبر في حياتهم • فالانسان العاقل بالنسبة للشعب هو ذلك الانسان الصابر على مشقات الحياة • والعكس صحيح فمن لا صبر عنده ، لا عقل له •

وقد توسع الخيال الشعبي في عدد الغاز الحكاية كما راينا مع ان المطلوب هو حل اللغز الاصلي ، وذلك لكي يؤكد ان الانسان القادر على حل مثل هذا اللغز ، لا بد ان يكون انسانا متسمـــا بالحكمة وان يكون كل ما ينطق به ينم عن تلك الحكمة •

هذه هي الصفات الاصيلة التي تدعو الجماعة الشعبية افرادها الى التمسك بها ، وهي تتمثل في الاصالة في سلوك الناس بعضهم مع بعض ، والبعد عن الخسة ، وفي الاعتراف بالجميل والتحلي بالقناعة والصبر • ويضاف الى هذا الدعوة الى الكرم ، وهي الصفـــة التي اكدت الحكاية الغنائية السابق ذكرها قيمتها في الحياة الشعبية •

وكما تحرص الجماعة الشعبية على تماسك افرادها تحرص كذلك على تماسك الاسرة فيها • ولا تعني الاسرة هنـــا الاب والام والابناء فحسب ، بل تعني الاسرة الكبيرة التي تضم الاجداد والاحفاد معاً •

فهناك حكاية نوبية تحكي ان الاب سعى في زواج ابنه قبل وفاته•

فلما تزوج الابن اقام معه الاب في بيت واحد · وبعد مرور فترة من الزمن تململت زوجة الابن من حميها ، وطلبت من زوجها ان يبعد اباه بأية وسيلة عن البيت · فما كان من الابن الا انه حمل اباه في قفة ورحل به ليودعه في كهف ثم عاد بعد ذلك الى زوجته · ثم كبر هذا الابن واصبح ذات يوم ابا · وفعل معه ابنه تماما كما فعل هو مع ابيه من قبل · وبينما كان ابنه يودعه نفس الكهف ، ابصر في ظلمات الكهف عينين تلمعان وفما يبتسم في مرارة · فذعر الابن وهو يودع اباه · عند ذلك قال له ابوه : « لا تنزعج ، انه ابي الذي فعلت معه ما تفعله أنت الان معي » ·

وشبيه بهذه الحكاية حكاية اخرى تروى في الريف المصري · وتحكي هذه الحكاية ان الام كانت تقيم مع ابنها · وكانت الام كلما تهيأت للنوم في حجرتها الخاصة تقول : « انت جيت ؟ » وهي تعني بذلك ان النوم بدأ يداعب اجفانها · وسمعتها زوجة ابنها التي لم تكن على علاقة طيبة بها ، وهي تردد هذه العبارة كل يوم · فذهبت الى زوجها واخبرته ان امه تعشق رجلا وهي تستقبله كل مساء في حجرتها · ثم جعل الابن ينصت الى عبارة الام · وتهور الابن بعد ذلك وقتل الام · ثم حملها في قفة وراح ليدفنها · وفي اثناء الطريق تعثر في حجر وكاد يقع · وفي الحال سمع صوتا خافتا يقول له : « روح امك يا حبيبي » (١) · ولم يكن هذا الصوت سوى صوت الام التي قتلها بيديه ·

وتعكس بعض الحكايات موقف الرجال من عالم النساء · فتحكي حكاية ان رجلا كتب على دكانه عبارة هي : « كيد الرجال يغلب كيد النساء » (٢) · وذات يوم مرت امرأة امام الدكان وقرأت هذه العبارة،

---

(١) هي عبارة دعاء مألوفة تقولها الام لابنها اذا عثرت قدمه ووقع·
(٢) انظر الزواية اللبنانية في : حكايات لبنانية ، ص ٢١٤ ·

فأرادت ان تلقن الرجل درسا كي يكتب العبارة على حقيقتها وهي « كيد النساء يغلب كيد الرجال » . فجاءته ذات يوم وقد ارتدت احلى ملابسها وتزينت ، واخذت تداعبه وتضحك معه . وفي النهاية طلب منها الرجل ان يتزوجها . فوافقت المرأة ، ولكنها حذرته قائلة : « ولكنك اذا ذهبت الى ابي لتخطبني فسوف يقول لك ان ابنتي خرساء وعرجاء وعمياء . ولكن لا تأبه به ، لانه لا يريد ان يزوجني » . ثم اعطته عنوان رجل اخر غير ابيها وله ابنة بتلك الاوصاف . فلما ذهب التاجر الى الرجل ليخطب ابنته ، حذره الرجل حقا وصارحه بأن ابنته خرساء وعرجاء وعمياء . ولكن التاجر قبلها . فلما زفت هذه الفتاة الى الرجل اكتشف الحقيقة ، واكتشف كذلك لعبة المرأة معه . وبعد ذلك جاءته المرأة اللعوب وهي تضحك ساخرة به وتسأله : « أرأيت اذن ان كيد النساء يغلب كيد الرجال ؟ » ثم عرضت عليه بعد ذلك ان تساعده فى تطليق تلك الفتاة . فأخبرته ان يأخذ امرأته ويعرضها في السوق امام الناس وعند ذاك يتضايق الاب ويطلب منه ان يطلقها . وفعل الرجل ذلك وتخلص من تلك الفتاة ثم عاد وتزوج من الاخرى .

ولا يفوق كيد النساء كيد الرجال فحسب ، بل انه يفوق كيد ابليس . فقد تراهنت امرأة عجوز مع ابليس على ان كيدها يفوق كيده . واخبرها ابليس بأنه سوف يعترف لها بذلك ان هي استطاعت ان تفعل ما يفوق فعله . فذهبت المرأة الى شاب ونفحته بعض النقود ، وامرته ان يصحبها بعض الوقت دون ان يسألها عما تفعله . ووافق الشاب على ذلك . فأخذت الشاب ودخلت عند بائع قماش واخذت تبكي عنده ، ثم قالت له : ان ابني يعشق امرأة وقد طلب مني ان احضر قطعة من القماش ليهديها الى تلك المرأة ، وهددني بالضرب ان لم أحضر له قطعة القماش . فأشفق عليها الرجل واعطاها قطعة من القماش . ثم اخذت قطعة القماش وذهبت بمفردها الى بيت التاجر ، وعند باب البيت اصطنعت انها قد تعثرت في حجر وسقطت على الارض . فأشفقت زوجة التاجر عليها ، وكانت تطل من الشباك في تلك اللحظة ، واخذتها عندها . ثم دخلت لتصنع لها قدحا من الشاي . وفي

تلك اللحظة اخفت المرأة العجوز قطعة القماش في سرير الزوج · فلما عاد الزوج في المساء ورأى قطعة القماش في سريره ، لم يساوره شك في ان زوجته تعشق ابن المرأة العجوز ، ولذلك لم يتوان عن طردها · وخرجت الزوجة من بيت زوجها في الظلام · فقابلتها المـــرأة العجوز واصطنعت الاشفاق عليها واخذتها الى بيتها لتبيـــت عندها حتى يطلع الصباح · وكان الشاب انذاك يستريح في بيتها · عنـــد ذاك خرجت المرأة العجوز واستدعت رجال الشرطة لتستعين بهم على طرد رجل وامرأة دخلا بيتها بدون اذن · فجاء رجـــال الشرطة وقبضوا عـلى الشاب والزوجة واودعوهما السجن ·

عند ذاك ذهبت المرأة العجوز الى ابليس وقالت له : « لقد ربطت وعليك ان تحل » · فأجابها قائلا : « بل عليك ان تحلي حتى اعترف لك بالمقدرة على الاحتيال » ·

وعند ذلك ذهبت المرأة العجوز الى السجن وهي تحمل وعاء على رأسها واستأذنت في زيارة الشاب والزوجة · وهناك في السجن طلبت من الزوجة أن ترتدي ملابسها وأن تحمل الوعـاء وتهرب · وهـــربت الزوجة دون ان يلحظها أحد من الحراس · ولما جاء الحراس بعد ذلك ليصحبوا الرجل والمرأة الى المحكمة ، اخبرتهم المرأة العجوز بأنها قد سيقت مع ابنها الى السجن دون أن تعرف لذلك سببا · فأطلق الحراس سراحها مع الشاب · وبعد ذلك ذهبت الى تاجر القماش وطلبت منـــه قطعة قماش أخرى لأن القطعة الاولى نستهـــا في بيت امـــرأة طيبـة استضافتها عندما رأتها قد سقطت في الطريق · وعند ذلك أدرك الزوج أنه قد تسرع في الحكم بالخيانة على زوجته وعاد فردها ·

فلما علم ابليس بذلك اعترف للمرأة بأنها أشد كيدا منه ·

والمرأة التي يغلب كيدها كيد ابليس ، تستطيع في حكاية أخرى أن تروض الأسد ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تروض الرجل· وفي

هذا تحكي حكاية سودانية (١) أن امرأة كانت تعيش في خلاف تـام مع زوجها · فذهبت ذات يوم الى صديقة لها وشرحت لها حالها معزوجها· عندئذ نصحتها الصديقة ان تذهب الى عراف لعله يستطيع أن يبعد عن بيتها الارواح الشريرة التي تسكنه· فذهبت المرأة الى العراف وعرضت عليه مشكلتها · ووعدها الرجل أن يساعدها على شرط أن تحضر لـه ثلاث شعرات من جسم أسد · وخرجت المرأة من عنده وهي تفكر فـي وسيلة تحضر بها ثلاث شعرات من جسم أسد · فأخذت حملا وراحت إلى الغابة · وعندما هجم عليها الأسد رمت له بالحمل · فأخذ يلتهمه وانصرف عنها · وأخذت المرأة تفعل هذا الفعـل كل يوم حتى ألفها الأسد وأصبح يقترب منها في ود · وذات يوم ربتت المرأة عـلى ظهـر الأسد فوجدت نفسها قابضة على ثلاث شعـرات من لبدته · فأخذتها على الفور وذهبت الى العراف فلما رأى العراف الشعرات الثلاث قال لها : اذا كنت قد استطعت أن تروضي الأسـد ، أفـلا تستطيعين أن تروضي زوجك ؟·

هذه الصفات التي حكم بها المجتمع الشعبي على المرأة ، وعبـر عنها في حكاياته الشعبية الطريفة ، هي التي تدفع الشاب أو والده في كثير من الحكايات كذلك، الى أن يحترس في اختيار الزوجة الصالحة، وفي هذه الحكايات يخرج الابن ليبحث عن زوجة ، ويطرح سؤالا عـلى كل من يتوسم فيها أنها تصلح ان تكون زوجة له · وهذا السؤال هـو: « انت والزمان عليَّ ، ام انت وانا على الزمان ؟ » · فان اجابت « انا والزمان عليك » رفضها وظل يبحث عن غيرها حتى يوفق فيمن تقول له « انا وأنتَ على الزمان » · ثم تتطور احداث الحكـاية بعد ذلك لكي تثبت أن هذه المرأة هي خير من يَعين زوجها في شدته ·

---

(١) انظر قصة العراف في مجموعة « قصص سودانية » صفحة ٦٥·

وفي حكاية أخرى يطلب الأب من ابنـــه أن يتزوج رجلا ، ويحتار الابن في فهم مغزى كلام أبيه ويخرج باحثا عن زوجة · وفي النهـــاية يجد الرجل الذي يفهم مغزى كلام أبيه ويزوجه ابنته · ثم يدرك الابن في النهاية أن أباه كان يعني أن يناسب رجـــلا تتسم تصرفـــاته بالحكمة والرجولة · فمثل هذا الرجل يمكنه أن يردع ابنته اذا ما اساءت الى زوجها ·

وهكذا نرى كيف تقوم الحكايات الشعبية بوظيفـــة أساسية في الكشف عن القيـــم الاخلاقية الفاسدة في المجتمع الشعبي من ناحيـة وفي تأكيد القيم الايجابية المرغوب فيها من ناحية أخرى ·

٢) حكايات الواقع الاجتماعي :

ونحن نعني بحكايات الواقع الاجتماعي تلك الحكايات التي تكشف عن الصراع الطبقي وعن علاقة الجماعات الشعبية بعضها ببعض ·

وقد سبق أن قدمنا حكاية بنت الفـــوال التي كـــان يقابلها ابن السلطان كل يوم ويطرح عليها سؤاله قائلا : « فول ابوك طاب ؟ » فترد عليه : « طاب طاب وأكلوا منه الاهل والاحباب ، وايش وصلك لنـــا يا فردة قبقاب » · فهذه الحكاية بدون شك تكشف عن الصراع الطبقي ، كما انها تؤكد ان ذكاء الانسان الفقير يفـــوق في قيمته ثروة الرجـــل الغني ·

وكثيرا ما تحقق الطبقة الشعبية حلمها في حكاياتها الشعبية الذي يراودها في ان ينتصر الفقير على الغني · ومثل هذه الحكايات غالبـــا ما تبدأ بدايتها الاستهلالية بتلك المفارقة الاجتماعية التي يعيشها افراد الشعب ·

وتحكي حكاية (١) من هذه الحكـــايات أنه كان هنـــاك اخوان ، أحدهما غني وليس لديه ابناء والاخر فقير ولديه ستة من الابناء · فلما قرب العيد طلبت زوجة الرجل الفقير من زوجها أن يذهب الى أخيـــه الغني ليطلب منه قدرا من المال حتى يستطيـــع أن يشتري ملابس جديدة لابنائه · وأطاعها الزوج وذهب الى أخيه مع علمه بأنه لن يعطيه شيئا · وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عاد الأخ الفقير خاوي الوفاض الى زوجته وأولاده · وعند ذاك لم يجد مفرا من أن يخـــرج ليبحث له عن عمـــل مصطحبا معه زوجته وأولاده الصغار · وهناك في ضريح أحد الأولياء ترك أبناءه ينامون ، في حين خرج هو وزوجته للبحث عن عمل· وبعد وقت عادا الى الابناء ليطمئنا عليهم·ولكنهما فوجئا بأن عدد الابناء قد زاد واحدا · فأيقظا الأبناء ليريا الشخص الغريب بينهم وفجأة وقـف لهم شخص كريه الشكل ، ضخم الجثة فسأله الأب عمن يكون · فأجاب بأنه الفقر · عند ذاك قال له الرجل : « يعني ورانا ورانـــا » · ولكن الفقر نصحه بعد ذلك أن يذهب ويحفر ترعة مجاورة لأن صاحب الارض سوف يكافئه على ذلك · فذهب الرجل وأخذ يحفر الترعة بينما كـــان الفقر يقف عن كثب منه ويراقبه · ثم اعترت الرجـل فكرة ردم الفقـر بالتراب الذي أخرجه من الحفر · فلما فعل ذلك واختفى الفقر من وجهه شاء أن يغطيه بحجر كبير حتى لا يصعـــد من بين كومة التراب مـرة أخرى · وبينما كان يرفع الحجر عثر على كنز · فأسرع وغطى الفقـر بالحجر وعاد يحمل الكنز مع زوجته ·

ولما علم الاخ الغني بما وصل اليه اخوه الفقير من ثراء،أسرع اليه ليسأله عن سبب ثرائه ، فقال له الأخ الذي كان فقيرا : « ان شئت ان تعرف السبب ، فاذهب الى كومة التراب التي هناك ، وارفع الحجـر

....

(١) انظر روايات هذه الحكاية في كتاب « حكايات عربية » لسـلمى الازهرية ، صفحة ٥١١ ·

والتراب ، وعند ذلك تعرف السبب · فلما فعل الأخ الغني ذلك هب الفقر ووقف أمامه وأمسك بتلابيبه · فسأله الرجل الغني قائلا : « من أنت ؟ » فأجاب بأنه الفقر فرجاه أن يتركه · ولكن الفقر رد عليه قائلا : لقد كنت قد دفنت منذ زمن ، ولكنك أتيت وأيقظتني ولا مفر من أن أظل ممسكا بخناقك »·

لقد عبرت هذه الحكاية عن أمل الشعب الفقير في أن يذوق الغني البخيل يوما طعم الفقر ، وأن يذوق الفقير الكادح يوما طعم الغنى · واذا كانت الحكاية قد بررت اختفاء الفقر من حياة الرجل الفقير بأنه ردمه بتراب العمل ، أي أنه أبعده عن حياته عن طريق العمل ، فانها لم تقدم مبررا لظهور الفقر في حياة الأخ الغني · والمبرر الوحيد لهذا الفعل في الحقيقة يستكن في نفس الانسان الشعبي الذي لا يرى أنهناك عدلا في توزيع الأرزاق بين الناس ، ومن ثم فهو ينتقم في حكاياته من هؤلاء الأغنياء ·

ان مشكلة الظلم في توزيع الأرزاق تشغل الانسان الشعبي الى درجة أنه يحاول في كثير من حكاياته أن يجد لها تفسيرا · فهو قد ينسبها الى الحظ بأن يحكي أن رجلا فقيرا لم يعد يملك شيئا سوى حماره · فباع هذا الحمار ونزح الى القاهرة · وهناك اشترى لنفسه اردية نظيفة جعلته يبدو محترما بين الناس · ثم دخل دكان تاجر كبير، فأكرمه التاجر وأجلسه بجواره · وفي هذا الوقت كان ابن التاجر الصغير يطلب من ابيه بعض النقود · فأسرع الرجل الغريب وأخرج من جيبه جنيها وأعطاه للصبي ، وحلف على التاجر ألا يأخذ بديلا له· وأخذ هذا الرجل يتردد على التاجر بين الحين والآخر وهو يبدي له هذه المظاهر الخادعة من الثراء · وأخيرا سأله التاجر عمن يكون · فأجابه بأنه ابن أخت حاكم اسطنبول · عند ذاك ازداد قدره ارتفاعا في عين التاجر وتوطدت أواصر الصداقة بينهما · ثم سأل هذا الرجل التاجر ذات يوم عما اذا كان يعرف ابنة رجل من الأثرياء لكي يتزوج بها · وفي الحال زوجه التاجر من ابنة ثرية قد ورثت عن والديها

أموالا طائلة · وبينما كان هذا الرجل يــزور هــذه الفتاة ذات يوم ، أطلعته على ثروتها في خزانتها فأسرع واختلس من الخزانة قدرا من المال ، وقدمه لها مهرا في اليوم التالي ثم تزوجها وعاش سعيدا مــن ثروتها ·

ثم حدث أن حاكم اسطنبول كان يبحث عن ابن اخت له في مصر · ولما كان قد شاع أن هذا الرجل هو ابن اخت حــاكم اسطنبول ، فقــد أسرع حاكم مصر وقدمه له · وهنا افتضح أمر الرجل ولم يجــد مفرا من أن يعترف بالحقيقة لحــاكم اسطنبول · عند ذاك رد عليه هــذا الحاكم قائلا ، وكان قد زاره في بيته ورأى ما هو عليه من ثراء ، «اذا كان الحظ علاك ، مين يقدر يوطيك » · ثم نفحه حاكم اسطنبول قدرا من المال · وهكذا استمر الرجل يعيش في هذا الرغد لأن الحظ شاء لــه ذلــك ·

فتقسيم الارزاق على نحو غير عادل كمــا يراه الانسان الشعبي العربي ، قد اتعبه الى درجة أنه أصبح يعزوه الى الامور الغيبية التي لا يستطيع تفسيرها · ولهذا فقد ربطت حكاية الرجل الذي دخل عباءة شيخ المجاذيب عند ضريح السيدة زينب ، بين ظاهرتي الموت وتقسيــم الارزاق ، على أساس أن كليهما ينتمي للعــالم الغيبي الذي لا حيــلة للانسان ازاءهما ·

وعندما يعجز الانسان الشعبي عن حل هذه المشكلــة ، فأمــا أن يتفاءل ويدعي أن البركة أهم من السعد ، كما هو الحال في حكايــة « السعد والبركة » أو أنه يرسل خطابا مع كلب من الكلاب البلدي الى سيدنا سليمان ، ليسأله عن السبب في أن الكلاب البلدي تأكل النفايات فى حين أن الكلاب الرومي تأكل اللحم والاكل النظيف · وعلى الرغم من أن الكلب لم يعد برد من النبي سليمان حتى اليوم فمــا زال الانسان الشعبي ينتظر الرد ·

وتنتمي الى حكايات الواقع الاجتماعي تلك الحكايات التي تكشف

فى بعض الاحيان عن علاقة الجماعات الشعبية بعضها ببعض · فكما ان الحكايات السالفة تكشف عن موقف الطبقة الشعبية الفقيرة من الطبقة البرجوازية الغنية فان الحكايات الاتية تكشف عن موقف فئة شعبية من فئة أخرى ، وذلك اذا كانت هناك فئة من المجتمع الشعبي تحرص على أن تظل محتفظة بخصائصها · فعلى الرغم من أن القبائل العربية التي نزحت الى مصر منذ الفتح الاسلامي قد ذابت تدريجيا أو ذاب أكثرها فى بناء المجتمع الشعبي الريفي ، فان بعض الاسر التي تنتمي الى هذه القبائل ، ما تزال تحرص على الاحتفاظ بأصلها العربي ، وان كانت تعمل بالزراعة جنبا الى جنب مع الفلاحين · وفي ذلك يقول « جنفود عبد الرحمن » الذي يرجع الى أصل عربي ويشتغل بالزراعة في عزبة الستمائة في محافظة البحيرة في مصر : « مفيش مانع الواحد مننا يتجوز واحدة فلاحة ، بس بناتنا لازم يتجوزوا واحد عربي ، هم ما بيرضوش بالفلاحين · صحيح احنا فلاحين ، يعني بنشتغل في الارض انما الاصل عربي · والبنت عندنا تبقى عايزة تاخد ابن عمها علشان تجيب له ولد عربي انما البنت الفلاحة مفيش عندها مانع تتجوز شاب عربي » ·

وواضح من هذا الكلام أن الفلاح الذي ينتمي الى أصل عربي حريص على الاحتفاظ بسلسلة هذا النسب العربي ·

ولقد أتيحت لي فرصة الاجتماع بجماعة من الفلاحين بعضهم ينتسب الى أصل عربي · وكانت الجلسة طبيعية للغاية · ثم تطرق الكلام حول علاقة الفلاحين المصريين بهؤلاء الذين ينتمون الى القبائل العربية · وفي هذه المناسبة لم أستمع الى كلام تقريري ، بل استمعت الى مجموعة من حكايات يحاول كل طرف من خلالها أن يؤكد خصائص جماعة أو أن يبرر عيوب الجماعة الاخرى فكان الحديث بذلك أشبه بالمناظرة ·

قال فلاح عربي : اصطاد صياد عربي سمكة كبيرة غريبة في

شكلها . فقرر أن يهديها الى الملك فذهب بها الى الملك وقال له :« النبي عليه السلام قبل الهدية ، وارجو أن تقبل مني هديتي » . واعجب الملك بالسمكة ونفحه مائة جنيه . وكانت زوجة الملك في هذه اللحظة حاضرة فعاتبت زوجها على اسرافه ، لان مثل هذه السمكة لا يستحق أن يكافأ عنها الانسان بمائة جنيه . وعند ذلك اقترحت على الملك أن توجه سؤالا الى الصياد ، فان أجاب عنه اجابة صائبة ، احتفظ بالمائة جنيه . وان فشل في الاجابة ، استرد الملك منه المائة جنيه . ووافق الملك على ذلك . عند ذاك سألت زوجة الملك الصياد وقالت له : « هل هذه السمكة أنثى أم ذكر ؟ » . وفكر الصياد هنيهة في اجابة تخلصه من الرد المحدد عن هذا السؤال ، وقال لها : « ان هذه السمكة خنثى » عند ذاك ابتسم الملك ومنحه مائة جنيه أخرى .

وبينما كان الصياد يهبط السلم ، أبصر جنيها ملقى على الارض . فانحنى واخذه ، وكانت زوجة الملك تراقبه في تلك اللحظة . فقالت للملك : « ان هذا الصياد جشع للغاية لقد منحته مائتي جنيه ومع ذلك فقد وجد جنيها ملقى على الارض ، فانحنى واخذه . » فاستدعى الملك الصياد وقال له : « كيف امنحك مائتي جنيه ، ثم تعثر على جنيه ملقى على الارض فتلتقطه ؟ » فأجاب الصياد العربي على الفور : « ان هذا الجنيه يا جلالة الملك عليه اسمك من جانب وصورتك من جانب آخر فاذا تركته ملقى على الارض ، ووطئته الارجل ، فهي اما ان تطأ صورتك او اسمك ، ولهذا فقد رفعته من على الارض » .

واعجب الملك بهذه الاجابة ونفحه مائة جنيه ثالثة .

هذه الحكاية تؤكد خاصية اتصف بها العربي منذ قديم الزمان ، وهي الذكاء والفصاحة في الاجابة .

وعند ذاك انطلق الفلاح المصري يرد على هذه الحكاية بحكاية اخرى فقال :

تزوج فلاح عربي من ابنة فلاح مصري رغم ارادة ابيه • فقاطعه الاب فترة من الزمن • ثم عاوده الحنين الى ابنه واراد ان يزوره • ولكنه شاء اولا ان يختبر عقلية هؤلاء الفلاحين • فأرسل ابنه الصبي الى والد زوجة ابنه ليبلغه ثلاثة اسئلة ليجيب عنها •• فقابل الصبي زوجة اخيه وابلغها انه يحمل لابيها ثلاثة اسئلة ليجيب عنها • فسألته عن هذه الاسئلة • فأخبرها بأنها على النحو : ما هو مر المر ؟ وما هو حر الحر ؟ وما هو حلو الحلو ؟ • فقالت له : « اذهب لابيك وقل له : « مر المر تحط ايدك في جيبك ما تلقاش • وحر الحر ، شيل حبيبك على النعاش ، وحلو الحلو ، لعب ولاد ولادك قدامك على الفراش » • فرحل الصبي بهذه الاجابات الى والده واخبره بها • عند ذاك سلم الاب بأن الفلاحين يتسمون كذلك مثلهم بالفصاحة وذهب لزيارة ابنه •

ثم حكى هذا الفلاح المصري حكاية اخرى فقال : كان رجل يسير في الصحراء وقد بلغ به العطش مبلغه • فأبصر خياما منتشرة في انحاء الصحراء فذهب وطرق باب خيمة وطلب ان يشرب • فقدم اليه اناء قذر • فرفض الشاب ان يشرب منه • فطرق باب خيمة ثانية وثالثة ، وكان يقدم إليه في كل مرة مثل هذا الاناء القذر • واخيرا قدمت اليه فتاة اناء نظيفا فشرب منه حتى ارتوى • ثم سألها : « لماذا ارى هذا الاناء نظيفا في حين ان الاواني التي قدمت لي في الخيام الاخرى كانت قذرة ؟ » • فردت عليه الفتاة قائلة : « ان هذا الاناء قد نظفه لعوق » • (واللعوق هو الكلب الذي يلحس الاواني) •

وبهذا اراد الفلاح المصري ان ينسب لهؤلاء العرب صفة سلبية في مقابل الصفات الايجابية التي يعتزون بها •

٣ ـ حكايات الواقع السياسي :

ولا يعيش الانسان الشعبي منشغلا بمشكلاته الخاصة او بمشكلات جماعته فحسب ، بل ان احداث الحياة التي تجري خارج بيئته المحدودة

تشغله كذلك الى حد كبير · وحيث ان الادب الشعبي لا ينسب الى مؤلف بعينه ، فانه لهذا السبب يتسم بالصراحة والصدق والحرية في التعبير عن مشكلات الحياة التي يعيشها الناس · وقد سبق ان قدمنا حكاية الحاكم المتسلط الذي شاء ان يتخلص من شيوخ بلده ، حيث ان هؤلاء يعرفون بالحكمة ، ومن الممكن ان يتعرضوا لسلوكه بالنقد · ولهذا فقد اصدر قانونا يحتم على كل شاب ان يقتل اباه · فأطاع كل شاب امر الملك فيما عدا شابا واحدا اخفى اباه ولم يقتله · فلما اطمأن الملك الى ان بلده اصبحت تخلو من الشيوخ الحكماء ، شاء ان يشغل الشباب فى عمل لا جدوى وراءه معتمدا على ان سلطانه سوف يحول بينهم وبين الاعتراض على ذلك ·

فهذه الحكاية تكشف عن طموح الشعب ورغبته الملحة في ان يحكمه الحاكم العادل الحكيم الذي لا ينسى ان يستعين في حكمه بحكمة الشيوخ · فان اغفل الحاكم هذه الحقيقة ، فسوف تصبح بلده خرابا بعد ان تخلو من العقل المفكر ، كما عبر والد الشاب عن ذلك في الحكاية (١) ·

وهناك ظاهرة اخرى في نظام الحكم انتقدها الشعب وعبر عنها في حكاياته · وهي تتمثل في هؤلاء الذين يختارون من بين ابناء الشعب ليحملوا تبعته ، فاذا بهم ينصرفون الى مصالحهم الخاصة ويركنون الى الدعة ، غافلين عما كانوا هم انفسهم يعانونه عندما كانوا ذات يوم يعيشون عيشة ابناء الشعب ·

فذات يوم اصطحب الملك وزيره في جولة في مملكته ليستطلع احوال الرعية وكان الملك والوزير متنكرين · فصادفا صيادا اصطاد

....

(١) انظر حكاية السلطان الجبار في الفصل الخاص بالتحليل المرفولوجي للحكاية الشعبية ·

سمكة كبيرة وقد وقف يتألم من الجرح الذي احدثته له زعانف السمكة عندما كان يجرها الى الشاطىء • فتوقف الملك والوزير عنده وسأله الملك قائلا : « كيف حال البعيد ؟ » فأجاب الرجل : « لقد اصبح البعيد قريبا » • فقال له الملك : « وكيف حال الجماعة ؟ » فقال : « لقد تفرقوا بكل اسف » • فقال له : « وكيف حال الاثنين ؟ » فرد الرجل قائلا : « اما الاثنان فقد اصبحا ثلاثة » • عند ذاك ختم الملك حديثه معه وقال : « اياك ان تبيع بيعا رخيصا » • فرد عليه الرجل قائلا : « انك لن توصي حريصا » •

ثم رحل الملك والوزير • وفي اثناء سيرهما ، سأل الملك الوزير عما اذا كان قد فهم حديثه مع الصياد • فأجاب الوزير بأنه لم يفهم شيئا • عند ذاك امره الملك ان يفسر له حديثه مع الصياد والا قطع رأسه •

وظل الوزير يجيل الفكر في هذا الحديث الذي دار بين الملك والصياد ولكنه لم يهتد الى حل • عند ذلك قرر ان يذهب الى الصياد وينفحه بعض النقود حتى يفسر له هذا الكلام الغامض • ولكن الصياد رفض ان يأخذ النقود وقال للوزير : « ان شئت ان اكشف لك عن مغزى هذا الكلام ، فعليك ان تتنازل عن وزارتك ، لكي اتقلدها انا • ولما كان هذا الاقتراح ، رغم صعوبة تحقيقه بالنسبة للوزير ، اخف وطأة من القتل ، فقد قبل الوزير هذا الشرط • وعند ذلك اصر الصياد على ان يصحبه الى الملك ، حتى يشهد امام الملك بتنازله عن الوزارة في مقابل ان يحصل منه على حل الالغاز•

وعندما مثل الصياد والوزير امام الملك ، سأل الملك الصياد على الفور : « هل بعت رخيصا ؟ » فرد الصياد قائلا : « لقد قلت لك انك لن توصي حريصا • لقد اتفقت مع الوزير على ان يتنازل عن الوزارة وان اتقلدها انا ، في مقابل ان افسر له حديثك معي » •فوافق الملك على ذلك • وعند ذاك اخذ يشرح الصياد الحديث للوزير وقال له : اما

البعيد ، فهما عيناي اللتان كنت ابصر بهما من بعد ، فلما كبرت ، لم اعد ابصر الا الشيء القريب · واما الجماعة فهم اسناني · وقد تفرقوا بعد ان خلعتهم جميعا · واما الاثنان فهما رجلي اللتان كنت اسير بهما دون الاستعانة بعصا · والان اصبحت استعين بالعصا الى جانبهما لكي اقوى على السير » · عند ذلك تنازل الوزير عن الوزارة وتقلدها الصياد ·

وذات يوم كان الوزير الصياد عائدا الى بيته ، فصادف رجلا يبيع خيارا فوقف ليشتري منه · ولما كان الخيار طازجا فقد ادعى الصياد ان شوك الخيار الرفيع قد آلمه ولهذا رمى بالخيار وذهب · وظل الصياد متغيبا عن الوزارة بعد ذلك اياما · فذهب الملك ليطمئن عليه· واخبره الصياد بأن شوك الخيار قد آلمه،ولهذا فقد قرر ان يستريح بعض الوقت · وتعجب الملك من ذلك وقال له : « انك كنت بالامس تتحمل الآلام المبرحة في عملك فهل نسيت هذه المتاعب بهذه السرعة ؟ » عند ذلك اجاب الصياد : « اذا صادف الانسان العيش المرفه ولم يتنعم به فانه حينئذ يكون غبيا » ·

وهكذا نرى كيف استطاعت الحكاية بهذه الحبكة الفنية ، ان تبرز عيبا فيمن يوكل اليه امر رعاية امور الشعب · فلم يكن الملك مخطئا عندما عين بدلا من الوزير من هو اكثر منه حكمة وذكاء ، وان كان من ابناء الشعب· ولكن العيب كله يتمثل في ابن الشعب نفسه الذي سرعان ما نسي انه كان بالامس القريب ابن الشعب قبل ان يؤاتيه الحظ ويحصل على مركز مرموق ·

واذا كان الانسان الشعبي يبرز في صدق ما يلمسه من عيب في ظل النظام السياسي الذي يعيش فيه ، فهو في الوقت نفسه لا ينكر المكاسب التي حصل عليها في ظل هذا النظام ·

فهو يحكي ان مستأجرا كان يعمل عند صاحب ارض · واتفق معه

صاحب الارض على ان يقسم معه كل ما يحصل عليه مناصفة ، ووافق المستأجر على ذلك · وعندما جنى المستأجـــر محصول الارض وكان قمحا ، فوجىء بأن صاحب الارض اخذ لنفسه القمح واعطاه القش ، ولم يستطع المستأجر ان يعارضه في ذلك وسلم امره الى الله · وبعد ايام جاء الى المستأجر رجل مهتم بتلبية المواشـــي واشترى منه ذلك القش بثمن مرتفع · وبذلك سعد المستأجر وتزوج أثر ذلك من امرأة جميلة · ولما رأى صاحب الارض امرأته فيما بعد ، طمع فيها وقال له : « الم اتفق معك على اننا نقتسم مناصفة كل ما تحصل عليه ؟ انني الآن شريكك في هذه المرأة ، فأنت تأخذ نصفها الاعلى وانـــا آخذ نصفهـا الاسفل » · ثم اخذ صاحب الارض المرأة الى بيته · وبعد عـام ولدت المرأة طفلا · ولما شاء الطفل ان يرضع ، رفضت الام ان ترضعه ، على اساس ان هذا الجزء من جسمها ليس ملكا لصاحب الارض ولا لابنه · فلما الح عليها ان ترضع الابن أخبرته أن يحصل علـــى موافقة مـن المستأجر · ووجدها المستأجر فرصة لكي يسترد حقوقه من هذا المالك المتسلط · فطلب منهان يرد له حقه في محصول القمح في مقابـــل ان ترضع الام ابنها · وكان كلما طلب الطفل الرضاعة بعد ذلـــك ، طلب المستأجر في مقابل ذلك شيئا من المالك · وفي نهاية الامر اشترط عليه ان يذهب معه الى السوق وان ينحني امام الناس · وفعل المالك ذلك · فلما احنى المالك ظهره ، ركبه المستأجر ونادى : « جاء اليوم الذي ركب فيه الحق الظلم » ·

وهكذا شاء الخيال الشعبي ان يجسم هذه العبارة المجازية حتى يبرز تاثيرها ·

وهناك حكاية تحكي عن مغامرة بين مصـــري ويهـــودي ، ولا احسبها الا ان تكون صدى لمشكلاتنا مع العدو · فقد طلب ابن من ابيه ان يعطيه مائة جنيه ليعمل بها في تجارة · فأعطاه الاب مائة جنيه · ولقي يهودي هذا الابن وعلم ان معه مائة جنيه ، فشاء ان يحتال عليه حتى يسلبه هذا المال فقال له : ان انت حكيت لي حكاية دون ان تبدأها

بالصلاة على النبي ، وان يكون كل محتواها كذبا ملفقا ، اعطيت لـك مائة جنيه ٠ اما اذا فشلت في ذلك فسآخذ منك المائة جنيـــه ٠ فوافق الابن على ذلك ٠ ولكنه ما ان بدأ يحكي الحكاية حتـــى قال : « صلوا على النبي » ٠ عند ذاك اخذ اليهودي منه النقود ٠

وفي اليوم التالي خرج الابن الاوسط ومعه نفس المبلغ ٠ وترصد له اليهودي واخذ منه النقود بنفس الحيلة التـــي صنعها مع اخيه ٠ واخيرا خرج الابن الاصغر الذي قرر ان ينتقم لاخويه ٠ فلما اشترط اليهودي عليه نفس الشرط ، كان متيقظا للغاية ، بحيث حكى الحكاية الكاذبة دون ان يصلي على النبي ٠ وبهذا اخذ من اليهودي ماله ٠ وعز على اليهودي ان يفقد هذا المال ، وشاء ان ينتقم من الابن ٠ ولذلك فقد اتفق معه ان يأتي ويعمل عنده ، ومن يبدي التململ منهمـا من الآخر، فليسلخ الآخر له وجهه ٠ ووافق الابن على ذلك ٠

وكان لدى اليهودي طفل متعب للغاية ، اذ كـــان دائم الصراخ والعويل فكلف اليهودي الشاب بأن يرعى هـــذا الطـــفل طوال الليل والنهار ٠ ولما بلغ الضيق من الشاب مبلغه من هذا الطفل ، دس في فم الطفل ، وهو يبكي ، قطعة كبيرة من اللحم ٠ فاختنق الطفـل ومات ٠ فلما نظر اليهودي الى الشاب في ذهول اثر هذا الفعل ، سأله الشاب على الفور : « هل تضايقت ؟ » وعند ذاك تذكر اليهودي الشـرط الذي اشترطه احدهما على الآخر ٠ فرد عليه قائلا : « لا ، لم اتضايق » ٠ ثم قرر اليهودي ان يعذب الشاب حتى النهاية ، حتى يقر بأنه قـد تضايق منه حقا ٠ فدعا جماعة من اصحابه ليتناولوا معه اكلـــة من الفسيخ فوق سطح بيته ٠ وكان البيت يتكون من سبع طوابق ، امـــا اليهودي فكان يسكن في الطابق الاول ٠ واخذ اليهودي يطلب مـــن الشاب بين الحين والآخر ان يحضر لهم الماء ٠ ولما تعـــب الشاب من الصعـود والنزول ، رأى ان هذا اليهودي لا تنفع معه سوى الحيلة ٠ ولهذا فقد اخذ يصرخ من مسكن اليهودي وينادي عليه بأعلى صوته حتى يحضر لاطفاء النار في مسكنه ٠ فهرول اليهودي مع اصدقائه هابطين السلم٠

وما كادوا يصلون الى المسكن حتى قال لهم الصبي : « من به عطش فليشرب » · وحملق اليهودي في وجه الصبي · ولكن الصبي بادره على الفور متسائلا : « هل تضايقت ؟ » فأجاب اليهودي : « لا » ·

ومنذ ذلك الوقت ازداد الشاب حرصا من حيل اليهودي · فكان يختبيء ليسمع ما يدور بين اليهودي وزوجته · فسمعه يقول لها : انني اخشى ان يغلبني هذا الشاب ، ويسلخ وجهي · ولهذا فقد قررت ان ارحل خلسة من البيت » · وعند ذلك اختبأ الشاب في صندوق امتعة اليهودي ، وعندما حل الظلام بالكون اصطحب اليهودي زوجته واخذ امتعته وخرج الى الشاطيء ليستقل مركبا · وهناك في المركب وضع حقائبه وهو يتنهد قائلا : « الآن قد تخلصنا من هذا العربي » · عند ذاك صعد الشاب من الصندوق وقال له : « لا لم تتخلص مني بعد » · وتأكد الشاب بعد ذلك ان اليهودي لا بد ان يقذف به في البحر في اثناء نومه ولهذا فقد حمل زوجة اليهودي في اثناء نومها ووضعها في المكان الذي ينام هو فيه ، ثم ذهب هو ونام مكان الزوجة · وقام اليهودي في منتصف الليل في لهفة ليلقي بالعربي في الماء ، ولكنه رمى في الحقيقة زوجته · فلما عاد الى حجرته ليوقظ زوجته ويخبرها بأنه قد تخلص من العربي ، هب الشاب امامه واقفا وهو يبتسم ويسأله : « هل تضايقت ؟ » ورد عليه اليهودي قائلا : « نعم قد تضايقت » · وعند ذاك سلخ الشاب وجهه ·

فهذه حكاية تحكي بطريقة هزلية عن صراع بين عربي ويهودي · وقد رأى اليهودي منذ باديء الامر انه لكي ينجح في التسلط على العربي ، ان يحول بينه وبين تمسكه بدينه · والى هذا ترمز الحكاية بحرص اليهودي على ان يحكي العربي حكايته دون ان يصلي على النبي ، ولكن حيث ان الدين الاسلامي متأصل في العربي ، فان العربي كان يصلي على النبي بدون وعي قبل ان يحكي حكايته · وفي الوقت نفسه عبرت الحكاية عن الوسيلة التي ينبغي على العربي ان يتبعها ، ان شاء ان ينتصر على اليهودي ، انها الوعي التام بألاعيبه والقضاء

عليها في مهدها ، ثم مقابلة حيله بحيل اكبر منها ·

وربما كان هذا القدر من الحكايات كافيا لان يطلعنا عـــلى ان الشعب العربي لم يعد يعيش حياة مغلقة على نفسها ، بل انه يتجاوب مع مشكلات بلده السياسية سواء كانت مشكلات داخلية ام خارجية ·

٤ ـ موقف الانسان الشعبي والعالم الغيبي :

وكما يعبر الشعب العربي عن الامور التي تهدد حـياته في عالمه المعلوم فهو يعبر كذلك عن مخاوفه ازاء العالم المجهول · وهو لا يفزع من الموت فحسب ، ولكنه يفزع اكثر من ذلك مما يخبئـــه له القدر من مصائب · ومع ذلك فهو يستسلم لهذا الغيب معبرا عـــن موقفه منه بحكمته المأثورة « اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » · امـــا في حكاياته فهو كثير الابداع للصور والافكار التي تؤكد ايمانه بهذا المعتقد من ناحية ، وتشير الى فزعه منه من ناحية اخـــرى · ذلك ان الانسان في اغلب حكايات هذا النوع ، يجهد نفسه فـــي تجنيب نفسه الشر الذي تشير اليه النبوءة ، ولكن القدر يظل يلاحقه حتى يتحقق ما قدر له في الغيب · ولقد رأينا ان الشاب في حكاية « من جاور السعيد يسعد » قد قاوم النبوءة التي ظهرت له في رؤيـــاه ، عندما رأى ان صنبوره ينزل منه الماء قطرة قطرة ، ثم كف الماء كلية عن النزول بعـد انسداد الصنبور · ولما حصل الشاب على الثروة بعـــد ذلك من عند الملك ، خرج من عنده سعيدا وهو يتصور ان ما رآه كان اضغاث احلام· ولكنه ارتطم بالسلم وهوى على الارض ميتا · فلما اقترب منه الناس، وجدوا ان جبينه قد كتب عليه « نحن خلقناه ، ونحـــن رزقناه ونحن امتنـــاه » ·

فهذه الحكاية جمعت بين موضوعين غيبيين يفزعـــان الانسان الشعبي على حد السواء ، وهما موضوع نصيب الانسان من الرزق ، وموضوع الموت ·

وكما قاوم الانسان في الحكاية السابقة الرؤيا التي رآها في منامه ، فقد قاوم الرجل في حكاية « الجمجمة » النبوءة التي رآها مكتوبة على الجمجمة التي عثر عليها على النحو التالي : « قتلت في حياتي اربعين وسأقتل بعد مماتي اربعين » · فلقد اخذ الرجل الجمجمة وحمصها وسحقها وذر ترابها في الهواء ، ومع ذلك فقد تحقق ما هو مكتوب على الجبين على يد احد افراد سلالة صاحب هذه الجمجمة ·

وتحكي حكاية ثالثة (١) ان ملكا كان له عبد يدعى مرجان · وقد كان هذا العبد مطيعا للغاية الى درجة انه لم ينطق قط بكلمة « لا » · وكان لهذا الملك ابنة وحيدة رائعة الجمال · وذات يوم احضر الملك المنجمين لكي يقرأوا طالع ابنته ليعلم ممن تتزوج فيما بعد · فلما كشف المنجمون عن طالع الابنة سكتوا ونظروا الى الملك باهتين · فذعر الملك لنظرتهم وصرخ في وجوههم كي ينطقوا · عند ذاك طلب منه المنجمون ان يؤمن حياتهم لانهم سينطقون بما يفزعه · فأمنهم الملك على حياتهم · فقالوا له انهم رأوا ان ابنته لن تتزوج الا من العبد مرجان ·

وبهت الملك واخذ يتدبر هذا الامر · واقترح عليه وزيره ان يتخلص من العبد مرجان حتى لا تتحقق هذه النبوءة · فدعاه الملك وسلمه خطابا لكي يذهب به الى « ملك الشمس » ويأتي له بالرد من عنده · ثم وصف له الطريق الذي يوصله الى ملك الشمس ، وهو يعلم انه طريق محفوف بالمخاطر · وتسلم مرجان ، العبد المطيع ، الخطاب وسار بفرسه في الطريق الذي وصفه له سيده · وفي اثناء سيره صادف شيخا ناداه وسأله عن هدفه · فأجاب مرجان بأنه ذاهب الى ملك الشمس بعينه · ثم اخذ منه الخطاب وكتب رده على هذا الخطاب وسلمه للعبد مرجان · ثم سار مرجان بعد ذلك في طريقه راجعا · ولما

(١) انظر حكاية « ما قدر سيكون » في مجموعة « حكايات لبنانية » ، صفحة ٢٩١ ، فهي تعد رواية اخرى للحكاية ·

شعر بالتعب من السير ، استلقى في ظل شجرة ، ونام ، بعد ان ربط حصانه في جذع الشجرة . ثم استيقظ فجأة على صوت الحصان وهو يصهل صهيلا عاليا ، ويضرب الارض بحوافرة بشـــدة . فلما نظر مرجان الى الارض ابصر حلقة مثبتة في الارض . فلما شدها اكتشف كنزا . فرفعه من باطن الارض واشترى الضياع وابتنى قصرا . وذات يوم نزل نبعا ليستحم فخرج من النبع ابيض ناصعا فيما عــدا علامة سوداء ظلت في وجهه .

وذات يوم خرج الملك والوزير يتجولان . وساقتها اقدامهما الى هذا القصر ، واخذا يتساءلان عن صاحبه . ولمـــا ابصرهما مرجان عرفهما ، ودعاهما الى القصر حيث اكرمهما كل الاكرام ، ولكنـــه لم يكشف لهما عن نفسه . ولما وجد الملك ما عليه هذا الرجل مـن انبهاء والكرم ، طلب منه ان يزوجه ابنته . ولم يبد مرجان اي اعتراض على ذلك ، لانه لم يقل قط « لا » في حياته . وبعد ان زفت الـــيه ابنة الملك سأله الملك عن اصله ، فأجاب بأنه العبد مرجان بعينه ، وانه رحل ليسلم خطابه الى ملك الشمس وما زال يحتفظ بالرد . فلما فتح الملك الخطاب وجد مكتوبا فيه : « اللي في علمه يتمه » .

ويعتقد الانسان الشعبي ان العمل الطيب من الممكن ان يبعد عنه الشر المقدر له . ومن هنا نشأت امثاله التي تعبر عن هذا المعنى. ومن ذلك المثل الذي يقول : « اعمل الطيب وارمه البحر » لان العمل الطيب الذي يفعله ابتغاء وجه الله ، سوف يعود اليه يوما ما في صورة او اخرى . ومن ذلك كذلك المثل الذي يقول : « اللقم تمنع النقم » .

وهو يحكي في ذلك ان فلاحا كان يخرج كل يوم ليعمـل في حقله الذي يقع بالقرب من المقابر . وذات يوم سمع صوتـــا يقول له : ان فلانا سوف يحضر هنا غدا وكذلك فلانة . اما فلان هذا فكان جاره واما فلانة فكانت زوجته . وحزن الرجل لذلك كل الحزن وتعجب كل العجب اذ ان زوجته كانت تتمتع بصحة طيبة . فلما عاد الى بيته سمع صراخا

وعويلا ، وعلم اثر ذلك ان فلانا قد مات · عند ذلك تأكد ان زوجته سوف تموت حتما في ذلك اليوم · وكان كل لحظة ينظر اليها ، ولكنه كان يجدها تنبض بالحيوية والنشاط · عند ذاك سلم امره الى الله وودعها وخرج الى حقله ·

فقامت المرأة بأعباء البيت كالعادة · ثم شعرت بالجوع ، فأعدت بعض الطعام وجلست لتأكل · وفي تلك اللحظة طرق بابها فقير جائع يطلب شيئا يقتات به · فحملت المرأة الطعام الذي اعدته لنفسها واعطته اياه فدعا لها الفقير دعاء طيبا وذهب ·

وعاد الفلاح الى بيته فوجد زوجته كما هي عليه من الحيوية والنشاط · وفي اليوم التالي خرج الى حقله وتحدث الى الصوت قائلا: « لقد قلت لي ان فلانا سيموت وكذلك فلانة » · ولقد مات فلان بالفعل فما مصير فلانة ؟ » · عند ذاك طلب منه الصوت ان يرفع بصره الى السماء · فلما فعل الرجل ذلك رأى في السماء طبقا به طعام ، وقد حال دون سقوط حجر كبير على رأس زوجته · ولم يستطع الفلاح ان يهتدي الى تفسير لهذا المنظر · فلما عاد الى زوجته وسألها عما فعلته بالامس ، حكت له قصتها مع الشحاذ ، عند ذلك قال الفلاح : « حقا ان اللقم تمنع النقم » ·

٥ ـ **حكايات المعتقدات :**

وهي تلك الحكايات التي ترتبط باعتقاد الانسان الشعبى في الاولياء او باعتقاده في الارواح الشريرة او الخيرة التي تظهر له بصورة او بأخرى · وتتمثل وظيفة هذا النوع من الحكايات في تأكيد المعتقد الشعبي والعمل على دوامه · وقد سبق ان اشرنا الى حكاية الرجل الطيب مع السيد البدوي ، وقد اتضح من الحكاية كيف ان هذا الولي وقف بجانب الرجل في شدة وانقذه من غدر زوجته وغدر عشيقها · ومن الواضح ان هذه الحكاية لا تهدف الى اقناع الناس بأن هذا قد حدث بالفعل ، بل تهدف الى تأكيد تأثير قدرة الاولياء في

حياة الناس · ذلك ان هذه الحكاية لا تنتمي الى حكايات التجارب الشخصية بل هي بالاحرى نوع من التأليف القصصي المحكم ·

وتنتمي الى حكايات الاولياء تلك الحكايات التي تفسر وجود ضريح لولي في مكان ما · ومثال ذلك ما سمعته من الناس عن سبب وجود ضريح سيدي العوام على شاطىء البحر في مرسى مطروح ، او عن سبب وجود ضريح سيدي عبد الرحمن بالقرب من شاطىء البحر فى هذا المصيف الذي يسمى باسم الولي (١) ·

اما سيدي العوام فقد جاء عائما من شمال افريقية · وقبل ان يصل الى مرسى مطروح ظهر للحاكم الانجليزي في رؤياه واخبره بأنه سيصل الى مرسى مطروح وسيموت فور خروجه من الماء · وامره ان يبني له ضريحا في ذلك المكان الذي يجد فيه جثته · وبعد ايام ابصر الناس نورا يشع من الشاطىء ذات مساء فلما اقتربوا من هذا النور ، وجدوه يشع من جثة ملقاة على الشاطىء · ولما علم الحاكم الانجليزي بذلك ، تأكد من صدق الرؤيا ، وبنى للجثة ضريحا متواضعا عرف باسم ضريح سيدي العوام · ثم شيد مكان هذا الضريح بعد ذلك جامع ما زال يعرف باسم جامع سيدي العوام ·

اما سيدي عبد الرحمن ، فقد كان ، كما يدعي الناس ، رجلا عربيا طيبا ، يتجول في الصحراء مع قطيع له من الاغنام · ثم تقابل ذات يوم مع رجل وعقدت بينهما اواصر الصداقة · واتفق سيدي عبد الرحمن مع هذا الرجل على ان يشتغلا معا بالرعي وان يقتسما المكسب · ووافق الرجل على ذلك · ولكنه بعد ذلك اضمر الخيانة لعبد الرحمن وقتله واستولى على القطيع · ثم باع الرجل القطيع ورحل الى الاسكندرية ليعمل بالتجارة · ثم اصبح بعد ذلك مقاولا كبيرا ·

....

(١) استمعت الى هاتين الحكايتين من بعض اهالي مرسى مطروح ·

واستطاع بعد ذلك ان يأخذ على عاتقه اتمام خط انابيب المياه التي تمتد من الاسكندرية الى مرسى مطروح · وذات يوم عثر هذا المقاول على بطيخة كبيرة تنبت في الرمال في فصل الشتاء · وتعجب المقاول من ذلك اشد العجب · فحمل البطيخة واهداها الى المهندس الذي كان يشرف على عمله · ولما شق المهندس البطيخة ، وجد بداخلها رأس انسان · عند ذاك نادى على المقاول ليطلعه على هذا الامر العجيب · وفوجىء المقاول بأنه يرى رأس عبد الرحمن الذي كان قد قتله · فاعترف عندئذ للمهندس بجريمته ، وتبرع في الحال بكل ما يملك لبناء ضريح لسيدي عبد الرحمن · ثم هام بعد ذلك على وجهه في الصحراء ·

هذه الحكايات التي داخلها بطبيعة الحال عنصر التأليف ، تنحو الى تفسير ظهور ضريح ولي من الاولياء في مكان محدد · والى جانب هذه الحكايات يحكي الشعب حكايات عن معجزات الاولياء كما تتراءى لهم · وقد سبق ان اشرنا الى نماذج من هذه الحكايات في الفصل الخاص بالتحليل المرفولوجي للحكاية الشعبية · ونعود فنأتي بمثال اخر يؤكد لنا ، بالاضافة الى الحكايات الاخرى التي يحكيها الشعب عن الاولياء ، مدى انشغال الشعب بهؤلاء الاولياء ·

حكى لي احد الصيادين في مدينة رشيد عن ضريح ابي مندور الذي يقع على شاطىء البحر ، فقال ان ضريح هذا الولي في حد ذاته يثير العجب فهو يقع على الشاطىء بين البحر والكثبان الرملية ، فلا العواصف الرملية تغطيه ولا البحر يتهيج فيغرقه · وفي كل يوم جمعة، يبصر الصيادون عندما يخرجون مساء للصيد ، نورا يخرج من الضريح ثم يسير على صفحة المياه حتى يصل اليهم على الشاطىء · ويظل هذا النور يرافقهم بعض الوقت في اثناء سيرهم في البحر ، حتى يعود فيدخل الضريح مرة اخرى · وعند ذاك يشم الصيادون رائحة زكية تفوح في الارجاء · فاذا كان البحر هائجا ، فانه يعود الى الهدوء مرة اخرى ·

وتكثر مثل هذه الخيالات عند الصيادين بصفة خاصة · وليس هذا امرا يثير العجب ، وهم هؤلاء الذين يحيون حياة شبيهة بطبيعة البحر غير المستقرة · ومن ثم فانهم يتعلقون كل التعلق بالاولياء لزعمهم انها تحميهم في رحلاتهم الخطيرة · ولعل هذا يفسر وجود كثير من الاضرحة على شواطيء البحر ·

وكما يحكي الانسان الشعبي عن تجاربه مع الاولياء ، فانه يحكيها مع عالم الجن · وفي هذه الحالة يربط بين الجن والسحرة الذين يقدرون على تسخير الجن · فبينما كان قصاص شعبي يحكي لي حكاية عن ضفدعة مسحورة انقلبت امرأة جميلة ، سألته ، على سبيل محاولة ربط هذا الخيال بالمعتقدات الشعبية الحية ، عما اذا كان من الممكن للانسان ان يُسحر ويصبح حيوانا ، فأجاب الرجل بالايجاب · ثم حاول أن يؤكد هذه الظاهرة التي يؤمن بها بأن حكى لي حكاية عن رجل كان يرافقه مع جماعة في رحلة بحرية ، فلما حل المساء ، وعاد الجميع الى السفينة ، تبين لهم ان صديقهم لم يعد · وفجأة ابصروا حمارا يقبل عليهم ، ويصعد سلم السفينة ، ويذهب الى المكان الذي يبيت فيه الرجل المتغيب ، ونام · فعلموا في الحال ان صديقهم قد سحر · عند ذاك خرجوا ليسألوا عن قصته · فقيل لهم ان امرأة سودانية سحرته · فذهبوا اليها واعطوها نقودا حتى تفك عنه السحر ، ففعلت ، وعاد صاحبهم الى حالته الطبيعية ·

ثم حكى صياد آخر ان صديقا له كان يستحم في مكان هادىء في البحر · وفجأة ابصر يدا تمتد اليه من البحر ، فأصيب الشاب في الحال بالخرس · وتعب اهل هذا الشاب في الاهتداء الى وسيلة لعلاجه · واخيرا رأت ام هذا الشاب في منامها من يخبرها بطريقة لمعالجة ابنها ، وقال لها : خذي حمامة بيضاء واذهبي الى المكان الذي رأى فيه ابنك اليد · ثم اذبحي الحمامة في هذا المكان ، واربطيها من رجليها بحجر وارمي بها في هذا المكان بعينه، وحذار ان ينطق احد بكلمة في اثناء ذهابكم او عودتكم حتى ترجعوا الى البيت ، واذا فعلت هذا

شفي ابنك · ونفذت الام هذه التعليمات بحذافيرها وشفي ابنها ·

بمثل هذه الحكايات تهتم الدراسات الشعبية لانها تكشف عن معتقدات الشعب الحية · ولهذا فهي تندرج تحت صنف بعينه هو « حكايات المعتقدات » · وحيث ان هذه المعتقدات تعيش مع الشعب في حياته اليومية ، فان حكايات المعتقدات بدورها تعد نمطا من انماط حكايات الحياة اليومية او الحكايات الشعبية ·

٦ ـ الحكايات الهزلية :

وعندما يحس الشعب بضغط الحياة على نفسه ، فانه ينزع الى الضحك والسخرية ، وان كان في الحقيقة يسخر من مشاكله التي يعاني منها · ولهذا فان الحكاية الهزلية يمكن ان تندرج ، حسب محتواها ، الى اي نمط من الانماط السالفة · ولكننا شئنا ان نخضعها لنمط خاص مراعاة لوظيفتها وهي التخفيف من وقع الحياة على الناس ·

كان رجلان فقيران يسيران في الطريق ، فصادفا عيادة طبيب وقد كتب عليها : « طبيب يعالج كل شيء » · عند ذاك قررا ان يزورا هذا الطبيب لعله يشفيهما من علة الفقر · فنصح الطبيب احدهما ان يذهب الى الصائغ المجاور له ، ويقبض قبضة من الذهب الذي يجده معروضا امام الصائغ ، ثم يفرغ الذهب من يده ، ويعود فيضم يده · ثم اخبره بأنه سيدركه بعد ذلك عند الصائغ ليرى ما يحدث · وفعل الرجل ما امره به الطبيب · فلما افرغ يده من الذهب ، ثم عاد وضم يده ، صرخ الصائغ في وجهه وامره ان يبسط يده حتى يرى ما بها · وفي هذه اللحظة ، كان الطبيب قد وصل الى محل الصائغ ، فوقف يدافع عن الرجل بأن يده فارغة ، في حين اصر الصائغ على ان يبسط الرجل يده حتى يتأكد من ذلك · عند ذاك تراهن معه الطبيب على مائة جنيه · فان كانت يد الرجل فارغة اعطاه الصائغ مائة جنيه ، وان كانت يده ممتلئة بالذهب دفع الطبيب الى الصائغ مائة جنيه · ووافق الصائغ

على ذلك · عند ذاك فتح الرجل يده وكانت فارغة فكسب الرهان · وفي اليوم التالي ، ذهب الرجل الآخر الى نفس الطبيب لكي يعالجه من فقره كذلك · عند ذاك نصحه الطبيب ان يذهب الى نفس الصائغ ويقبض قبضة من الذهب ولا يفرغ يده · ثم ينتظر ما يحدث بعد ذلك · فلما فعل الرجل ذلك ، تبسم الصائغ له وقال : اتريد ان تلعب لعبة صديقك ؟ ثم تركه ليرحل ·

وبهذا تمكن الطبيب من معالجة الرجل الثاني كذلك من الفقر ·

فهذه حكاية هزلية يمكن ان تندرج تحت صنف حكايات الواقع الاجتماعي ولا يشتكي الانسان الشعبي فيها من علة الفقر بقدر ما يسخر من موقفه وموقف مجتمعه منها · وكأنما اراد الانسان الشعبي ان يعبر من خلالها عن امله في اهتمام المجتمع بفقره قبل اهتمامه ببدنه ·

وفي حكاية اخرى اختلف اللص القاهري مع اللص الريفي حول ايهما اكثر مهارة من الآخر في السرقة · وفي النهاية اتفقا على ان يقوم كل منهما بسرقة شيء ، ثم يحكما بعد ذلك على مدى مهارة كل منهما في اتمام هذا العمل · عند ذاك ذهب اللص القاهري وسرق خزانة نقود وحملها على ظهره وخرج · ثم اسرع وغير محتواها ، قبل ان يدركه صاحبها · فلما ادركه صاحبها بعد ذلك ، وساقه الى قسم الشرطة ، سئل الرجل عن محتوى خزانته فأجاب بما كان فيها · فلما فتحت الخزانة ، ولم يجد بها الضابط ما ادعاه الرجل ، ردت الخزانة الى اللص ·

وبعد ذلك ذهب اللص الريفي الى حقل حيث كان فلاح يدير ساقية بثور واحد · فوقف اللص الريفي على بعد واخذ يصيح بأعلى صوته : « اما عجيبة ·· ساقية يديرها ثور واحد » · عند ذاك التفت الفلاح اليه وقال اللص « لا بل انهما ثوران » عند ذاك قال له اللص : « اذن فاذهب وابحث عن الثور الثاني » · واستجاب الفلاح بسذاجته

لطلب اللص ، وراح يبحث عن الثور الثاني • وفي الحال فك اللص قيد الثور ورحل به •

وعند ذاك اعترف اللص القاهري للص الريفي بالمهارة •

فهذه حكاية تكشف عن صراع بين المجتمعات الشعبية • وعلى الرغم من ان المتصارعين لصان الا ان احدهما قاهري والآخر ريفي •

ومرة اخرى يتجلى الصراع الطبقي بوضوح تام في حكاية شعبية هزلية اخرى • فقد كانت « رزية » من السذاجة والغباء بحيث اصطلح الناس على تسميتها « رزية » • وكانت رزية متزوجة من فلاح فقير لا يملك سوى حمار • وذات يوم مر امام بيتها رجل يبيع اسماء • فشاءت ان تتخلص من اسمها وتشتري اسما آخر • وعند ذاك اشترت من الرجل اسم « فاطمة النبوية » واعطته حمار زوجها اجرا له • وعندما عاد زوجها ونادى عليها باسمها وهو « رزية » ، قالت له : « ان أسمي لم يعد « رزية » ، ان اسمي قد اصبح فاطمة النبوية » • ثم قصت عليه قصتها مع بائع الاسماء • ولما علم الرجل الفقير انه قد فقد حماره، ترك البيت لزوجته وخرج هائما على وجهه • وفي الطريق ابصر امرأة تطل من نافذة في بيت كبير ، وهي تبكي ، فالتفت وراءه ونظر اليها • وفي الحال سألته المرأة : « من اين جئت والى اين تسير ؟ » فقال لها : « انني جئت من جهنم وراجع الى جهنم » • وكان الرجل بذلك يعبر عن ضيقه من زوجته • عند ذاك سألته المرأة : « وهل رأيت هناك ابي ؟ انه قد توفي منذ يومين وما زلت ابكيه » • عند ذاك ادرك الرجل انه امام امرأة بلهاء ، وشاء ان يسايرها الحديث ليرى ما يحدث بعد ذلك• فرد عليها قائلا : « نعم لقد رأيته » • فسألته : « وهل هو في حاجة لشيء ؟ » فقال : « بل انه في حاجة الى نقود وملابس » • فأحضرت له المرأة النقود والملابس ورحل ، وهو على يقين ان زوجها سوف يلحق به بعد حين • وبعد فترة سمع صوت فرس يركض وراءه فأسرع الى حقل يدير فيه فلاح ساقية واوهم الفلاح ان هناك من يبحث عنه ، وعليه ان

يختفي في الحظيرة · فأسرع الفلاح واختفى فـي الحظيرة ، في حين اخذ الرجل يدير الساقية · وبعد لحظة وصل زوج المرأة وكان يمتطي جوادا ، وسأله عما اذا كان رأى رجلا يحمل صرة كبيرة · فأشار اليه الرجل بأنه يختفي في الحظيرة · عند ذاك ترك الـــزوج جواده وسار على قدميه الى الحظيرة · وفي الحال ركب الرجل الفرس واسرع الى زوجته ونادى عليها هذه المرة قائلا : « يا فاطمة النبوية افتحي الباب . فلقد وجدت « رزية » اكبر منك » · اما الزوج الذي تمت عليه الحيلة ، فقد عاد الى زوجته بدون حصان · فلما سألته عـــن الحصان اخبرها بأنه قد اعطاه للرجل ليسرع به الى ابيها ·

وفي بعض الاحيان يكون الهدف من الحكاية الهزلية تعليميا ·

فقد باع رجل فقير حماره واشترى قردا يغني على امل ان يكسب من وراءه مالا كثيرا·وسمع السلطان بقصة القرد الذي يغني فاستدعى الرجل اليه واخبره بأنه سيمنحه المال اذا غنى القرد امامه · فـــان لم يغن ضربه · وأخذ الرجل القرد وكان قد اختبره تماما ، ورحل الـــى السلطان · ولكن القرد أبي ان يغني امام السلطان فضربه السلطان ، وعاد الرجل بالقرد الى البيت · وما كاد يصل الى البيت حتى أســـرع القرد وغنى غناء عذبا · فاسرع الرجل به مرة اخرى الى السلطان · ولكن القرد أبى ان يغني هذه المرة كذلك · عند ذاك ضربه السلطان ضربا مبرحا · ولكنه عاد بالقرد للمرة الثالثة ، على أمل ان يغني هذه المرة بعد ان وعده القرد بذلك · وهناك غنى القرد عند السلطان وحصل الرجل على النقود ·

وفي الطريق سأل الرجل القرد قائلا : « لماذا لم تغن منذ المرة الاولى وكنت بذلك قد أرحتني من العذاب » · فرد عليه القرد قائلا : لو انك حصلت على المال منذ المرة الاولى دون ان تشعر بأدنى تعب ، لما شعرت بقيمة المال ، ولانفقته في اسراف · اما الآن فقد علمت ان المال لا يحصل عليه الانسان الا بكد ·

وقد يكون الغرض من الحكاية الهزلية الاضحاك فحسب · وهذه الحكايات تتندر في الغالب بشخصية طيبة بلهاء على نحو ما تتندر حكايات جحا بشخصيته · وفي هذا نشير الى حكاية لبنانية (١) تحكي عن رجل ساذج أبله كان يعمل مكاريا عند صاحب ضيعة · فكان يحضر كل يوم لصاحب الضيعة احتياجاته من المدينة ويعود اليه بحماره · وذات مرة راودته فكرة ارسال الحمار وحده الى المدينة لانه لا بد ان يكون قد ألف الطريق · ولكن الحمار سرق بطبيعة الحال · فخرج الرجل ليسأل عن حماره الذي أرسله ليشتري ارزا بمفرده · وذهب الى تاجر الارز الذي تعود ان يشتري منه الارز ، وأخبره بانه كان قد ارسل اليه الحمار بمفرده ومعه النقود · فسخر التاجر من بلاهته ، واخبره بان حماره لم يعجبه ارزه وذهب الى جاره التاجر · وسخر منه التاجر الثاني واخبره ان الحمار لم يعجبه ارز المدينة كلها ورحل الى مدينة أخرى · فرحل الرجل الساذج الى المدينة الثانية ، وذهب الى أكبر تاجر للارز فيها · وكان هذا التاجر بينه وبين قاضي المدينة حزازات ، فاراد ان يتندر به · فقال للرجل الابله ، ان حمارك عينه الناس قاضيا للمدينة لما رأوا ما هو عليه من ذكاء · فذهب الرجل الى قاضي المدينة وأخذ يشير اليه وينادي : « هذا حماري وقد عين قاضيا بالمدينة » · فصرفه القاضي واعطاه بعض النقود فخرج الرجل من عنده وهو يقول : «هكذا الحمير والا فلا » · ثم ذهب واشترى حمارا ببعض النقود واخذ يجره أمامه · ولما تعب من ذلك ربطه بذيل جلبابه وأخذ يجره على هذا النحو فجاء بعض اللصوص وفكوا رباط الحمار وعلقوه في رقبة أحدهم ، ثم أخذوا الحمار وهربوا · فلما التفت الرجل وراءه وجد رجلا بدلا من الحمار · فلما سأله عن الحمار ، أخبره بأنه هو الحمار بعينه وأنه كان مسحورا لان أمه كانت قد دعت عليه أن يصبح حمارا ، لاسرافه

---

(١) حكايات لبنانية ص ٢٠٦ و مجلة « التراث الشعبي » العراقية (العدد العاشر ١٩٧٢) ص ٩١ ·

في الشرب · ويبدو أن أمه عادت ورضيت عنه فدعت الى ربها أنيرجعه انسانا ، فاستجاب الله لدعائها ، عند ذاك أطلقه الرجل وذهب ليشتري حمارا اخر بما تبقى معه من نقود · ولكنه عثر على حماره الثاني الذي كان قد سرق منه وكان يعرفه من شرم في أذنه · فدنا من الحمار وقال له في أذنه : « يبدو أنك قد عدت الى السكر فمسخك الله حمارا مـــرة أخرى · والله لو أعطوني اياك بدون ثمن لما أخذتك»· ثم اشترى حمارا اخر ورحل ·

والى هنا نستطيع أن نقول أننا قدمنا نماذج متنوعة من الحكايات الشعبية التي تخدم احتياجات نفسية مختلفة في حياة الانسان اليومية·

وهنا يتمثل فرق جوهري ثالث بين الحكاية الخرافية والحكايـة الشعبية ، بالاضافة الى الفرق في الشكل والمحتوى الذين أشرنا اليهما من قبل · وهذا الفرق الجديد يتمثل في الظيفة · ففي حين نجد الحكاية الخرافية تخدم غرضا نفسيا واحدا هو الكشف عن تجارب اللاشعـور وصراعه مع الشعور من أجل الوصول بالانسان الى شخصيته الكاملة، نجد الحكاية الشعبية تخدم جوانب الحياة المختلفة التي يعيشها الانسان الشعبي · وهي في الوقت نفسه تكشف عن شخصية الجماعات الشعبـة الكادحة التي قد يظن أنها تعيش في محيط ضيق للغاية ، ولا تعيـــن مشكلات الحياة الا بمقدار ما يهم احتياجاتها المادية ·

وهنا تتمثل اهمية الحكاية الشعبية في دراسة شخصية الشعوب، لانها تتميز بطابع محلي بقدر ما تتميز به الحكاية الخرافية من طابع عالمـــي ·

وننتقل الآن الى ابراز اهم المقومات الفنية في حكاياتنا الشعبية· وتتمثل هذه المقومات فيما يلي :

اولا ـ حبكة التاليف :

بينما نجد ان الحكاية الخرافية تسير وفق نظـام متسلسل واحد

على وجه التقريب ، بحيث يمكن تقليدها في يسر ، نجـــد ان الحكاية الشعبية على العكس تتميز بتأليفها المعقد المتنوع الذي لا يمكن تقليده· فهي حقا لا يمكن الا ان تكون من وحي الابداع الشعبي الذي يقف وراءه رصيد هائل من الخيال الشعبي المتدفق ·

والحكاية الشعبية ، شأنها شأن الحكاية الخرافية ، تبـدأ بحالة اللاتوازن ، وتسير في احداثها محاولة إن تصل الى حالة التوازن · ولكن بينما نجد الحكاية الخرافية تصل حتما الى حالة التوازن ، نجد ان الحكاية الشعبية قد لا تنتهي الى حالة التوازن على الاطلاق · فقد بدأت حكاية « من جاور السعيد يسعد » ، احداثها بـــأن رجلا رأى في منامه من يقول له : « من جاور السعيد يسعد » ، وهي مثل شعبي يركن اليه الشعب عندما تعوزه الحاجة · ولهذا فقد سعى الرجل لان يسكن بجوار قصر لعله يسعد بسعد صاحب هـــذا القصر · ومع ذلك فـان الحكاية انتهت بموت الرجل· هذه النهاية غير المتوقعة هـــي من اهم سمات الحكاية الشعبية · ولكي تصل الحكاية الى هـــذه النهاية غير المتوقعة فانها تستعين بأحداث محكمة البناء كما تستعين بوسائل فنية اخرى سيرد ذكرها فيما بعد ·

ويمكننا ان نقول ان الحكاية الشعبية تبـــدأ باللاتوازن وتنتهي بابراز فلسفة للحياة تدفع الانسان لان يفكر فيها اكثر من مرة قبـل ان يرضاها · فقد انتهت حكاية المرأة والاسد السودانية بتذكير المرأة بأنها لن تعجز عن ترويض زوجها ما دامت قد نجحت في ترويض الاسد · ثم تركت المرأة بعد ذلك لكي تقوم بتجربتها · وربمـــا فشلت فيها رغـم ادراكها هذه الحقيقة · بل ربما ينجح الانسان في ترويض الحيوان ولا ينجح في ترويض الانسان ·

وبالمثل انتهت حكاية « اين العقل » بادراك فلسفة هي ان العقل في الصبر · وربما ارتاح الانسان الشعبي عندما تصل به الحكاية الى هذه النهاية · ولكنه ربما نسأل كذلك : والى متى هـذا الصبر ؟ وهل يصل الانسان حقا الى غرضه اذا صبر ؟

كما ان حكاية « البركة والسعد » قد انتهت بمـــا يوحي للانسان الشعبي ان البركة هي اساس الحياة الراضية ٠ ولكننـــا نلاحظ ان البركة قد اعادت للرجل سعده ٠ ومعنى هــــذا ان الانسان في اشد الحاجة الى العنصرين معا في حياته وهما السعد والبركة ٠

و هكذا نرى كيف ان الحكاية الشعبية تحكـــم بناءها من اجـل الوصول الى فلسفة عميقة في الحياة ٠ وهذه الفلسفة تتميز بالغموض والوضوح معا ، لانها تعد صدى لتجاربنا التـــي نعيشها وهي تلـك التجارب التي تتميز بالتعقيد والغرابة ، كمـــا تتميز بنتائجها غيـر المؤكدة ٠

ثانيا ـ رموز الحكاية الشعبية :

لا نستطيع ان نقول ان الحكاية الشعبية تحتوي على رموز تشبه تلك التي تحتوي عليها الحكاية الخرافية ٠ فكـــل رمز في الحكايـة الخرافية له مغزى في حد ذاته ، وهو يسهم مع الرمـــوز الاخرى في ابراز المغزى النفسي الكبير للحكاية ٠ امـــا الحكاية الشعبية فهـي تحتوي على ذلك الرمز الكبير Allegory الذي تتضافر من حوله كل عناصر الحكاية لابراز مغزاه ٠ ذلك ان قيمة الحكاية عندئذ تتوقف على مدى نجاح هذا الرمز الكبير في ابراز هدف الحكاية ٠ وهذا الرمز الكبير هو ما يسميه البلاغيون « التشبيه التمثيلي » وان كنت لا ارتاح لهذه التسمية القديمة ٠

هذا الرمز الكبير هو صاحب الصنابير الـــذي جلس بالقرب من القصر ليطلع كل انسان على ما يأتي به صنبوره ، اي يطلعه على حظه في الحياة ٠ وعندئذ جرب الرجل صنبوره ، فوجده قد سد وكف المـاء ان ينسكب منه كلية ٠ ولهذا فقد توفي الرجـــل في النهاية ٠ اي ان احداث الحكاية كانت تتطور من حول هذا الرمز الكبيـــر حتى عادت وتركزت فيه مرة اخرى ٠

والرمز الكبير هو قصة البومة التي شاءت ان تزوج ابنتها للغراب وذلك في حكاية السلطان الجبار واشترطت عليه ان يقدم مهرا لابنتها خمسين بلدا خربا ·

وهو ذلك الحظ النائم الذي ذهب صاحبه لكي يوقظه فيقف في عونه · ولكن الحظ كان قد خاصم صاحبه الى الابد وتركه ليروح ضحية عمله ·

وهو الجمجمة التي عثر عليها الرجل وقد كتب عليها : قتلت في حياتي اربعين وسأقتل في مماتي اربعين · وهو كذلك تلك البطيخة التي رآها الملك في منامه وقد سطا عليها غراب واخذ ينهش قلبها ·

ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان الحكاية الشعبية بوصفها كلا ، تعد في كثير من الاحيان وحدة رمزية متكاملة · ومثال ذلك حكاية شيخ المجاذيب التي بدأت بدخول بطلها في قلب العالم المجهول ، ثم عادت واخرجته منه ، بعد ان ازاح النقاب عن جوانبه المأساوية الغريبة · ومثال ذلك كذلك حكاية الكلاب الرومي والكلاب البلدي التي تشير الى واقع الانسان الشعبي المرير ·

ثالثا ـ التجسيد :

ويميل الانسان الشعبي كل الميل الى تجسيد الظواهر المعنوية كما يميل الى تجسيد حكمه وامثاله التي توارثها · فاذا كان قد ورث حكمة « اعمل طيب وارميه البحر » فهو يجسد هذه الحكمة ويحكي حكاية عن شاب نصحه ابوه قبل ان يموت ان ينفذ هذه الحكمة ، فجعل كل يوم يصنع طعاما ويلقيه في البحر ·

واذا كان قد ورث حكمة « اللقم تمنع النقم » ، يجسد تلك الحكمة في منظر الطبق المتلىء بالطعام الذي حال دون سقوط الحجر على رأس الزوجة ·

وبالمثل جسد حكمة « على قد لحافك مد رجليك » في حكاية الملك الذي هدد وزيره بأن يشتري له لحافا طوله متر وعرضه متر والا قطع رقبته · وقد تحتم على الملك بعد ذلك ان يقرفص رجليه ، اثر ضربة من الرجل الحكيم عليها ، حتى يغطيه اللحاف ·

وكذلك حكمة « اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » فقد رأينا ان تلك الحكمة قد قرئت على جبين الجمجمة كما قرئت على جبين الرجل الذي ارتطم بالسلم وسقط ميتا وذلك في حكايـــة « من جاور السعيد يسعد » ·

وبالمثل جسدت الحكاية الفقر على هيئة شيخ مهول ، وكان يتحتم على الرجل الفقير ، لكي يتخلص من هذا الشبح ، ان يردمه بالتراب ، وان يغطي التراب بحجر حتى لا يصحو الفقر بعد ذلك ·

بل ان عبارة « ركب العدل الظلم » جسدتها الحكاية ، بأن جعلت الرجل المستأجر ينتصر على صاحب الارض ، ويرغمه على الذهاب الى السوق وهناك ركب فوق ظهره ، ونادى على الملأ : لقد حـــان الوقت الذي ركب فيه العدل الظلم ·

رابعا ـ المقدرة اللغوية :

ونعني بالمقدرة اللغوية ، قدرة الانسان الشعبي عـــلى استخدام التورية والكناية ، بحيث يبدو الكلام في شكل الغاز ·

فقد تقابل شاب مع رجل كهل في الطريق وتصادق معــه · وفجأة سأل الشاب الكهل قائلا : تشيلني والا اشيلك ؟ وهو يعني بذلك ، هــل تحكي علي حكاية فتجعلني اشعر كأني اسير بخفة علـــى الارض كأنك تحملني ، ام احكي انا عليك حكاية · فلم يفهم الكهل عبارته · ثم سارا بعض الوقت ، فأبصرا حقلا يجني الفلاح ثماره · فسأل الشاب الكهل:

هل هذا الفلاح يجني ثمار حقله أم لا ؟ وهو يعني بذلك ، هل يمتلك الفلاح الحقل فيكون بذلك قد جنى ثماره ، ام انه لا يملكه ، فهو بذلك يجني ثماره لغيره · ولم يفهم الشيخ هذه العبارة كذلك · ثم سارا بعد ذلك فأبصرا جنازة رجل فسأل الشاب الكهل للمرة الثالثة وقال له : هل صاحب هذه الجنازة توفي ام لم يتوف ؟ وكان يقصد بذلك ، هل ترك هذا الرجل ذرية تحمل اسمه فيما بعد ام لا ·

ولقد رأينا كيف كانت الابنة ، في حكاية « اين العقل » تتلاعب بالالفاظ ، عندما قالت : ابي راح يسقي الماء بالماء ، واخي راح يصطاد الهواء من الهواء ، وامي راحت تكفر بالله ·

وتتكرر هذه الاسئلة الملغزة مرة اخرى في حكاية « الصياد والملك والوزير » ، عندما سأل الملك الصياد : كيف حال البعيد ، وكيف حال الجماعة ، وكيف حال الاثنين ·

ولعلنا استطعنا بعد هذه الجولة مع قصصنا الشعبي ، ان نبرز سماته ووظيفته ، سواء أكان هذا القصص خرافيا ام شعبيا · ولعلنا استطعنا ان نكشف عن اهتمامات الشعب العربي في حياته المعاصرة بعد ان اصبح يعيش الحياة في وعي كامل ، فاستغل كل قدراته الفنية في التعبير عن جوانبها المختلفة ·

الفهرس

صفحة

مطبعة الرأي الجديد
خندق الغميق - شارع نايف تللو
تلفون ٢٣٠٠٣١

